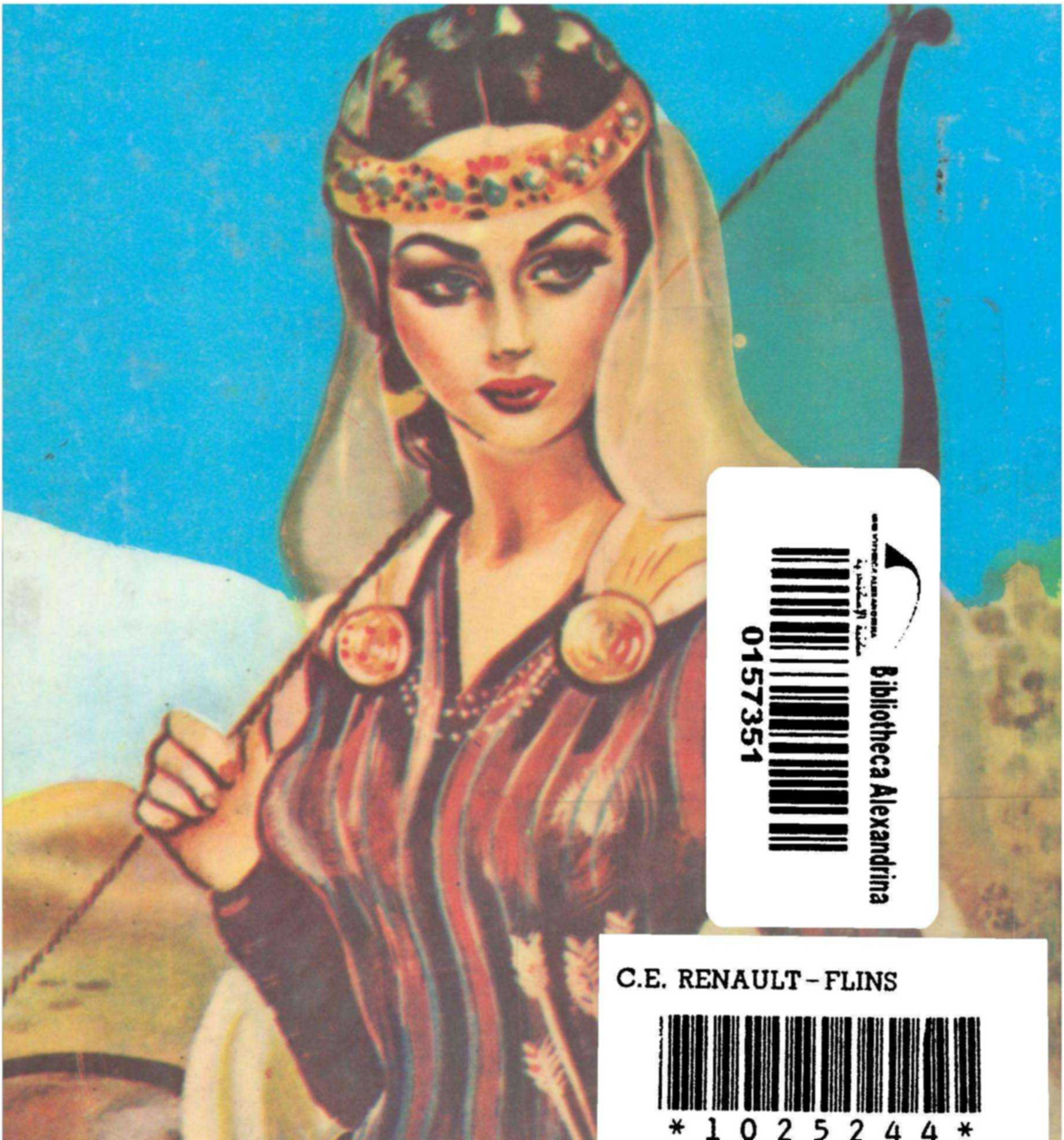
روايات تاريخ الإسلام

عروس فرغانة

جرجي زيدان



عروس فرغانة

تتضمن وصف الدولة العباسية وعاصمتها « سامرا »
فى عهـــد المعتصم بالله ، وطمع الفــرس فى ارجاع
دولتهم ، ونهوض الروم لاكتســاح المملكة الاسلامية

جرجي زيدان

المكتبة الادبية - بيروت

أبطال الرواية

المرزبان طهماز	من سراة فرغانة
عروس فرغانة	جهان بنت طهماز
القهرمانة خيزران	مربية جهان
سامان	شقيق جهان
ضرغام	رئيس حرس المعتصم
الأفشين حيدر	قائد جند بغداد
آفتاب	والدة ضرغام
احمد بن ابى دؤاد	قاضي القضاة
بابك الخرمى	صاحب اردبيل

مراجع هذه الرواية

هذه هى المراجع التى اعتمد عليها المؤلف فى تأليف الرواية ووقائعها التاريخية

* تاريخ : ابن الاثير – المسعودى – المقدسى .
* معجم ياقوت
* رحلة ابن بطوطة
* تاريخ التمدن الاسلامى
* البلدان لليعقوبى
* سير الملوك
* تاريخ طبرستان لابن اسفنديار

نبذة تاريخية

فرغانة مدينة كبيرة على حدود تركستان ، كانت عاصمه الكورة المسماة باسمها ، وكان الفرس يسمونها « اخشيكسيت » . وهي تطل على ضفاف نهر جيحون الذي يسميه العرب نهر « الشاش » ويسميه الافرنج نهر « يكسارت » والاتراك يسمونه نهر « سرداريا »

وبيننا وبين فرغانة بعد شاسع يستغرق قطعه بضعة أشهر ، في السير شرقا عبر الشام فالعراق ففارس فخراسان . ثم عبور نهر سيحون واختراق بخارى وسمرقند واشروسنة للوصول الى ضفاف جيحون أو نهر الشاش ، بعد اجتياز كثير من الجبال والصحارى والسهول والأودية ، ومشاهدة أمم شتى فيما بين سيحون وجيحون ، تختلف لغة وعنصرا ودينا . ناهيك بالمفاوز التي يعسر سلوكها ، وكثرة قطاع الطرق فيها ، وأكثرهم من بدو التركمان وهم أهل خشونة وسطو

وقد استطاع العرب بعد الاسلام أن يفتحوا الشام والعراق ومصر وفارس في بضع عشرة سنة . لكنهم لم يستطيعوا الوصول الى فرغانة الا في أواخر القرن الأول للهجرة ، وكان فتحها على يد قتيبة بن مسلم فاتح تركستان سنة ٩٤ هـ . ولم يستعمرها العرب أو يقيموا بها الا بعد ذلك بأعوام عديدة . وكانت تابعة لعامل خراسان في تأدية الجزية والخراج

وبرغم ما تقدم ذكره من المفاوز والجبال في الطريق الى فرغانة ، كان المسافر اليها اذ ينتهي بعد تلك الأخطار الى نهر جيحون يسير ما بقي من الطريق حتى مدينة فرغانة على ضفة النهر الشرقية ، فيرى هنالك الاسواق والقصور ذات الأسوار العالية ، ويرى الأرباض والبساتين على ضفتي النهر ممتدة في أرض مستوية مساحتها ثلاثة فراسخ . ثم يرى شماليها جبلا وعرا على بعد ميل منها . ويرى وسطها قلعة عظيمة يقال لها في اصطلاح الفرس « قهندز » شيدت لتعتصم بها حامية المدينة عند الحاجة ، ولذلك بنيت بناء متينا بالأحجار الضخمة دون كل أبنية المدينة المتخذة من الطين .

وحول القلعة سور له أربعة أبواب ، تليه أرباض فسيحه ، ثم ســـور ثان بأبواب أربعة أيضا · ويتخلل المدينة والأرباض مياه جارية وحياض كثيرة· هذا الى ما يحيط بالمدينة كلها من بســـاتين ملتفة ونهيرات جارية تصلها بالنهر · فكانت هذه المنطقة من أنزه بلاد تركستان أو ما وراء النهر

وكان سكان فرغانة عند الفتح الاسلامي خليطا من أهل البلاد الأصليين الذين يسمونهم « طاجية » · وجماعات من الفرس والهنود والأتراك وأهل الصين · وكان الفرس أرقاهم جميعا ، بل كانوا أرقى المشـــارقة في ذلك العصر ، فكانت لهم الرياســـة والسياسة والنفوذ الأدبي والديني · لأنهم كانوا ينقلون معهم تمدنهم حيثما حلوا ، وكانت لغتهم البهلوية (الفارسية القـــديمة) لغة الطبقة الراقيـــة في الشرق الأقصى ، كما هو شـــأن اللغة الفارسية الحديثة الآن · وكانت لغة أهل فرغانة الأصليين التركيةالقديمة المعروفة بالشاغطائية · وكانت المجوسية دين أكثر الفرس حتى ذلك الحين

وحينما فتح العـــرب فرغانة ، كان يحكمها أمراء أو ملوك يلقب كل منهم بلقب خاص بهم هو « أخشيد » · كما يلقب ملك الحبشة بالنجاشي ، وملك الرّوم بقيصر ، وملك الفرس بكسرى·وكان الأخاشيد الذين يتولون أجزاء كورة فرغانة كثيرين · فلما دخلت في حـــوزة المســـلمين وألحقوها بامارة خراسان ، لم تبق بها حاجة الى ملوكها المذكورين ، ولم يعترضهم المسلمون في دينهم أو عاداتهم أو شيء من أحوالهم ، فبقي أكثرهم في البلاد ، يتمتعون بالسكينة والعيش الهنيء في ظل المسلمين ، ونزح بعضهم الى قلب المملكة الاسلامية في العراق ، فتقربوا الى بلاط الخلفاء وخدموهم واعتنقوا الاسلام وتولوا الأعمال ، وأشهرهم الأخشيد طغج بن جف صاحب مصر

جهان عروس فرغانة

اصـــبح أهل فرغانة في يوم من أيام سنة ٢٢١ للهجرة وهم يتاهبون للاحتفال بالنيروز (رأس السنة) ، فأخذوا في اقامة معالم افريبه ، ناصبين الأعلام الملونة فوق منـازلهم ، معلقين طاقات الرياحين عـلى أبوابها . ثم تقاطروا الى الأسواق يبتاعون الألبسة الجـديدة لهم ولأولادهم ، وأطباق الحلوى وغيرها من المآكل التي تكفي خلال أيام العيد الستة

ولو دخلت المنازل لرأيت النســاء قد أوقدن النيران لاعــداد الأطعمة والحلوى . وأحمين الحمامات للاغتسال . ولرأيت الجواري مشـتغلات بتزيين الأولاد والطبخ وعجن أرغفة العيـد . وهي أرغفة كان يصنعها الفرس في ذلك اليوم من حنطة السنة الجديدة ليقتسموها صباح العيد متفائلين بأكلها استبشارا بخصب تلك السنة

وكانوا يتعاملون في ذلك اليوم بالنقود الجديدة ويتهادون الحبوب الجديدة على أطباق من الفضة ونحوها ، ويترامون بالبيض والثمار

أما الأسواق فكانت في ذلك الصباح تحفل بالمارة من الرجال والأولاد، هذا يحمل قفة وذاك ينقل ســلة ، وذاك يسوق حمارا أو فرسا ، وكلهم يتسابقون الى المنـازل أو الى بيت النار ، يحملون الهـدايا لأولادهم أو للموبذان ــ كهان المجوس ــ وقد تصاكت مناكبهم وتصادمت أقدامهم

ولو أنك صعدت الى القلعة الكبرى (القهندز) القائمة وســط المدينة وأشرفت من سطحها على أطراف فرغانة ، لرأيتها أشبه بخريطة مرسـومة على ورق أو صورة ملونة . فحول القلعة مبان متشابهة من الطين كلها من طبقة واحدة ماعدا بناءين : أولهما « بيت النار » وهو الهيـكل الذي يتعبد فيه المجوس . وكانت المجوسية لا تزال متغلبة هناك . ويسمونه « كارشان شاه » . وهو رفيع العماد يظهر بارزا بين أبنية المدينة كالنخلة بين الرياحين وقد نصبوا حول سطحه رايات من الديباج طول الواحدة منها عشرات من الأذرع ، مرسلة في الفضاء يلاعبها الهواء ، أكثرها خضراء اللون . أما البناء الثاني فهو « بيت المرزبان » . والمرازبة هم حكام المقاطعات في عهد الأكاسرة ــ وحول البيت حديقة فيها من كل فاكهة زوجان

وهناك وراء سور المدينة امتدت الأغراس والأعناب والرياحين تتخللها

مجارى الماء وتتغنى على أفنانها الأطيار

فبينا أهل المدينة فى ذلك الاحتفال اذا بموكب حليل يخترق الأسواق ويشغلهم عما هم فيه لفخامته وغرابته · وهو مؤلف من مركبة كبيرة أشبه بالغرفة منها بالعربة ، فوقها قبة من الفضة الموهة بالذهب قائمة على أعمدة من الخشب الملون بينها ستائر من الديباج الأزرق ، ويجر المركبة جوادان مجللان بالحرير المزركش، وقد ركب السائق أحدهما وفى يده سوط يسوقهما به ، وعود كبير يصوبهما به اذا عاجا عن القصد · ويكتنف المركبة بضعة من الخصيان يركضون الى جانبيها ، وقد أرخيت الستائر على الراكبين فلا يراهم أحد · على أنه لم يكن فى فرغانة أحد من الرجال أو النساء لا يعرف صاحب هذه المركبة ، اذ ليس هناك مثلها ، وهى مركبة مرزبان المدينة ، أهداها اليه بعض أهل امرأته فى بلاد القوقاز · اذ كان فارسى الأصل وامرأته جركسية من القوقاز ، وأهل تلك البلاد يستخدمون هذه المركبات لحمل الخواتين فى خروجهن أو أسفارهن ، وفى المركبة كل ما يحتاج اليه الخاتون من الأدوات حتى الطعام والشراب ، فكان أهل فرغانة لا تمر بهم هذه المركبة الا تشوقوا لرؤية من فيها لعلمهم أنها تقل بنت المرزبان التى يحبونها ويجلون قدرها ويعجبون بجمالها وتعقلها · وكثيرا ما رأوها تمر بهم فى مركبتها وقد أزاحت ستائرها فلا تحتجب عن أحد · واذا وقع بصرها على أحدهم ابتسمت له ابتساما يزيده تهيبا منها

أما فى ذلك اليوم فكانت ابنة المرزبان قد أرخت ستائر المركبة ، وأركض السائق الجوادين ، وأدرك المارة من اسراعه أنه يريد الخروج من المدينة · ثم رأوا وراء المركبة جوادين مسرجين لا يقودهما سائق ولا يركبهما راكب ، أحدهما أدهم على سرجه جعبة مملوءة بالنبال فلم يخف على العارفين أن الجواد لصاحبة المركبة وقد تعودوا أن يروها خارجة عليه بألبسة الرجال للصيد أو السباق ، ووراء الجوادين خدمة الصيد وفيهم أصحاب الكلاب والفهود· ولم يعجب أهل فرغانة لرؤيتهم معدات الصيد هذه ، لأنهم يعلمون مهارة بنت المرزبان فيه ، ولكنهم عجبوا لخروجها فى ذلك اليوم

وكان بين المارة رجلان : أحدهما تاجر من أهل فرغانة ، والآخر قريب له من أهل « خوقند » أتى لقضاء أيام النيروز عنده · ولم يكن رأى شيئا من ذلك قبلا ، فسأل رفيقه عن صاحب هذا الموكب فقال : « هو موكب الخاتون (جهان) بنت المرزبان (طهماز) · ألم تسمع عنها من قبل ؟ »

قال : « سمعت فى المرة الماضية عن مرزبان يقيم بهذه المدينة معتزلا وانه ذو ثروة طائلة وليس له الا ابنة سمعت الناس يتحدثون بجمالها فهل هى وحيدته ؟ »

قال : « لها أخ أجرد قبيح الخلق والخلق كأنه ليس أخاها »

قال : « لعل المرزبان من أهل هذه المدينة ؟ »

قال : « بل هو غريب عنها جاءها وهو شاب منذ ثلاثين سنة أو أربعين ، واتخذها وطنا له فرارا من المسلمين العرب. وكان حاكما في بعض مقاطعات فارس فقاسى اضطهادا ولم يشأ أن يبدل دينه فأتى بأمواله وأقام هنا »

وسأله : « وهل هو غني يا صاحبي ؟ »

قال : « له ثروة طائلة ، وأكثر المغارس خارج فرغانة على ضفة نهر الشاش ملك له ، فضلا عن المنازل والنقود والجواهر . ولكن مالنا وله ؟. دعنا من ذلك وامض بنا الى سوق اللحم لنبتاع خروفا نذبحه لأولادنا »

وكان رفيقه من محبي الاطلاع على أخبار الناس والاعتراض على أعمالهم فلم يصغ لرأي صاحبه بل قال : « قل لي كيف تخرج هذه الخاتون من البيت في مثل هذا اليوم ؟ »

فضحك رفيقه وقال : « كأنك تريدها أن تبقى في البيت لتعجن العجين وتخبزه ولتطبخ الطبيخ كما تفعل نساؤنا ؟!. انها يا صاحبي سيدة بيت أبيها ، وقد توفيت والدتها منذ أعوام فلم يتزوج المرزبان بعدها اكراما لها. فهو يحبها حبا جما ويعاملها كأنه عاشق يدلل عشيقته ! »

قال : « لست أعني أن تقيم في البيت للعجن أو للطبخ بل تبقى فيه لاستقبال الزائرين الذين يتوافدون على بيت أبيها بالهدايا والتحف في يوم العيد »

فقطع الآخر كلامه قائلا : « دعنا من ذلك يا صديقي وسر بنا الى السوق لننتقي خروفا نشتريه »

وكان الموكب قد جاوز الرجلين حتى خرج من المدينة الى الأرباض ، ومنها الى البساتين فوقف عند مضرب لبعض أتباع المرزبان تعودوا استقبال هذا الموكب فخفوا لملاقاته . فلما وقفت المركبة ترجل السائق ووقف بجانب الجوادين ليمنعهما من السير أثناء نزول الخاتون. وتقدم أحد الخصيان للأخذ بيدها . وكانت قد قربته للطفه وخفة ظله واسمه «مرجان». فوقف بجانب المركبة لا يتجرأ على ازاحة الستارة . فطال وقوفه دون أن تفتح أو تطل الخاتون . ولكنه سمع حديثا داخل الستارة فتاق الى معرفته ولكن رده التهيب عن الاصغاء لسماعه . وكان رجال الموكب والأجراء في المزرعة واقفين ينتظرون ترجل جهان . فلما أبطأت قلقوا . وكان جوادها الأدهم أشد قلقا منهم . فأخذ يفحص الأرض بقوائمه وسائسه لا يقوى على زجره. ثم صهل كأنه ينادي صاحبته أو يستعجلها ، فاذا بستارة المركبة قد أزيحت ونزلت منها امرأة كهلة في الخمسين من عمرها عليها سمات الرزانة ، وقد زادها الانقباض فتنة ، وكانت ترتدي ثوبا يغطي كل جسمها ، وعلى رأسها

وعنقها خمار أحمر لا يظهر غير وجهها . فعرف الواقفون أنها القهرمانة خيزران مربية جهان ووصيفتها ومستودع أسرارها

وبعد أن ترجلت القهرمانة . مدت يدها لاستقبال سيدتها فنزلت «جهان» حتى وقفت بجانب المركبة والأبصار شاخصة اليها للتمتع بجمالها الجاذب النادر . وكانت قد لبست ذلك اليوم ثوب الصيد . وهو يتألف من السراويل والقباء أو الدراعة ، وتزملت بما يشبه العباءة من الحرير المزركش . ولفت رأسها بعمامة أشبه بالعصابة تغطي الجبين الى الحاجبين . وأرسلت منها ذؤابتين خلف العنق اتقاء حر الشمس . وأدارت العباءة حول العنق حتى لا يبدو منها غير بعض وجهها

وكانت طويلة القامة جليلة الطلعة ، في وجهها هيبة وصحة وجمال ، وعيناها كبيرتان فيهما نور وذكاء وجاذبية لا يعبر عنها بغير السحر، ولذلك يشعر من يبادلها النظر أو الحديث بسلطانها على قلبه وعقله فلا يقوى على التبسط معها في الحديث ، ولا تطاوعه نفسه على مخالفتها في أمر كأنها ملكت عليه ارادته فيصبح آلة بيدها . وكان الناس ينتظرون خروجها من منزلها للصيد أو النزهة فيقفون في الطرق ليشاهدوا محياها فكانت تبتسم للناظرين فتزيدهم تعلقا بها

أما في ذلك اليوم فخاب فألهم لأنهم رأوا في وجهها قلقا وفي عينيها دمعتين تحاول اخفاءهما بالابتسام

ولو أنك نظرت الى جهان في بيتها وقد أزاحت اللثام حتى ظهر عنقها وأرخت شعرها ، لرأيت قوة الجنان ورباطة الجأش ظاهرتين حول فمها وفي ذقنها . وتجلت لك قوتها في اندماج عنقها . وقد تعجب لأول وهلة من اختلاف ملامحها عن ملامح الفارسيين وأبوها منهم . فاذا علمت أن أمها جركسية زال تعجبك وعلمت أنها ورثت تلك الملامح عن أمها . كما ورثت عنها كثيرا من سجايا الجراكسة كالقوة والشجاعة والأنفة وتعود ركوب الخيل والسباق بها والخروج للصيد . على أنها أخذت عن أبيها ذكاء الفرس وتعقلهم ودقة احساسهم ، فكانت لهذا وذاك نادرة عصرها جمالا وجلالا ، وشغف بها الفرغانيون وسموها « عروس فرغانة »

فلما نزلت من المركبة ورأت الناس وقوفا لانتظارها وهم شاخصون بأبصارهم اليها . حيتهم على عجل خوفا من ظهور اضطرابها وهي حريصة على كتمان ما بها ، ثم التفتت الى القهرمانة وقالت بصوت موسيقي جميل : « أين الجواد يا أماه ؟ » . وكانت تناديها بذلك تلطفا وتحببا لأنها ربتها من صغرها وكانت ضنينة بها شفيقة عليها . ولذلك كانت جهان تستودعها أسرارها وتكشف لها عن مكنونات قلبها . ولم تبطىء في الخروج من المركبة الا لاشتغالها بالتحدث اليها في شيء أهمها

فأشارت القهرمانة الى السائس ، فأتى بالجواد يختال تيها كأنه يرقص ، فلما دنا من جهان نظرت اليه وابتسمت ثم داعبت جبينه بأناملها ، وكان على جبينه شعرات بيضاء تمثل أسدا رابضا فسمته لذلك «شير» وهو اسم الأسد بالفارسية . فلما شعر الجواد بأناملها استأنس وأخذ يضرب الأرض برجله . ثم التفتت القهرمانة الى الواقفين وقالت : « ان مولاتنا ذاهبة الى الصيد فامكثوا مع المركبة هنا لاعداد الطعام، وليتبعنا منكم رجلان يحسنان الركض حتى اذا وقع لنا صيد أتيا به » . ثم امتطت جهان جوادها الأدهم بأسرع من البرق،وقدم «فيروز» السائس للقهرمانة خيزران جوادها،وأعانها على الركوب فركبت وأشارت الى السائس أن يتقهقر ويمشي مع الرجلين الآخرين وأحدهما مرجان،وساقت جوادها الى جانب جواد سيدتها وسارتا متلازمتين ، وقد تنكبت جهان القوس وأما جعبة النبال فكانت معلقة بالقربوس ، والتمست عرض البر والجوادان يسيران معا على مهل،والأرض سهلة وأكثرها مزروع ، وتبدو في أقصاها الجبال المحيطة بالمدينة

كانت جهان قد تعودت الذهاب في الشعاب والأودية مع الفهادين وأصحاب الكلاب لاصطياد الغزلان أو حمر الوحوش أو الوعول . ولكنها في هذا اليوم لم تصطحب أحدا من أولئك لرغبتها في الانفراد ، وانما اتخذت الصيد حيلة للخروج

فلما أمعنتا في الخلاء التفتت القهرمانة الى جهان لفتة حنو وانعطاف وقالت : «والآن يا سيدتي ألا تكشفين لي عن سبب انقباضك ، وأنت تعلمين أني مستودع أسرارك وأسرار أمك من قبلك ؟ »

فتنهدت جهان وقالت : « دعيني يا أماه من هذا الحديث ، انما جئت لأروح عن النفس بالصيد »

فضحكت القهرمانة وقالت : « وهل تريدين مني أن أصدق أنك خرجت للصيد وأنا التي اخترعت هذه الحيلة لنخرج معا ؟ أم تحسبين سرك خافيا علي ؟ »

فأرادت مغالطتها فقالت : « أتستغربين انقباضي وأنت ترين أبي مريضا بالنقرس منذ أعوام ، وقد سمعت طبيبه يصرح بضعف الأمل في شفائه ؟ انني اذا أصيب أبي بسوء أصبح وحيدة لا أهل لي هنا ، ولست أعرف أهل أبي في بلاد فارس ولا أهل أمي في بلاد القوقاز ، ولا أدري مع ذلك كيف .. » . وغصت بريقها

فقالت القهرمانة : « ان مرض سيدي المرزبان لم يحدث بغتة ، وقد كنت تخافين على حياته من قبل ولم يبد عليك مثل هذا الانقباض .. وانما سببه سر أنت شديدة الحرص على كتمانه ، ولكنني أعرفه ! »

فالتفتت اليها جهان مستغربة وتفرست في عينيها ووجهها كأنها تحاول

ان تقرأ ضميرها ، فتأثرت القهرمانة من نظرها وبما تلألأ في عينيها وهي تغالب عواطفها وقالت : « نعم ان سرك غير خاف علي ، وان كنت تحاولين اخفاءه حياء · وأرى هذا الحياء يبدو على وجهك الآن »

فصعد الدم الى وجنتي جهان فتوردتا وأشرق وجهها وأبرقت عيناها بريقا ينم عما يجيش في قلبها من لواعج الحب · واعتراف العينين حجة صادقة مهما يبالغ صاحبهما في الانكار · فاذا قالت العين قولا وقال اللسان آخر فالصادق هي لا هو ، خصوصا من يكون مثل جهان في رقة الاحساس وقوة العاطفة · فقد كانت كبيرة القلب وكبيرة العقل معا ، ولكن الضعف النسائي غلب عليها في تلك اللحظة فأطرقت ، فابتدرتها خيزران قائلة : « لا تعجبي يا سيدتي لاطلاعي على السر ، ولست أنا وحدي المطلعة عليه فانه متداول بين أهل القصر لا يجهله أحد غير أبيك، ولولا تهيب أهل القصر لنقلوه اليه ولكنهم لا يستطيعون ذلك الا على يدي وأنا لم أفعل »

فبغتت جهان وقالت وهي تتشاغل باصلاح عرف جوادها : « وأخي سامان ؟ هل يعلمه أيضا ؟! »

فابتسمت ابتسامة تشف عن تألمها من ذكر ذلك الاسم وقالت : « سامان ؟!· ان سامان لا تخفى عليه خافية يا سيدتي وقد قلت لك ذلك مرارا »

فأدركت جهان أنها تريد انتقاد اخلاص أخيها ، فقطعت كلامها قائلة : « اني أتوسم في أخي سامان شيئا لا يرتاح اليه قلبي لا أدري ما هو ، ولكنني لا أحب العيب فيه فهو أخي الوحيد ، وأرى منه انعطافا الي ، وان كان بعضه لا يروق لي · على اني لا أحبذ انشغاله بالأسرار حتى ليخيل الي أنه جعبة خفايا وغوامض · وكثيرا ما يغيب عن البيت يوما فنبحث عنه في فرغانة بحثا دقيقا فلا نقف له على خبر ، ثم يرجع ونسأله عن غيابه فلا يجيب أو يجيب جوابا مبهما · وقد أخبرنا بعضهم أنه كثير الاختلاء بالموبذ كاهن بيت النار في المدينة ، ولا يخفى ما هو عليه هذا الكاهن من الدهاء والمكر »

فقالت خيزران : « أظن هذا الموبذ يؤيد طائفة الخرمية الجمعية السرية التي يتزعمها (بابك الخرمي) صاحب الحول والطول ، والذي أصبح خليفة المسلمين يخافه · ولا يبعد أن يكون أخوك سامان أحد أعضاء هذه الجمعية ، ولا بأس بذلك فالخرمية يعملون على اعادة السلطة للفرس ومحاربة المسلمين »

قالت : « لا أنكر ما في أخي سامان من مواضع الضعف ، ولكنه أخي · وعلى كل حال مالنا وله الآن ؟ »

فأطرقت القهرمانة وهي تعجب لحسن ظن الفتاة بأخيها ، رغم ما يظهر

من قبيح أعماله وما تعتقده هي من سوء قصده ، ولكنها أعرضت عن ذكره ورجعت الى ما كانا فيه فقالت : « والآن ألا تبوحين لى بما شغلك ؟ »

فأعظمت جهان أن يغلب عليها الضعف الى هذا الحد أمام مربيتها، فتحركت فيها الأنفة وقالت : « لا تستضعفيني يا أماه فقد تكونين واهمة ، والا فاذكري لى سبب كدري ان كنت تعلمين »

فقالت : « ان ضرغام هو السبب ! »

فلما سمعت جهان ذلك خفق قلبها وعاد الدم الى وجنتيها وأبرقت عيناها فابتدرتها خيزران قائلة : «لا تنكرى يا حبيبتى فعيناك تشهدان بأنك تحبين ضرغاما ! »

فسكتت جهان منتظرة أن تسمع من خيزران استحسانا أو استهجانا لذلك الحب . فقالت القهرمانة : « ان ضرغاما شاب جميل وشجاع باسل ، لا مثيل له في فرغانة ولا في غيرها من بلاد فارس »

فقالت : « فهمت انه شجاع وجميل ثم ماذا ..؟ »

فهمت خيزران بأن تصرح برأيها ولكنها خافت على جهان فأطرقت وسكتت . فقالت لها جهان بصوت هادىء وجأش رابط : « صرحي يا أمام ولا تخشى شيئا »

فقالت : « ليس في العالم أحسن من ضرغام لولا نسبه . فليس في فرغانة من يعرف أصله ونسبه حتى هو لا يعرف من أبوه »

قالت جهان وهي تتشاغل باصلاح القوس على كتفيها : « وماذا يقول الناس عنه ؟ »

قالت : « يقولون انه مثال الشجاعة وكرم الخلق ، عدا جماله وعلو همته وكبر نفسه . لكنهم يتساءلون عن نسبه ، وأنا أذكر أمه عندما أتت الى فرغانة تحمله ، وكانت في ابان شبابها جميلة الطلعة . وقد خطبها غير واحد من أهل فرغانة فأبت أن تتزوج وانصرفت الى تربية ابنها فقد كانت على فقرها شديدة العناية به ، ثم سمع سيدى المرزبان بخبرها فدعاها اليه وسألها ما خطبها فتكتمت في بادىء الأمر ، ثم ذكرت أنها أخذت طفلة من حضن أمها في بادية الترك ونشأت في منزل أحد النخاسين بالعراق حتى انتهت الى رجل من أهل تلك البلاد فأعتقها وتزوجها ، ثم توفى قبل أن تضع حملها . فلما وضعته أحبت الانقطاع الى تربيته . وقد شك سيدى المرزبان في قولها وأحب أن يجربها فعرض عليها أن يزوجها من أحد رجاله فأبت واعتذرت . فازداد شكا في حديثها ، وأنزلها بجانب قصره وأمر لها بما تحتاج اليه من أسباب المعيشة ، وكانت تحسن الخياطة وتعمل مع خدم القصر حتى أصيبت بالرمد وكف بصرها فكفت عن العمل وظلت في بيت

ابيك كما تعلمين . ولما شب صرغام تعلم ركوب الخيل والرمي بالنشـــاب وظهرت فيه ســـجايا نبيلة . فجعله مولاى المرزبان في حملة أعوانه . وكان يحبه ويجل مناقبه حتى بعث الخليفة المعتصم منذ بضعة أعوام الى هذه البلاد ليجند الرجال من الأتراك والفراغنة والاشروسنيين.فتطوع ضرغام لخدمته. وكنت قد لحظت ما بينكما من الحب المتبادل الذى تحاولين الآن اخفاءه . ولـكنني عجبت لذهابه وغيابه كأنه رأى نفســـه أقصر باعا من أن يسالك للتباعد بينكما في المقام والنسب »

وكانت القهرمانة تتكلم وجهان مصغية تسمع كلامها بشوق ولهفة . ثم أجابتها قائلة : « انه تطوع للعمل في خـدمة المعتصم لعلمه أن الرجال انما تظهر مواهبهم في مثل هذا الموقف . وكان قد تغلب عليه الوهم الذى أراه متغلبا عليك فزعم أنه لا يستحقني . وأنا أراه يفضـــلني بدرجات . فالمرء لا يقدر بمزارعه ومنازله وانما بمواهبه ومناقبه . وأنت تشهدين والناس كلهم يشهدون بأنه لا يبارى في مواهبه ومناقبه.ولا ريب عندى انه سيبلغ أرقى مراتب الجند فقد سمعنا بأناس من رفيق البلاد ابتاعهم الخليفة ورباهم وجنـــدهم فنبغ بعضـــهم وبلغوا مراتب القواد . فكيف بضرغام وهو كما تعرفينه وأعرفه ؟ » . وكانت تقول ذلك ولسانها يكاد يتلعثم لخفقان قلبها وثورة عواطفها

فادركت القهرمانة مما سمعت أنها عالقة بضرغام . وهي تعرف ثباتها على رأيها فلم تر أن تعارضها لكنها قالت : « لا شك عنـدى أن ضرغاماً سينال رتبة عليا في جند المعتصم . ولكن عروس فرغانة أرقى من أن ينالها القواد فان الملوك يخطبون رضاها ! » . فالت ذلك جادة تعني ما تقول لا على سبيل الاطراء والمجاملة . ولكيلا تترك لجهان وقتا للتفكير والجواب أظهرت أنهـا تعبت من الركوب والتفتت الى ما حولها فوجدت أنها على مقربة من تل يشرف على أودية كانت تأتيها جهان للصيد . فقالت لها . « ألا ترين أن نترجـل للاستراحة هنا قليلا ثم نعود الى الركوب اذا شئت . لأني لا أصبر صبرك على هذه المشقة »

فأجابت جهان بالقبول . وترجلتا فسارع السائس الى الجوادين فانتحى بهما ناحية . وافترش لسادتيهما على صخرة منبسطة فوق التل قعدتا عليها . واشتغل هو بعلف الجوادين - ثم أشارت جهان الى الخادمين بأن يتوغلا في الأودية يستطلعان حال الصيد هناك

كتاب ضرغام

قالت القهرمانة لجهان : « كيف رايت كلامي يا سيدتي ؟ »

قالت : « لا بدع اذا أطريتني واعجبت بي فاني بمنزلة ابنتك وكل ام بابنتها معجبة حتى تظن الملوك يقتتلون عليها »

فقالت : « اني لم اقل ما قلته الا واثقة من صحته . وهل هناك شك في ان اعظم ملوك الفرس يطلبون رضاك ؟ »

فهزت جهان كتفيها مفكرة مستبعدة وقالت : « ملوك الفرس ؟ . وهل للفرس ملوك اليوم ؟ » . فاستبشرت القهرمانة بقرب اقناعها بعلو مرتبتها لأنها على ثقة مما تقول فقالت : « لا تهزي كتفيك يا سيدتي . ان للفرس ملوكا عظاما لا يلبثون أن يعيدوا سلطان الأكاسرة . الا تعرفين مازيار صاحب طبرستان ؟ . الا تعرفين بابك الخرمي صاحب اردبيل ؟ ان كلا من هذين ملك عظيم تخضع له الألوف من الأبطال ، ولكنه في الوقت نفسه يخضع لعروس فرغانة ، ويضحي بحياته في سبيل رضاها »

- فهزت جهان راسها مستخفة وقالت وهي تنظر الى جوادها الأدهم سارحا يرعى العشب : « دعينا من الملوك ، لا ارب لنا في غير ضرغام ، وما لنا وبابك ومازيار واين نحن من اردبيل وطبرستان ؟ »

قالت : « اذا كنت في شك من قولي فاسألي اخاك سلمان عن بابك الخرمي »

قالت وقد تذكرت : « اظنني سمعته يطري صاحب هذا الاسم ، ولكنني لا اثق بأقواله كلها كما تعلمين ، ولم اكترث للأمر لأن ضرغاما ليس مثله احد عندي ولا رغبة لي في الملوك والأمراء »

فقالت : « اذا كنت تستبعدين تلك البلاد فهذا الأفشين صاحب اشروسنة على مقربة منا ، وهو الآن قائد جند المسلمين كافة في بغداد ، وعما قليل يأتي لزيارة ابيك ، لأن سيدي كتب اليه منذ اشهر يدعوه الى زيارته في عيد النيروز »

وكانت جهان حتى الساعة لا تبالي ما تقوله خيزران ، فلما سمعت اسم الأفشين اجفلت وتغير وجهها وانقبضت نفسها ، وصدت خيزران عن الكلام

بكفها كأنها تقول : « كفى لا تذكرى هذا الاسم ! »
وارادت هذه ان تستأنف الحديث فصاحت بها جهان قائلة : « دعينى من ذكر هـذا الرجل ، انى لا اتحمل سماع اسمه ! . انه سبب كدرى الذى زعمت انك عرفته . فان نفسى انقبضت منذ سمعت بقرب قدومه الى فرغانة وانه سيقضى بعض ايام عيد النيروز عندنا ، ولو انى استطعت ان اقضى العيد فى مكان بعيد لفعلت »
فاستغربت خيزران كرهها للأفشين وقالت : « وهل أساء اليك الأفشين فى شيء ؟ »
قالت : « ما اساء الى ولا كلمنى كلمة ، ولكننى منذ رايته يأتى لزيارة أبى ونفسى تعافه وتنكر النظر اليه . ولا أذكر أن شعورى خاننى فى الحكم على الناس ! »
فقالت القهرمانة : « يا للعجب !. الا تعلمين ان الأفشين رئيس ضرغام ، وان غاية ما يبلغه ضرغام من التقدم فى جند المسلمين ان يصير قائدا من قواد الأفشين وتحت رايته »
فقالت بترفع وهدوء : « كلا يا أماه ، انه لا يعمل تحت رايته بل هو رئيس حرس الخليفة »
قالت وقد ظهر الاستغراب فى محياها : « وهل انت على يقين مما تقولين ؟ »
فنظرت اليها وابتسمت وقالت : « نعم ، انا من ذلك على يقين اصح من يقينك برغبة الملوك فى طلبى ! » . ومدت يدها الى جيبها وقالت : « وقد جاءنى كتابه منذ بضعة أشهر يخبرنى بذلك وينبئنى بقـرب قدومه الى فرغانة ، ولكنه الى الآن لم يأت » . واخرجت الكتاب ودفعته اليها لتقراه وهو مكتوب بالبهلوية ، فقرأت فيه :
« من ضرغام فى سامرا الى حبيبة قلبه جهان فى فرغانة
« يا سيدتى . ولا ازال ادعوك سيدتى لأنك سيدة العالمين ، وأنت أيضا حبيبتى لأنك ملكت قلبى وكل جوارحى . تركت فرغانة منذ بضع سنوات ولم أكتب اليك حتى الآن لأنى لم اكن اهلا لمخاطبتك . وكيف يتجاسر ضرغام الفقير اليتيم ان يخاطب جهان بنت المرزبان صاحبة السيادة مالكة الأموال والرقاب . وقد وعدتك يوم الوداع ان أبذل جهدى فى طلب العلا ، فاذا بلغت درجة تقربنى من مقامك اتيت اليك والتمست رضاك والا فانى اموت فى سبيل طلبك . وقد انتظمت فى الجندية وخضت المعامع باسمك واستقبلت النبال بصدرى وهو فيه فوقانى من الاذى . ولما ارتقيت فى مراتب الجند حتى صرت رئيس الحرس فى قصر الخليفة بادرت الى زف البشرى اليك ، وكأنك تسالينى عن عاقبة ذلك التقدم فانه ان لم يكن لاكتسب به رضاك فلا مارب لى فيه لأنى لا أرى للحياة قيمة ان لم تكن لك ومعك . وقد اخذت

سعى فى الشخوص الى فرغانة لأقبل يد سيدى المرزبان واحظى بمشاهدة حبيبتى جهان ، ولولا بعض المشكلات التى نخاف عواقبها على الخلافة لجئت ليك منذ أشهر ، على أنى ظفرت الآن بوسيلة تساعدنى على الرحيل . ذلك ن أمير المؤمنين بنى سامرا بالقرب من بغداد كما تعلمين لتكون خاصة به ليجعل فيها جنده الأتراك وأنا واحد منهم . وقد اراد أن ينتصر بهم على الاحزاب المختلفة التى نشأت فى المملكة الاسلامية من الفرس وغيرهم ، وخشى على هؤلاء الجنود اذا اختلطوا بسكان المدن المجاورة ان تذهب شدتهم ونخوتهم فارتأى أن يزوجهم جوارى تركيات من وراء النهر ، وعين اناسا يرسل بهم الى ما وراء فرغانة يبتاعون الجوارى والاماء ويعودون بهن . وقد أعربت له عن رغبتى فى زيارة وطنى وطلبت السماح لى بمصاحبة ذلك الوفد ، فوعدنى الخليفة بتحقيق هذه الرغبة ، فعسى ان آتيك قريبا . وقد عهدت فى توصيل كتابى هذا الى رجل من خاصتى . امى تهديك السلام »

فلما فرغت القهرمانة من تلاوة الكتاب همت بجهان وضمتها الى صدرها وقبلتها وهى تقول : « بورك فيك وفيه ، انه اهل لك . صدقت ان الرجل بأعماله لا بماله ، واذا كان قد أصبح رئيس الحرس بجده وبسالته فكيف بعد أعوام والدولة الاسلامية لا تزال حروبها قائمة ومثل ضرغام لا يعدم وسيلة للارتقاء ؟ »

فسرت جهان لموافقة القهرمانة على ما فى ذهنها لكنها ما لبثت ان استدركت وقالت : « أن هذا الكتاب جاءنى منذ عدة أشهر ولم يأت ضرغام ولا عرفت شيئا عنه »

قالت : « لا تجزعى انه آت . ولكن ... » . واطرقت كأنها تفكر فى امر طرا لها . فقالت جهان : « ولكن ماذا ، قولى يا أماه »

قالت : « ولكن أباك قد لا يرضى بضرغام »

قالت : « لم أخاطبه فى شأنه بعد ، ولكننى أعلم أنه يحبه ويجله ، كما انه لم يمنعنى امرا اردته قط »

قالت : « أعلم ان سيدى المرزبان يحب ضرغاما ويجله ، ولكن هناك امرا آخر هل فكرت فيه ؟ »

قالت : « وما هو ؟ »

قالت : « ان ضرغاما مسلم على ما أعلم ، فكيف يصح زواجه بك الا اذا اعتنقت الاسلام »

فقالت : « وما يمنعنى من ذلك ؟ والاسلام دين الدولة »

فقالت : « وتتركين ديانة ابيك وعشيرتك ؟ »

قالت : « اذا كانت هذه الديانة تحول بينى وبين ضرغام فانى اتركها .

لأني أحب ان اكون حيث يكون هــو فى الدنيــا والآخرة » . قالت ذلك واغرورقت عيناها وهى تبتسم

واحست القهرمانة أن الحديث طال وتحرج ، فأحبت ان تشغل عنه جهان فنهضت وقالت : « مضى قسم من النهار ولم تباشرى الصيــد ، فاركبى فرسك وانا أتبعك وألهو بما أشاهده من مهارتك فى مطاردة الغزلان »

□

اشارت جهان الى السائس أن يأتى بالجواد والقوس والنبال ، ثم نظرت الى الجبال امامها لتختار جهة تركب اليها ، فبصرت بوعل يركض على صخر قريب منها ، ولم تكن تعهد وجود الوعول فى تلك الجهــة فبغتت وصاحت بالسائس : « فيروز . هات القوس »

فأسرع اليها بالقوس فأوترتها وسددت السهم ، وأسرت أنها اذا أصابت طريدتها كان ذلك فألا بنيلها ضرغام وقرب مجيئه والا فلا . ونظرت الى الوعل فرأته وقف على تلك الصخرة والتفت نحوهم فرمته بأسرع من لمح البصر وسمعت طنين النبل فى الهواء وخيزران تنظر الى الوعل وتخاف أن يفر قبل اطلاق السهم فمــا لبثت أن رأته سقط ثم انقلب الى شق بين صخــرين فصاحت جهان : « وقعوقع . الى به يا مرجان » . فركض ورفيقه والسائس فى أثرهما ، وظلتجهان واقفة وقلبها يكاد يطيرمنالفرح ، ثم تقدمتخيزران اليها وهى تضحك وتقول : « لقد سرنى رمى هذا الوعل ، ليس لأنك أصبته فقط ولكننى قبل أن ترميهأضمرت أن يكون فوزك فى صيدك هذا رمزا الى فوزك بضرغام »

فابتسمت جهان وقالت : « وهذا ضميرى أيضا .. أتقولين بعد ذلك أن ضرغاما يليق بى ؟ »

قالت : « بسطت لك رأيى وانا الآن اكثر رغبة فيه » . وضحكت تمازحها

فانبسطت نفس جهان وسرى عنها بعد مكاشفة خيزران . ثم سمعت صياحا فالتفتت فرأت الرجال يجرون الوعل جرا لثقله فأسرعت اليهم فرأت الوعل ميتا لا حراك به . فتعجبت من سرعة مصرعه بسهم واحد . فلما وصلت اليه رأت سهمها لا يزال مغروسا فى خاصرته ولاحت منها التفاتة فرأت سهما آخر فى لبته فصاحت : « انه مصاب بسهمين وأنا لم اطلق الا سهما واحدا . هو ذا السهم الآخر »

وامرت مرجان ان يستخرجه فأخرجه بعد عنف شديد وهو يقول : « ان الوعل مات بهذا السهم » . ودفعه الى جهان فتناولته وقلبته بين اناملها فرأت على ريشه كتابة بالعربية وكانت تحسن قراءتها ، ولم تكد تتبين

احرفها حتى صاحت : « ضرغام .. ضرغام ! انى أقرأ اسم ضرغام على هذا السهم ». فتقدم مرجان وكان يقرأ العربية ايضا فقال : « هو اسم ضرغام »

فبهتت جهان والتفتت الى خيزران وهى تتجلد خوفا من ظهور بغتتها امام الرجلين ، ثم أمرتهما أن يذهبا بالوعل الى مكان يذبحانه فيه ويفعلان به ما شاءا ، فلما ابتعدا قالت : « ما قولك فى هذه المصادفة ؟ »

قالت : « يظهر ان ضرغاما قريب من هذا المكان وهذا سهمه قد رمى الوعل به فحمل الوعل جرحه مسافة طويلة لأن هذه الوعول لا تسرح الا عند ضفاف نهر الشاش على مسافة بعيدة من هذا المكان »

فأطرقت جهان وهى تحسب نفسها فى حلم ثم قالت : « انها مصادفة غريبة !.. على انى أخاف ان نكون قد اخطأنا الظن . ولكن لا .. ان قلبى يحدثنى بصدق ظنى .. فاذا كنت مصيبة فأين تظنين ضرغاما الآن ؟ »

قالت : «أظنه معسكرا على ماء للاستراحة قبل دخول فرغانة ، ولا أعرف ماء فى هذه الجهة الا نهر الشاش فلعله معسكر على ضفته الشرقية »

قالت : « وهل هذه الضفة بعيدة عنا ؟ »

قالت : « انها على فرسخ وبعض الفرسخ من هنا . اظنك تريدين الذهاب ؟ »

فابتسمت والخجل يعارض ابتسامها ، وحدقت فى خيزران لتستطلع حقيقة غرضها من السؤال ، فرأتها تنظر اليها باهتمام فعلمت أنها تشاركها شعورها فقالت : « وهل تظنين فى ذهابى اليه بأسا ؟ »

فأشفقت خيزران على عواطفها واحبت مجاراتها فقالت : « لو علم القوم أنك ذاهبة اليه عمدا لتحدثوا بذهابك ، ولكننا اذا لقيناه اتفاقا فلا بأس ، على ان المكان بعيد لا يخلو الذهاب اليه من المشقة . هل تستطيعين ذلك ؟ »

قالت : « لا مشقة علينا ونحن راكبتان . هلمى بنا ». قالت ذلك والتفتت الى الرجلين فرأتهما مشتغلين بذبح الوعل بعيدا

فأدركت خيزران انها تريد استقدامهما فسبقتها الى ذلك وقالت : « أرى أن آتى بخادمك فيروز يسير فى ركابك وتأمرى الآخر بالذهاب مع بقية الموكب بباب المدينة ينتظرنا مع بقية الخدم هناك »

فاستحسنت جهان رأيها ، فمشت خيزران الى الرجلين ونادتهما وأومأت الى فيروز أن يأتى فأسرع مهرولا فأمرته بابلاغ رفيقه أن يذهب للانتظار مع بقية الركب ، وبأن يأتى هو بالجوادين ، ويظل فى ركابهما ففعل ، وانطلق خلفهما لا يدرى الى أين تسيران

ضرغام وجهان

أدارت جهان رأس جوادها نحو النهر ومضت وعيناها شائعتان في الأفق لعلها ترى حبيبها قادما ، وبجانبها خيزران على جوادها . وكانت الشمس قد تكبدت السماء ، ونسيت جهان لفرط انشغالها أنها لم تذق طعاما في ذلك اليوم . وقد يغلب الحب على صاحبه حتى ينسيه وجوده

وظل الجوادان يسيران بهما في أرض بعضها مزروع وفيه الأجراء الذين يعرفون عروس فرغانة ، كما يعرفون جوادها وخادمها . فكانوا يقفون لها احتراما ويبتسمون اعجابا ، وهي لا تبتسم لتبلبل بالها . وبينما هي غارقة في تفكيرها صهل فرسها وفرس خيزران فانتبهت ونظرت أمامها فرأت على مقربة منها مزرعة فيها خيام كروية السقف على شكل خيام التركمان ــ وهم يبنونها مستديرة وسقفها قبة ــ ورأت بين الخيام بضعة جياد وغلامين يحلبان فرسين على عادة أهل بادية تركستان اذ يغتذون بألبان الخيل كما يتغذى بدو العرب بألبان الابل

فلما رأتهم جهان أرادت أن تسلك طريقا آخر لا يمر بهم توفيرا للوقت ، ولكن خيزران حولت شكيمة جوادها نحوهم وأشارت اليها أن تتبعها قائلة: « أرى يا مولاتي أن نسأل هؤلاء القوم عن ضرغام لعلهم رأوه مارا فيغنينا ذلك عن تكبد المشقة في الوصول الى النهر ؟ »

فاستحسنت جهان رأيها وحولت اليهم شكيمة جوادها أيضا . فلما رآهما أحد الغلامين فنهض وقد علم من قيافة جهان أنها أميرة كبيرة وأسرع الى أبيه في احدى الخيام يدعوه الى استقبال الأضياف . فجاء الرجل وهو فلاح شيخ يتوكأ على عكازه ، وما وقع بصره على جهان حتى عرفها ، فأمر أولاده بأن يعاونوها على الترجل مبالغة في الحفاوة بها ، ولكنها لم تشأ النزول وأثنت على الرجل ، ثم التفتت الى خيزران كأنها تحرضها على السؤال ، فقالت لها هذه : «انزلي يا سيدتي للاستراحة هنيهة ثم نركب». فأطاعتها مرغمة واستلم فيروز زمام الجوادين وابتعد بهما عن المكان لئلا يشوشا الموقف بالصهيل مع بقية الخيل

ولما ترجلتا خاطبهما الشيخ بلطف وسذاجة قائلا : « ألا تشرفنا بنت المرزبان بجلوسها لحظة في هذا البيت الحقير » . فخجلت وجلست على جلد

افترشوه لها ولرفيقتها . وقبل أن تهم خيزران بالسؤال جاء الغلام يحمل قدحا من الخشب فيه سائل عرفت أنه من لبن الأفراس فاعتذرت بأنها لا تشعر بالجوع . فقال الشيخ يخاطب غلامه : «قدم لها قدحا من القومز». وهو لبن الخيل يخمرونه ويقدمونه شرابا للزائرين كما يقدم العرب السويق وكما يقدم أهل هذا الزمان الليموناده أو الشاي . ونظر الى جهان وقال : « هذا القومز لا يستدعي جوعا فانه كالماء ويزيل التعب »

فلم تستطع جهان رده فتناولته فاغتنمت خيزران تلك الفترة وخاطبت الشيخ قائلة : « ألم يمر بكم أضياف غيرنا في هذا اليوم ؟ »

قال : « كلا يا سيدتي . ولذلك سررت بقدومكم - وقد تشرفت بمرور مولاتنا جهان فاذا فاتنا الأضياف فهي خير من ألف ضيف »

فقالت : « وهل يمر بكم المسافرون دائما ؟ » .

قال : « نعم يا سيدتي لأن القادم من أشروسنة أو خوكند أو بخارى قاصدا الى المشرق لابد له من أن يمر بنا بعد اجتيازه النهر . ثم يذهب الى فرغانة أو الى غيرها . وكثيرا ما تمر بنا قوافل التجار قادمة من الهند أو التبت أو الصين قاصدة الى بلاد الروم ؛ أو راجعة منها الى بلادها »

فنظرت الى جهان وكلمتها بالفارسية — وأكثر تلك البلاد يتكلمون الشاغطائية أي التركية القديمة — وقالت لها « ألا ترين أن نمكث هنا ريثما يمر ضرغام اذا كان لابد من مروره ؟ أليس ذلك أفضل من أن نقصده هناك وقد نسير اليه من طريق ويأتي هو من طريق آخر فلا نلتقي »

فلم تجب ولكن ظهر على ملامح وجهها أنها رضيت . فقالت خيزران : « ائذني للرجل في أن يقدم لنا شيئا نأكله » .

فقالت : « وكيف نطلب الطعام بعد أن رفضناه ؟ »

قالت : « أنا أطلبه بأسلوب معقول . والتفتت الى الرجل وقالت بلغته : « ألا تبيعون خيلا للذبح ؟ »

قال : « كلا يا سيدتي لأننا نربي الأفراس للبن ولا نذبحها الا متى عجزت وقل لبنها »

قالت : « واذا أردتم مهرا للذبح كيف تفعلون »

قال : « نترصد قطيعا من الخيل مارا من هنا فنشتري منه ما شئنا » . ثم أشار بيده الى الشرق وقال : « وقد مضت علي برهة وأنا أنظر الى هذه الجهة فأرى في الأفق البعيد غبارا كثيفا محلقا في الجو . وأتوقع دنوه فلعله غبار قطيع من الخيل قادم الينا فأبتاع منه فرسا أو فرسين للذبح . واذا شاءت مولاتنا الملكة هنيهة أخرى وتنازلت بأن تتناول الطعام عندنا ذبحت لها فرسا سمينا » .

فاستحسنت جهان أريحية الرجل وخفة روحه وابتسمت له ، ففهم أنها رضيت فأمر أحد أبنائه بملاقاة القطيع وتعجيله ، فأسرع الغلام يعدو واشتغل الشيخ باعداد المائدة ثم أتى ببطيخة وضعها بين يدي جهان وقال : « هذه بطيخة من بطيخ بخارى المشهور بحلاوته سنذبحها لمولاتنا في جملة الذبائح ! »

فاستغربت جهان وجود هذا البطيخ عنده وهو مما يتفاخر باقتنائه الكبراء . ولم يفت الرجل ما جال في خاطرها فاستدرك قائلا : « أهداني هذه البطيخة شاب مغرم جاء ليطلب الى احدى بناتي فأتى بهذه البطيخة في جملة الهدايا »

فلما سمعت جهان ذكر الغرام تذكرت لوعتها ، فتنهدت وأومأت الى الشيخ أن يحتفظ بالهدية وقالت : « احفظ الهدية لصاحبتها »

وأراد الشيخ أن يجيبها فسمع صوتا يناديه فالتفت فرأى ابنه راجعا بعدو وهو يلهث من التعب ويقول : « ان رعاة القطيع لا يبيعون من قطيعهم شيئا »

ونظرت جهان الى جهة الغبار المتصاعد من قطيع الخيل القادم ، فرأت في مقدمته فارسا على جواد مسرج ، ووراءه عشرات من الخيول عارية تتزاحم وتتراكض ، وعلى بعضها رعاة من بدو الكرج الذين يعيشون في براري تركستان على رعاية الخيل والماشية . ورأت الفارس الأول لابسا لباس الجند وبيده راية على رمح لم تنتبه للاسم الذي طرز عليها ولو قرأته لارتعدت فرائصها

أما الشيخ فأسرع الى الفارس واستوقفه وقال : « ألا تبيعوننا فرسا من هذه الأفراس ؟ »

فأجاب الفارس بأنفة وعجرفة : « كلا »

قال : « أنا في حاجة الى ذبيحة فنعطيكم الثمن الذي تريدونه »

فأدار رأسه يمنة ويسرة اشارة الى الرفض . ولكن الشيخ عاد فسأله « ولماذا لا تبيعون ؟ »

فقال « لأن هذا القطيع لأناس لا يبيعونه »

فقال : « ومن هؤلاء ؟ أليسوا تجارا »

أجاب « كلا » . ثم أومأ الى الراية وقال : « أظنك لا تعرف القراءة ولو عرفتها لكفيتنا مؤونة السؤال والجواب »

فلما سمعت جهان قوله نظرت الى الراية فقرأت فيها . « الافشين حيدر ابن كاوس » بأحرف عربية . فتغير لونها ونظرت الى خيزران فرأتها في مثل بغتتها . أما الشيخ فأجاب الفارس قائلا : « صدقت اني لا أعرف القراءة . لمن هذه الراية ؟

قال : « هي للافشين حيدر بن كاوس قائد جند الخليفة المعتصم وصاحب مملكة أشروسنة »

ولم يكن أحد في تركستان يجهل هذا الاسم لأن الافشين كان ملكا على اشروسنة قبل دخوله في خدمة المعتصم ، فبغت الشيخ وتهيب وقال : « ان مولانا الافشين مقيم ببغداد على ما نعلم »

قال : « كان في بغداد ولكنه جاء الى اشروسنة منذ أيام وبعثنا نبتاع الماشية لرجاله »

فقال : « وأنتم ذاهبون الآن بهذا القطيع الى أشروسنة ؟ »

قال : « كان مولانا الافشين في أشروسنة ، ولكنه قادم الى فرغانة يقضي عيد النيروز فيها ، ورجاله معسكرون خارجها على ضفاف الشاش ، وهذه الخيول لهم . فهل تحتاج الى زيادة ايضاح ؟ » . قال ذلك وساق جواده . وتبعه الرعاة بالخيول

فلم يعد الشيخ يجرؤ على السؤال ، وخجل من جهان لأنه عجز عن القيام بضيافتها ، وأخذ يهيىء عبارة يعتذر بها اليها فاذا بها وقفت وأشارت الى خادمها أن يأتي بالجوادين وأسرعت الى الشيخ وقالت : « انى شاكرة حسن صنيعك يا عماه وقد طرأ على ما يدعو الى الاسراع برجوعي ، وعسى أن أتمكن من زيارتك في فرصة أخرى »

فأكبر الشيخ ذلك التلطف وهم بتقبيل يد ابنة المرزبان شكرا على تلطفها وتنازلها ، فاجتذبت يدها منه وأشارت الى القهرمانة فدفعت اليه بضعة دنانير وقالت له : « أعط هذه الدوانق الى الغلام يشترى بها قوسا ونشابا يلهو بهما » . فشكر الشيخ لهما ، وودعتاه وركبتا جواديهما فانطلقا بهما وخلفهما فيروز

وبعد هنيهة التفتت جهان الى خيزران وقالت بعد تنهد يدل على غيظ تكتمه : « والآن ماذا تقولين ؟ هذا الافشين أتى فرغانة ولا شك أنه نازل عندنا لزيارة أبى »

قالت : « وما الذى يهمك من زيارته ؟ و . . »

فقطعت كلامها قائلة : « لا يهمني شيء من أمره ولا أكترث له ، ولا جنده يخيفني ، ولكنني أكره مجالسته و . . » . وبلعت ريقها ، وتشاغلت عن اتمام الحديث باصلاح عصابتها على رأسها

ففهمت خيزران تخوفها ولكنها تجاهلت وقالت : « ان جهان العاقلة الحكيمة لا يخشى عليها من أحد . ألا تزالين عازمة على المسير الى النهر »

فنظرت اليها جهان شزرا وابتسمت كأنها تستغرب سؤالها ولسان حالها يقول : « وكيف لا ؟! »

وساقتا الجوادين وهما تنظران الى قطيع الخيل حتى توارى وطريقه غير

طريقهما ، وكانت الشمس قد مالت الى الأصيل وأثر الجوع فى خيزران . أما جهان فشغلها تلهفها للقيا حبيبها عن كل عاطفة ، وقضت معظم الطريق ساكتة وهواجسها تتعاظم وتتلاطم ، وكلما تصورت لقاءها حبيبها اختلج قلبها ورأت أنها ارتكبت شططا ما كانت لتأتيه لولا غلبة الحب على ارادتها . وكثيرا ما يغلب الحب الارادة ويكون الفوز له عليها . وقد تفوز الارادة ولكن الى أجل قريب واذا طالت غلبتها كان الحب ضعيفا سريع الزوال. وقد يكون المحب كبير العقل مدبرا حكيما ويرتكب فى سبيل الحب أمورا لا يأتيها غير أهل الطيش . وليس استغراب الناس عمله أكثر من استغرابه هو عمل نفسه لأنه يأتى تلك الأمور وعقله مشرف على عمله ينتقده ويقبحه ولا يرى له سلطانا على رده ، وذلك لأن للعاقل الحكيم قلبا فطر على الحب الشديد ، فاذا هو خالف هوى قلبه تألم ألما لا طاقة له باحتماله وقد يجن أو يصعق . وكم من عاشق ذهب ضحية النزاع بين العقل والقلب . فالعاقل اذا أحب انتشبت بين ارادته وعواطفه حرب لها اضطرام ، فاذا كان كبير النفس قوى الجنان جارى عواطفه اعتمادا على عزة نفسه وقوة جنانه فلا يخاف أن يغلب على أمره

وكانت جهان كبيرة العقل قوية الارادة ، ولكنها كانت كذلك كبيرة القلب شديدة العواطف ، ألوفة شديدة التعلق بما تألفه . فكيف بها وهى تحب الأليف وقد عاشرته أعواما عدة حتى تمكن حبه من قلبها ؟ وكانت قوية الجنان ثابتة الرأى فى حبه وزادها تعلقا به تخوفها من الافشين ونفورها من رؤيته ، فلم تر بأسا من السعى لملاقاة حبيبها خصوصا أنها ذاهبة بحجة الصيد

□

سارت جهان وخيزران حينا وهما تنظران الى الأفق والجوادان يدلانهما على الطريق المؤدى الى ضفة النهر، حتى أطلتا على الماء عن بعد ورأتا الشاطىء فلم تجدا عليه خياما ولا رأتا جندا ماشيا ولا راكبا . فأوقفت جهان جوادها والتفتت الى القهرمانة وقالت : « هل ترين أحدا هناك ؟ »

قالت : « كلا يا سيدتى ولكننا على مقربة من الشاطىء ، فهلم بنا اليه لعلنا نرى فيه أثرا يفيدنا »

فاستأنفتا السير وخلفهما فيروز ، حتى بلغتا الشاطىء بقرب كوخ تحت شجرة ، فرأتا آثار أناس كانوا هناك وانصرفوا من برهة وجيزة . ومن بين هذه الآثار بقية نار لا تزال موقدة ، وبقايا طعام وفاكهة وعظام . ثم اذا بصاحب الكوخ قد خرج للقائهما ورحب بهما ظانا أنهما نازلتان عنده . وكانت خيزران قد دعت فيروز وأمرته أن يسأل أهل الكوخ عن القوم الذين

كانوا هناك ، فتقدم وحيي الرجل وسأله فقال : « هم جند من المســلمين عبروا النهر عند الفجر وأقاموا هنا الى الظهر فتغدوا وانصرفوا »

قال : « وهل عرفت وجهة مسيرهم ؟ »

قال : « أظنهم يقصدون الى فرغانة ولعلهم يريدون قضاء النيروز فيها »

فلما سمعت جهان قوله رجحت أن القوم ضرغام ورجاله ، وندمت عـلى مجيئها لاعتقادها أن ضرغاما اذا أتى فرغانة يذهب توا الى دار أبيها ، فرأت أن ترجع اليها لتدركه.وأشارت الى خيزران أن تحول عنان جوادها وتتبعها قبــل أن يدركهما الظلام وهما على بعد ميلين من المدينة . ففعلت وحثتا الجوادين عائدتين الى المكان الذى ينتظرهما الركب فيه بباب المدينة

وكان من في الموكب قد قلقوا لغياب جهان ، وأرســلوا بعضهم للبحث عنها في الجهة التي ذهبت للصــيد فيها ، فعاد هؤلاء دون أن يجــدوها . فازداد القلق عليها . فلما رأوها مقبلة عرفوها من بعيد بقيــافتها ولون فرسها . ثم رحبوا بها وجاءوها بالطعام المهيأ لها ، فأشارت عليها خيزران أن تتناول شيئا منه فأطاعتها وتناولت بعض اللحم والقومز والفاكهة عـلى عجل . ولحظت أثناء ذلك أن خادما يكلم القهرمانة همسا وأن هــذه تغير وجهها فأدركت أن هناك أمرا ذا بال.ونادت القهرمانة ونظرت في عينيها مستفهمة فقالت خيزران : « ان مولاى سامان جاء الى هنا وسأل عنك ، ثم رجع لتوه.»

فقالت : « وماذا قال ؟ »

قالت : « لم يقل شيئا » .وتشاغلت بازدراد لقمةكانت تمضغها وكادت تغص بها

فتفرست جهان فى وجه الخادم الذى كان يخاطب خيزران وقالت : «أظنه جاء فى شأن أبى . هل عليه بأس ؟ »

فلم تستغرب خيزران سرعة انتباهها لأنهــا كثيرا ما كانت تقرأ أفكار المتكلمين بالتفرس فى عيونهم . فأجابتها بقولها : «لا بأس على مولاى بفضل (اورمزد) ــ اله الخير عند المجوس ــ لكنه استبطأ عودتك ويريد أن يراك فنحن فى يوم النيروز »

فنهضت جهان وأشارت الى الخدم أن يعدوا المركبة للعودة وقالت : « لم يبعث أبى الى الا وهو يشكو من اشتداد المرض عليه . هيا بنا »

وكانوا قد أعدوا المركبــة فركبتاها معا ، وسار الموكب الى القصر وهى تتوقع أن تجد ضرغاما هناك

فى قصر المرزبان

بلغ موكب جهان قصر أبيها عند العشاء ، فرأت الحديقة تتلألأ بما أوقد فيها من المصابيح ، وقد غصت بجماهير الناس وما يحملونه من الهـدايا والتحف الى المرزبان كعادتهم فى مثل ذلك المهرجان • على أنهم فى الأعياد السـابقة كانت وجوههم تطفح سرورا وبهجة ، وكانوا يقرعون طبولهم ويضربون طنابيرهم • أما اليوم فقد أتوا بآلات الطرب لـكنهم لم يضربوا عليها تهيبا لما علموه من اشتداد المرض على المرزبان ، فرأتهم جهان متفرقين زرافات ووحدانا فى طرقات الحديقة وعلى السلم ، وعليهم ألبسة العيد من الخز والديباج ، وكلهم وقوف يتهامسون ويتلفت بعضهم الى بعض وعلامات الأسف بادية على وجوههم • وبباب الحديقة الدواب تحمل التحف من الثياب والأطياب والفاكهة ، والخدم يشتغلون بانزالها وحملها الى داخل القصر

ولما وصلت مركبة جهان الى باب القصر تفرق الناس الى الجانبين وشغلوا بمشاهدتها عما هم فيه • وكانوا يحبونها ويتبركون بطلعتها ويتوسمون فيها الخير • فلما نزلت من المركبة هتفوا بالسلام عليها ، وسرى عنهم حين رأوا وجهها ونسوا ما كانوا فيه من القلق كأنهم يحسبون دخولها على أبيها يذهب مرضه ويعافيه

أما هى فحنت رأسها للسلام تلطفا ، وخيل اليهم أنهـا ابتسمت لفرط ما فى محياها من الوداعة والايناس • وكانت خيزران قد نزلت فسبقتها ومشت الى جانبها ، والناس يوسعون الطريق ويقفون احتراما حتى دخلت جهان الحديقة ماشية بجلال ورشاقة وصعدت درجات السلم المؤدى الى ايوان القصر وهى تتفرس فى الوجوه خلسـة لعلها ترى ضرغاما ، خائفة أن ترى الافشـين • وكان أهل القصر فى انتظـارها عـلى أحر من الجمر فجاءوا لاستقبالها ، ولم تجد أخاها ساماً بينهم فظنته عند أبيها فى غرفته ، فلما لقيت قيمة القصر سألتها عن أبيها فقالت : « انه فى خير ، فشـكرا لرحمة أورمزد »

فاطمأنت قليلا ولكنها ظلت سـائرة الى غرفة أبيها بين صفوف الجوارى والخصيان والـكل وقوف اجلالا لها • فمشت فى دهليز مفروش بالسجاد حتى أتت غرفة أبيها وقد اشتدت لهفتها لرؤيته وقلبها يخفق خشية عليه • وكان بباب الغرفة حاجب من المماليك الخصيان قد اختص بباب المرزبان ،

فلما رأى جهان أسرع الى سيده وبشره بقدومها ، ثم عاد ورفع الستر ووسع لها ، فدخلت وهى لا تزال باللباس الذى خرجت به للصيد والعصابة على رأسها ، ولكنها حسرت عن وجهها وعنقها فبان اشراقهما وقد زادها القلق والتعب هيبة وجمالا ، فأقبلت على سرير أبيها ووجهها يطفح رونقا وبهاء وعيناها تبرقان ذكاء وفطنة

وكان المرزبان كهلا لم يتجاوز الستين من عمره ، ولكن المرض والضعف جعلاه شيخا هرما ، فابيض شعر لحيته التى تملأ صدره ، وزاد الضعف فى غور عينيه وتجاعيد وجهه . ولكن هذا كله لم يقلل شيئا من هيبته ولا من بريق عينيه الذى اشتد حين علم بمجىء ابنته فى ابان الحاجة اليها . وكان قد استلقى على سريره المصنوع من خشب الآبنوس ، تحمله أربع قوائم نزل فيها العاج ، وعلى رأسه عمامة صغيرة ، وفوقه غطاء من الديباج المزركش بالقصب على نصفه الأعلى الذى يغطى الصدر مطرف من فرو السمور الثمين، ويداه مرسلتان فوق المطرف وقد حسر عنهما كم القميص فبان هزالهما

فلما دخلت جهان من الباب ، اتجهت أولا الى صنم مذهب نصب على عضادة بارزة من الحائط بجانب سرير أبيها وأمامه شمعة مضيئة غير المصباح المعلق بالسقف ، فانحنت للصنم خاشعة على عادة المجوس ، ثم سارعت الى أبيها فجثت بجانب سريره وأكبت على يده تقبلها . وقد أثر فيها ضعفه ولكنها تجلدت تشجيعا له فابتسمت وعيناها لا تبتسمان ولكنهما تنطقان بأجلى بيان بعظيم احترامها لأبيها وشدة حبها له. أما هو فحالما رآها ابتسم والدمع يترقرق فى مآقيه ، وفتح ذراعيه فعلمت أنه يريد تقبيلها فألقت نفسها على صدره فقبلها واستنشق رائحة عنقها فأحست بحرارة نفسه وخشونة شعره فاستأنست بتلك الخشونة لاطمئنانها على صحته لأنها كانت تخاف ألا تدركه حيا

ثم تجلد المرزبان وتحامل على ساعديه حتى اتكأ على الوسادة وأشار اليها أن تقعد على الفراش بجانبه فقعدت وسألته : «كيف ترى نفسك ياسيدى؟»

قال : انى بفضل أورمزد اله الخير الحنون فى خير، وكنت أخشى أن يتغلب اهريمان اله الشر فلا أراك ، وذلك لشدة ما قاسيته من الألم والضعف . ولكننى شعرت بالراحة منذ علمت برجوعك الى القصر ، وأنت تعلمين أنك تعزيتى الوحيدة فى هذا العالم ، فلا تفارقى القصر لأنى أرتاح لرؤيتك »

فأرسلت جهان دمعتين دلتا على حنوها وخففتا لوعة أبيها الشيخ المريض وأثرتا فى نفسه . وكأنه تصور حال ابنته بعد موته فغلب عليه الحنو فبكى وهو يحاول اخفاء عواطفه رفقا بعواطفها ، فابتسمت هى وتجلدت ، ولم يفتها ما خالج ذهنه فقالت : « شكرا لأورمزد الشفوق ، انى أراك فى صحة ، وسأصلى له وأتوسل اليه (وأشارت الى التمثال) أن يعافيك ويدفع عنك المرض ، ولا ريب أنه يسمع دعائى »

فقال : « قد أرسلت أخاك سامان في طلب الموبذ (الكاهن) فاذا جاء صلينا معا »

فأحست جهان براحة لاتكال أبيها على الصلاة • وليس للانسان تعزية في مثل هذه الساعة غير الايمان ، فهو وحده خير تعزية له في الشدائد ، بعد أن يعجز عقله وتغل يده عن درئها • ولولا الايمان لكان حظ النـاس من دنياهم التعاسة والشقاء ، يدلك على ذلك أن الأرض لم تخل من دين • وما من أمة الا وهي تدين بشيء ترجع اليـه في رد القوى عن الضعيف ، وتتعزى به في المصائب التي يضيع فيها الاجتهاد وتعجز عنها العقول ، ولا ينجح في دفعها مال ولا سلطان ، ولا يفيد فيها جند ولا أعوان ، وتقصر عن معالجتها مهارة الأطباء ، وحكمة الفلاسفة وعلوم العلماء • هذه المصـائب لا ينجع فيها غير الايمان والاستسلام عن اعتقاد صحيح في الدين •فالمؤمن يتلقى المصائب بالشكر ، ويستقبل الموت ضـاحكا مسرورا • وليس أضر للبشرية ممن يضع الشكوك في أذهان العامة لأنها تقتلهم وتذهب بسعادتهم ، وهو نفسه ، مهما يبلغ من شكوكه أو انكاره ، اذا أصيب بضعف أو خاف على حبيب نفدت حيلته في اسـعافه لا يرى مندوحة عن الالتجاء الى غير الوسائل المعروفة فيستغيث بقوة لا يعرفها ، ويتوسل الى شخص لا يراه ولا يعتقد بوجوده • وقد اختلف الناس في تفاضل الأديان لـكنهم أجمعوا على التدين بواحد منها

فلما رأت جهان اتكال أبيها على الصـلاة سكن اضطرابها واطمأن قلبها فقالت : « وهل يأتي الموبذ الليلة ؟ »

فتنهد وقال : « قد بعثت أخاك في طلبه ، ولـكن ما أظنه يأتي به لأنه عودني ألا يطابق عمله ما في نفسي»•وكأنه ندم على هذا التعريض فاستدرك وقال : « لا بأس من تأجيل ذلك الى الغد »

وشعرت جهان بأن أباها غير راض عن أخيها•وكانت قد لحظت شيئا من ذلك من قبل ولم تعلم سببا لهذا الفتور • وكان المرزبان يبـالغ في كتمان ذلك لعلمه بذكاء جهان وسرعة انتباهها وأنها اذا اطلعت على ما في قلبه من أمر أخيها يتكدر عيشها • فسكتت وسكت أبوها حينا ، وأخـيرا انتبه هو فقال : « اذهبي يا جهان يا حبيبتي الى غرفتك ، لتبـدلي ثيابك وتتناولي عشاءك فاني أشعر براحة وميل الى الرقاد »

فنهضت وهي تقول : «ألا تحتاج الى شيء أقضيه لك يا أبتي قبل ذهابي؟»

قال : « لا أحتاج الى شيء الآن ، واذا أصبح الصباح وجاء الموبذ علمت شيئا جديدا • اذهبي محفوظة محروسة »

شغلت جهان بأمر النبأ الذى وعد أبوها بأن يطلعها عليه في اليوم التالي ، وتاقت الى معرفته ، ولكن تفكيرها لم يهدها الى شيء • وقد سرها عـلى أية

حال أن أباها لم يذكر « الافشين » .وودت لو سنحت لها فرصة تذكر فيها ضرغاما لعله يذكره بخير فتطلعه على ميلها اليه . وكان أبوها قد عودها ألا تتحرج أمامه من ذكر مثل ذلك . ثم همت بالخروج من حجرة أبيهـا مؤجلة ذلك حتى يأتى ضرغام لزيارته فتتخذ هذه الزيارة ذريعة للحديث فى ذلك الشأن

وقبل أن تخرج دخـل الخادم وقال للمرزبان : « ان سامان بالباب » . فلما سمع المرزبان اسمه انقبضت نفسه ولكنه قال : « يدخل » . فدخـل سامان ولا يكاد الناظر اليه يصـدق أن جهان أخته ، اذ كانت أمه جارية سندية ماتت وهو فى الثامنة من عمره وسافر أبوه عـلى أثر ذلك الى بلاد القوقاس فلقى هنـاك فتاة شركسية أعجبـه جمالها فتزوجها وجاء بها الى فرغانة فولدت له توأمين هما جهان وطفلة أخرى . وماتت الأم والطفلتان صغيرتان فعهد فى أمرهما الى خيزران ولم يتزوج بعد أمهما لأنه كان يحبها حبا شديدا لفرط جمالها وتعلقها وأحب إبنتيها لشـدة مشابهتهما لها . ولكنهما لم تبلغا الثالثة من العمر حتى فقدت توأم جهان فبقيت هذه وحدها وتحولت كل محبة أبيها اليها

ولم يكن فقد تلك الشقيقة بسبب موتها ، ولكنها فقدت بطريقة عجيبة هى أن فرسا اختطفتها . وكان فى تركستان جماعة من اللصوص يدربون الخيـل على اختطاف الأطفال أو الأحمال بأسنانها والفرار بهـا الى حيث ينتظرونها فى مكان بعيد . وبقى أهل فرغانة من ذلك العهد يحذرون خطف أطفالهم بهذه الطريقة

أما المرزبان فنظر الى سبب ضيـاع ابنته نظرا آخر ، وتولد البغض فى قلبه لسامان من ذلك الحين ، لكنه كتم السبب عن كل انسان !

كان سامان قصيرا أجرد ليس فى وجهه الا شـعرات متفرقة فى ذقنه . وخداه منبسطان ، ويخامر بياض عينيه حمرة كأنه استيقظ من رقاد ، فضلا عن شدة حوله ، فاذا نظر اليك حسبته ينظر الى السقف أو الى الباب ولا يستقر نظره عـلى شيء . وهو يكلمك مطرقا أو محـولا بصره عنك وأجفانه ترتجف ، وشفتاه ترتعشان كأنه خائف تخرج الألفاظ من بينهما متلاحقة متقطعة . ولكنه كان كثير الدهاء واسع الحيلة شديد الأنانية يكره كل أحد الا نفسه

فلما أذن له أبوه فى الدخول ، دخل مهرولا ، وعلى رأسـه قلنسوة من الخز بلا عمامة ، وقد ارتدى جبة طويلة تغطى ثيابه فكان يتعثر بأردانها ، ثم وقف بين يدى أبيه وقال : « ذهبت الى بيت كرشان شاه (هيكل المجوس

بفرغانة) فلم أجد المربذ هناك ، وقيل لي أنه يعود في الصباح فهل أبحث عنه في منزله ؟ »

فهز المرزبان رأسه متضجرا وقال : « لقد كان في امكانك أن تبحث عنه قبل مجيئك ، ولكن لا بأس ٠٠ غدا نرسل من يأتينا به ٠ اذهب الآن »

فرأت جهان في خطاب أبيها له جفاء زادها شكا في ميله اليه ٠ ولم تكن قد سمعته يخاطبه بهـــذه اللهجة من قبـل ٠ أما سامان فقال : « لم أكن أحسبك تريده الليلة ، والا لبحثت عنه حتى رجعت به ٠ هل أذهب للبحث عنه الآن ؟ »

وكان المرزبان يحدق في وجه ابنـه وهو يتكلم ، فلما انتهى أدار وجهه عنه وقال : « كلا ، ولكن دعني الآن فاني أحتاج الى الراحة ! »

فأكب سامان على يدي أبيه يقبلهما ، ثم خـرج يتعثر في أذياله ، وظلت جهان واقفة تنظر الى أبيها فرأت في عينيه دمعتين تكادان تنحـدران وهو ينظر الى الشمعة المضيئة بين يدي التمثال ، وقرأت حول شفتيه معنى دلها على سر في خاطره يحب افشاءه فقعدت على السرير وتناولت يده فشعرت بعرق بارد ورعدة خفيفة فقالت : « هل تريد شيئا يا أبتاه أم أذهب ؟ »

فقال وهو يصلح متكأه : « اذهبي يا حبيبتي ٠٠ لا ٠٠ لا تذهبي ٠٠ لا بل اذهبي واستريحي ! »

فقالت : « ما بالك ؟ ٠ هل أغضبك اهمال أخي سامان ٠ انه لم يكن يعلم مرادك »

فهز رأسه وقال : « انه لم يفهم مرادي ولكنني فهمت مراده ٠ وقد دنا وقت الحســـاب » ٠ قال ذلك واستلقى على الفراش ورفع الغطاء الى كتفيه لينام ، فعلمت أنه لا يريد الخوض في الموضـوع ، فأصلحت غطاءه وقبلت يده ثم خرجت وذهبت الى غرفتها وهي في شاغل جديد بأخيها ، وكـانت خيزران في انتظارها فرحبت بها وسألتها عن أبيها ثم قالت : « أبدلي ثيابك واذهبي الى فراشك »

فظلت واقفة ولم تجبها فأدركت أن ذهنها مشتغل بضرغام فقالت لها : « ان الناس قد انصرفوا وأطفئت الأنوار في الحـــديقة والايوان ولم يأت ضرغام ولعله يأتي غدا »

فاقتنعت وأخذت في تبديل ثيابها بمساعدة خيزران ، ثم ودعتها هـذه وانصرفت ، وأرادت جهان أن تذهب الى فراشها واذا بخادمة دخلت تقول : « ان مولاي سامان يطلب أن يكلم مولاتي »

فسرت جهان بمجيئه لأن حديث أبيها معه لم يرق لها ، فدخل وعليـه ملامح الاكتئاب والانكســـار ، فلما رأته أخـذتها الشفقة عليه فرحبت به

وابتسمت له وقالت : « لا يسؤك ما صدر من أبينا من اشارات الكدر ، فانه ضيق الصدر لمرضه »

فقعد مطرقا على وسادة ولم يجب. فجلست الى جانبه ونظرت اليه فرأت دموعه تتساقط على خديه فأثر منظره فيها وغلب حنوها وطيب عنصرها على فراسنها وتعقلها وقالت : « ما يبكيك يا أخي ؟ »

فرفع بصره اليهـا وقال وصـــوته مختنق : « تسألينني عن أمري وقد شاهدت بعينيك وسمعت بأذنيك ؟ »

قالت : « قلت لك ان ما أتاه أبوك ليس عـن غرض بل هو عن مرض ، فانه يحبك وليس له ابن سـواك ، وأنت حامل اسمه وأنت .. » . فقطع كلامها قائلا : « قد يكون أبي يحبني ، ولكني سيء الطالع . فأنا أبذل جهدي في طاعته ، ولم يكن قد كلفني استدعاء الموبذ ولكنني رأيته يسأل عن خادم يرسله في طلبه ، فتطوعت لخدمته . ولا أرى منه غير الاعراض ، ويؤلمني ألا يكون راضيا عني ! »

قالت : « انه راض عنك ، أو أنه سيرضى . كن مطمئنا »

قال : «أنا أعلم أنك تحبينني وتسعين في استرضائه لي ، ولكن آخرين يكيدون لي عنده ، وهو لسلامة نيته ينخدع بأقوالهم » . قال ذلك ووقف يهم بالخروج خشية أن يسوءها حديثه ، فأوقفته وقالت : « من تعني بأولئك الكائدين ؟ »

قال : «أعني جماعة تعرفينهم أسروا عقولنا وقلوبنا وأموالنا باسم الدين»

فأدركت أنه يعني الموبذان (الكهان) فقالت : « فهمت ، وأظنك تعمدت الرجوع وحدك الليلة فلم تأت بالموبذ ؟ »

فتنحنح وبلع ريقه وقال : « لم أتعمد ولكنني لم أجده في بيت النار فلم أبحث عنه في مكان آخر لأن دخول الموبذان الى بيتنا يفسده ! »

فقطعت كلامه قائلة : « لا أرى رأيك في هذا لأن أولئك الموبذان يصلون لأجلنـا فهم بركة لنا ، وليس لنا عزاء الا بهم ، ثم ان أبانا يؤمن بهم ولا ينبغي أن نخالفه »

فقال : « لا أنكر أن بينهم أناسا صالحين ، ولكن بعضهم طماعون يبغون أن يسـتولوا عـلى كل شيء . مالنا ولهم الآن فانما يهمني ألا يكون أبي ناقما علي »

فقالت : « اترك هذا لي ، واذهب الى فراشك مطمئنا »

فخرج مطأطيء الرأس مظهرا الانكسار، ودخلت هي فراشها حيث عادت الى هواجسها ولم تنم تلك الليلة الا قليلا

ضرغام وجهان

وبكرت جهان في صباح اليـوم فالتفت بمطرفها وذهبت الى أبيها فرأته جالسا في سريره وهو أحسن حالا منه بالأمس ، ففرحت وسألته عن حاله فقال : « شكراً لأورمزد ، لقد نمت ليلتي مرتاحا ، وأشعر اليوم بنشاط . ألم يبلغك قدوم الافشين الى فرغانة ؟ . لقد كنت على موعد من مجيئه في هذا العيد »

فلما سمعت اسم الافشين أجفلت وقالت : « لا أعلم يا سيدى ، ولعله جاء ولم يأت الينا بعد »

فقال : « من لى بمن يبحث عنه ؟ »

فقالت : « اذا أمرت أن نبعث في طلبه فعلنا ، ولكنه لو أتى فرغانة لجاءنا بلا دعوة »

قال : « صدقت ، وهل ذهب أخوك ليدعو الموبذ اليوم ؟ »

قالت : « خرج من الفجر للبحث عنه ، وقد ساءه البـارحة انك لم تكن راضيا عنه »

فقال « ننتظر رجوعه . اسقني شربة ماء من يدك »

فأسرعت مسرورة فأتته بكأس ماء وقدمته اليه فشربه . ثم دخل الحاجب يقول : « ان ضيفا قادما من العراق يستأذن على مولاى المرزبان »

فصاح المرزبان : « هذا هو الافشين » . وأظهر ارتياحه لمجيئه ولم يسأل عمن هو قبل الاذن على جارى العادة فقال : « ليدخـــل » . وأسفت جهان لوجودها هناك ، ولو استطاعت أن تشق الحائط وتخرج منه لفعلت، ولكنها تجلدت اكراما لأبيها فوقفت وقد انقبضت نفسها فتماسكت لئلا يبـدو ذلك عليها

فأزاح الحاجب الستر فدخل القـــادم ، فلما أطل أجفلت جهـان وبدت الدهشة في وجهها وانقلب انقباضها الى انبساط ، وتحول امتقاع لونها الى تورد ، لأن القادم لم يكن الافشين وانما ضرغام . فلما رآه المرزبان ابتسم له ورحب به وصاح : « ضرغام ؟ . أهلا بولدنا ضرغام . ظنناك صـــديقنا الافشين . أقادم أنت من العراق ؟ » . قال : « نعم يا مولاى »

قال : « وهل أتى الافشين معك » . قال : « لم يأت معى ولـكنني علمت

يوم خروجي من العراق انه عازم على المجيء الى أشروسنة ، وأظنه أتى »

وكان ضرغام شابا في حوالى الثلاثين من العمر قد كمله الله خلقا وخلقا ربع القامة ممتلىء الجسم عريض المنكبين واسع الجبهة كبير العارضين كث اللحية ، تلوح البسالة والهمة في عينيه ، وتتجلى المروءة وصدق اللهجة حول شفتيه · وعلى رأسه قلنسوة قرمزية حولها عمامة سوداء ، وقد لبس قباء سماوي اللون تمنطق عليه بمنطقة علق عليها سيفا قبضته مذهبة ، وتحت القباء سراويل من الخز الارجواني·وفوق القباء جبة سوداء ، وقامته قامة الأبطال اذا وقف حسبته جبلا راسخا

وكان قد دخل على المرزبان غير مقدر أن يلقى جهان هناك ، فلم تكن دهشته أقل من دهشتها

أما هي فلما وقع بصرها عليه لم تعد تعلم كيف تخفي عواطفها ، فاذا استطاعت اخفاء خفقان قلبها وارتعاش أعضائها فكيف تستطيع اخفاء ما ظهر من التورد في وجنتيها أو الاشراق في عينيها · وقد نسيت مرض أبيها وأصبح همها أن تلاحظ ما يبدو منه نحو حبيبها من ترحاب أو انعطاف · فلما رأته يرحب به فرحت وكانت بجانب الصنم فأسندت ظهرها الى العضادة وتشاغلت بمسح ما على الصنم من الغبار مخافة أن يبدو ارتعاشها ، ولم تغط وجهها لأن نساء تلك البلاد لم يكن يعرفن الحجاب يومئذ ولاسيما جهان فقد كانت تستنكف من تغطية وجهها وتعد الحجاب جبنا وضعفا

ولا تسل عن سرور ضرغام بتلك المصادفة · وساعده في اخفاء عواطفه السلام على المرزبان فأكب على يديه يقبلهما · فأمر بوسادة جلس عليها وجلست جهان على وسادة أخرى وأخذ المرزبان يسأله عن حاله فقال ضرغام: « قد أسرعت في الزيارة لأكون أول من يهنئك بهذا المهرجان المبارك ، ولم أكن أعلم أنك متوعك فأرجو أن تكون أحسن حالا »

فقال المرزبان : « أصبحت مرتاحا اليوم وقد سررت برؤيتك وأنت تعلم حبي لك »

فانحنى ضرغام شاكرا ، وسره عطفه عليه ، ولكن سروره لم يكن شيئا يذكر بالقياس الى سرور جهان ، فكانت تسمع كلمات أبيها وقلبها يرقص فرحا فأجابه ضرغام : « اني أشكر لسيدي المرزبان التفاته الى ضيفه ، وقد تأكدت فضله على من قبل وأنا غرس نعمته »

فخجل المرزبان من ذلك الاطراء وسأله : « أقادم أنت توا من العراق ؟ »

قال : « نعم يا سيدي ، وقد وصلت الى فرغانة مساء أمس »

قال : « وكيف فارقت القوم هناك ؟ »

قال : « فارقتهم في شغل شاغل بالمشكلات ، وكل واحد يخاف صاحبه

ويحذره ، ويستعين عليه بجند من غير جنسه • وانما السبق اليوم للجند التركي »

فقال : « علمت أن الخليفة الجديد المعتصم بالله ، استعان في تأييد خلافته بأخواله الأتراك فأعانوه ، وفي جملتهم الافشين ملك أشروسنة وأنت »

فسره أن قرن المرزبان اسمه باسم الافشين فقال : «ان الافشين عون كبير للخلافة وأما أنا فلا أستحق الذكر »

فقطع المرزبان كلامه قائلا : « ان مستقبلا مجيدا ينتظرك لما أعلمه من بسالتك وعلو همتك • انك لنعم القائد البطل ولا شك انك تقدمت في جند الخليفة »

قال : « نعم أصبحت بفضل مولاي رئيسا للحرس »

قال : « رئيس حرس الخليفة ؟ » • قال : « نعم يا سيدي »

فبان السرور على وجه المرزبان والتفت الى جهان كأنه يشركها في اعجابه بذلك التقدم السريع ، فرأى جهان شاخصة الى ضرغام تسمع حديثه وتكاد تلتقفه ببصرها • ولو أدنى المرزبان أذنيه من صدرها لسمع خفقان قلبها • فالتفتت اليه وابتسمت ثم سكتت وعيناها تتكلمان كلاما لم يفهمه وان فهمه ضرغام

وعاد المرزبان الى الكلام عن الجند فقال : « اذن في العراق الآن جند كبير من الأتراك »

قال : « انهم يزيدون على عشرين ألفا ، وفي جملتهم أبناء ملوك فرغانة الاخاشيد وغيرهم »

فقال : « أظنه رغب في تجنيدهم لأن أمه منهم »

قال : « لا يخلو أن يكون ذلك بعض السبب ، ولكن السبب الأكبر أن دولة المسلمين هذه عربية الأصل كما تعلم ، ولما نهض المسلمون للفتح كان الجند كلهم عربا ففتحوا الأمصار وأسسوا الدولة وظل معظم الجنود عربا في أيام بني أمية • ثم قام الفرس بنصرة العباسيين وشاركوهم في تأسيس دولتهم ، فاشتد ساعد الفرس وضعف أمر العرب • وما زال الفرس يتقوون الى أيام المأمون الخليفة السابق ، فأصبحوا أهل الدولة وفي أيديهم الحل والعقد • ولا يخفى عليك أنهم ما زالوا من أول الاسلام يعملون على رد السلطة الى الأكاسرة »

فتنهد المرزبان تنهدا عميقا أدرك منه ضرغام أنه يتحسر على ضياع دولة الفرس فتجاهل ومضى في حديثه فقال : « فلما أفضت الخلافة الى المعتصم ، خاف الفرس ولاسيما أنهم قتلوا أخاه الأمين وسلموا الدولة الى أخيه وابن أختهم المأمون تمهيدا لردها الى الفرس بعد موته • فلم ير المعتصم خيرا من أن يستعين عليهم بقوم أشداء لم تذلهم الحضارة فعمد الى تجنيد الأتراك »

فقال : « وهل يقيم هؤلاء ببغداد ؟ »

قال : «كانوا يقيمون بها الى عهد غير بعيد ، ولكن البغداديين ضاقوا بهم لأنهم كانوا يؤذون العوام في الشوارع . وربما قتلوا بعضهم في الاسواق، فابتنى لهم المعتصم مدينة سماها (سر من رأى) أو (سامرا) واختط فيها الخطط واقتطع القطائع . وأفرد أهل كل صنعة بسوق وكذلك التجار ، ثم شيدت بها القصور وكثرت العمارات واستنبطت المياه وتسامع الناس أن دار الملك قد انتقلت الى هنـاك فقصدوها وجهزوا اليها من أنواع الأمتعة وسائر ما ينتفع به الناس فاتسع عمرانها »

فأعجب المرزبان بهذا التدبير فقال : « اذن هي مدينة كبيرة ؟. وهل بقي الأتراك على دينهم أم غيروه »

قال : « لا يخفى على مولاى أن معظمهم يدين بالزرادشتية ولكنهم أصبحوا اليوم مسلمين . ومن أغرب الوسائل التي تذرع بها الخليفة لابقاء الجند قويا كما هو الآن أنه أبعده عن أهل البلاد ومنع رجاله أن يتزوجوا منهم. ورأى أن يزوجهم ببنات تركيات ابتاعهن من تركستان. وقد أرسل وفدا لابتياع هؤلاء الجوارى فاغتنمت أنا الفرصة واستأذنت في مرافقة هذا الوفد فأتيت الى فرغانة لهذا السبب »

فقال المرزبان : « لقد سرني قـدومك يا ولداه وفرحت برؤيتك ، وكان أورمزد قد هيأ ذلك حتى أراك قبل ...» . قال ذلك وتغيرت سحنته وبان الانقباض في وجهه لكنه تشـاغل بالسعال ومسح شـاربيه وعينيه حتى لا يظهر بكاءه . فاختلست جهان أثناء ذلك نظرة الى ضرغام بادلها مثلها ، وقد فرحت بتودد أبيها اليه ولكنها تأثرت من يأس أبيها . وهي أرغب في بقائه بعد ما عاينته من رضاه على حبيبها ، ووثقت بأنه لا يمانع في زواجها منه ، وعزمت على ذكر ذلك له في أول فرصة

أما المرزبان فأراد أن يشغل ضرغاما عما بدا منـه فقال : « وكيف حال أمك المسكينة ؟ »

قال : « هي في خير والحمد لله ، ولا تفتر لحظة عن ذكر مولاى وأفضاله علينا ، وتذكر مولاتنا جهان لأنها شديدة التعلق بها »

فرأت جهان سبيلا لمخاطبته فقالت : « مسكينة آفتاب . انى أحبها محبة الابنـة لوالدتها ، ولم ألق امرأة أطيب قلبا منهـا . وقد كنت كثـيرة الاستئناس بها »

وهب المرزبان بغتة كأن شيئا نبهه فقال : « أين سـامان ؟. هل أتى الموبذ ؟. ادعوه لى حالا . ان سامان لا يعول عليه » . قال ذلك وهز رأسه هزة كلها معان

فنهض ضرغام وقال : « أنا ذاهب لاستدعائه فانى أعرفه وأعرف مكانه »

فقال المرزبان : « لا تكلف نفسك الذهاب وفي قصرنا عشرات من الخدم والخصيان .. ولو لم يتصد ساسان للذهاب بنفسه لكان لنا غنى عنه بواحد منهم »

فقال : « قد أحسن ساسان بتطوعه لتنفيذ أمر أبيه بنفسه ، واذا أذن مولاى أن أتولى أنا ذلك فعلت »

فقطع المرزبان حديثه قائلا : « كلا لا تذهب أنت »

فقال : « أتأذن لى في أن أبعث اليه بخادمي بل رفيقي وردان ، فاني لم أكل اليه أمرا الا أنفذه ولو ركب اليه رؤوس الأسنة » . قال ذلك وخرج فنادى : « وردان » . فأتاه رجل في نحو الأربعين من العمر خفيف العضل خفيف اللحية ، يظهر من بروز أنفه وبقية ملامحه أنه أرمني . وكان قد دخل في خدمة ضرغام بسامرا منذ عهد قريب وسرعان ما اكتسب ثقته بما أبداه من علو همته ونشاطه ، فكان ضرغام يعامله معاملة الرفيق فلما وقف بين يديه وعليه عمامة مستديرة وسراويل قصيرة وفروة من جلد الغنم قال له ضرغام : « هل عرفت بيت النار الذى مررنا به مساء أمس وعليه الأنوار والرايات ؟ » . قال : « نعم »

قال : « اذهب الى هناك واسأل عن الموبذ،وقل له : (ان المرزبان يريدك في هذه الساعة) . وارجع به معك » . فأشار مطيعا وخرج

أما جهان فأصبحت متشوقة لتحادث ضرغاما وتشاكيه الغرام ، وكانت تشعر بأن رأسها مملوء بالأخبار التى يلذ لها كشفها له ، على عادة المحب اذا فارق حبيبه فانه لا يمل الكلام مهما يكن موضوعه أو مرماه ، فلا عجب اذا اشتاقت جهان لمجالسة ضرغام بعد ذلك الفراق الطويل

وكان هو في مثل شوقها ولهفتها . ولكنه كان فى حيرة لا يدرى كيف يتسنى لهما ذلك . فاذا بالمرزبان ينادى جهان قائلا : « مرى (المهتر) ــ قيم الدار ــ أن ينزل حبيبنا ضرغاما في القصر ، ويعد له ما يحتاج اليه . ومتى فرغ من ذلك يجىء الى فاني أريد أن أختلى به حينا حتى يأتى الموبذ »

فخرجت لتنفيذ ما أمر به أبوها . وسبقها ضرغام الى قاعة خاصة تعود أن يراها جالسة فيها

□

حينما خرج وردان من قصر المرزبان رأى الناس يتزاحمون ببابه بأفراسهم وهداياهم وعليهم أثواب العيد وهم ينتظرون الاذن فى الدخول ، فلما رأوه خارجا جعلوا يتساءلون عن سبب عجلته وسأله بعضهم عن حال المرزبان فلم يجبهم وظل سائرا حتى جاوز القصر ، فمضى فى الطريق وقد تزاحمت فيها الاقدام وتصادمت المناكب والناس فى شغل شاغل من أمر

العيد ، وهم يحملون الفاكهة والحلوى ، ويتبــادلون التهنئة ، فلم يكترث لشيء من هذا ، ومشى حتى أطل على بيت النار ، والأعلام تخفق على سوره وحوله مقاصير تعد بالعشرات ، يقيم بها السدنة والخدم والقوام، وقد تزاحم الناس ببابه الذى زين بالريحان ، فتظاهر وردان بأنه واحد من عباد النار وقد جاء لأداء فريضــــة الزيارة ، ودخل الى صحن المعبــد فرآه مفروشا بالديباج والحرير ، تحيط به أروقة مستديرة قد علقت فيها الستائر المطرزة وبعضها مرصعة بالحجارة الكريمة

واتصل من الصحن بباحة المعبــد حيث يقيمون الصلاة ، فاذا هي بقعة مربعة يقوم وسطها بناء معقود في وسطه فجوة بمثــابة الباب يصعد اليها بخمس درجات. وحول الباحة أحواض ملتصقة بالجدران أوقدوا فيها النيران وأحرقوا البخور فتصــــاعد دخانها في الفضــاء ، وعلى زوايا القبة أجران تصاعد دخانها كما تصاعد من مئات أمثالها فوق السور. وفي بعض جوانب الباحة الى اليسار وعاء مستدير مملوء بالنفط يتصاعد اللهب من فوهة فيه، وقد اصطف الناس حوله بين جلوس ووقوف وهم يتعبدون أو يصلون

ورأى رجلا واقفا على الدرج ظنه الموبذ ، فهم بالذهاب اليه فاعترضه رجل على رأسه قلنسوة مستطيلة هرمية الشكل عرف من منظره أنه أحد السدنة، فقال له وردان : « أريد مولانا الموبذ . أليس هذا هو ؟ » . وأشار الى الرجل الواقف على الدرج

فقال السادن : « كلا ، ان الموبذ مشغول الآن »

قال : « وأين هو »

قال : « مالك وله ؟ اذا شئت الصــــلاة أو البركة فهــذه هى النار فى الاجران »

قال « بل أنا أريد الموبذ »

فحول الرجل وجهه عنه وقال : « انك لن تظفر برؤيته الا بعد الصلاة »

فاستمهله قائلا : « لا تغضب يا سيدى فانى غريب وقد أتيت من خوكند بالأمس وعهدى بكم تكرمون الغرباء »

فخجل السادن ووقف له وقال : « ألم تأت للصلاة أو الاقتباس ؟ أمامك النار المقدسة فاقبس منها ما شئت » . قال : « بل أنا أريد الموبذ »

فتقدم السادن وأدنى فاه من أذنه وهمس قائلا : «ان الموبذ في خلوة مع بعض الكبراء فى هــذه الحجرة التى الى اليمين ، فانتظر خروجه أو افعــــل ما شئت »

فمد وردان يده الى جيبه وأخــرج دنانير دفعها اليه وهو يبتسم وقال : « الا تأذن لى فى أن أدنو من الحجرة أصلى بجانبها استئناسا بمولانا الموبذ »

فتناول السادن الدنانير وقال : « افعل ولكن احذر أن يشعر بك أحد »

فقال « طبعا » • وهرول الى الحجرة معتزما أن يحتال للدخول على الموبذ ويبلغه أمر المرزبان • فلما دنا من البـــاب رأى الموبذ ومعه رجلان بلباس فاخر ، عرف أن أحدهما « الافشين » ثم ما كاد يعرف الآخر حتى اضطرب دهشة اذ عرف فيه رجلا فى نفسه منه أمر عظيم ، وهو اصبهبذ (نائب) بابك الخرمى

وأخذ يســـائل نفسه عما جاء به من أردبيل فى ارمينيا ، وبينها وبين فرغانة سفر طويل ؟• فلما لم يجد جوابا شـافيا وقف فى مكانه متظاهرا بالصلاة والدعاء ، وأخذ يفكر فى سبب هذه الخلوة فى بيت نار المجوس بين « الافشين » قائد جند المســـلمين ، ونائب بابك الخرمى المجوسى ألد أعداء المسلمين !

وبعد هنيهة تحول الى فرجة تؤدى الى ممر وراء الحجرة به نافذة تشرف على ما فى داخلها بحيث يرى الجلوس فيها وهم لا يرونه • فتربص وأخـذ يتفرس فيهم فرآهم جالسين على بســـاط من الديباج • الموبذ بقلنسوته وقبائه الأرجـــوانى ، والافشين بعمامته حول القلنســـوة ، والاصبهبذ بالقلنسوة بلا عمامة • وكان عهده بالافشين يلبس الجبة السوداء شــعار العباســيين ، وطالما رآه يصلى بمسجد ســـامرا • فعجب لارتدائه القبـاء الأرجوانى الذى يلبسه كبار المجوس فى العيد ، ولوجوده مع المصلين فى بيت النار • على أنه لم يستغرب مجوسية الاصبهبذ ، لعلمه بأنه لم يعتنق الاسلام

وأصـــاخ بسمعه الى ما يقولون فسمع الموبذ يقول : « ســـنفوز بعون اورمزد ، ولكن علينا أن نصبر »

قال الاصبهبذ : « اننا صابرون ، ولن يطول اصطبارنا بشرط »•وسكت فجأة • فقال الافشين : « لا بأس من الصبر وان طال ، ولكن ما كان ينبغى لصاحبك أن يغير رأيه فى »

فقال الاصبهبذ : « انه لم يغير رأيه فيك ، ولكنه رآك أطلت التقرب من أولئك اليهود الذين يسمون أنفسهم مســـلمين أو عربا • وقد أرســلنى للاجتماع بك فى هذا العيد لأذكرك بعهدك بين يدى الموبذ »

فضحك الافشين وقال : « ربما ظن صاحبك أننى غافل عما تعاهدنا عليه هنا منذ بضع سنين ومعنا المازيار صاحب طبرستان • ولكن هذا هو الموبذ يشهد بأنى أقمت بعهدى » .

فأشار الموبذ برأسه أن « نعم » • واستطرد الافشين قائلا : « ان هــذه النار تشهد على عهدنا • فقل لأخى بابك بأننى لا أدخر وســـيلة فى جمع المال وارساله ، ولا أخطو خطوة فى حرب أو سلم لدى المعتصم الا اقتضيت

عليها مالا أرسله الى خزينتنا بأشروسنة • وأما المازيار فانه كذلك مقيم على العهد ، ولم يحضر معنا هذا العام لأسباب خاصـــة • وقد كتب الى يحثني على الثبات ، ويعد بأن يكون هو وطبرستان كلها معنا متى تحركنا • ولا شك انه أشد غيرة منا على التخلص من هذه الدولة وارجاع دولة الفرس »

فقال الاصبهبذ : « ذلك عهد مولاى بك ، ولكنه رآك أطلت الرضوخ لحكم اليهود كأنك أصبحت واحدا منهم حتى تصديت لحربنا غير مرة »

فقهقه الافشين وهز رأسه قائلا : «ألمثلي يقال هذا ؟ • وهل يخفى قصدى على أخى بابك؟ألا يعلم انى اذا خرجت لحربه فانما أفعل ذلك اخفاء لغرضى؟• انني لن أدع فرصة تسنح دون أن أنتهزها لنقوم جميعا قومة رجل واحـــد فننال أمنية قصر عن نيلها أبو مسلم الخراساني وجعفر البرمكي والفضل ابن سهل !• ان هؤلاء أفسدوا أمرهم بالعجلة ، أما نحن فسنفوز بالتؤدة »

فالتفت الموبذ الى الأصبهبذ وقال : « صــــدق الملك • فانه رجل حنكه الدهر ، فأبلغ ولدنا بابك أن ينتظر ، وليثق بأن أورمزد فى عوننا • فقـــد رأيت فيما يرى النائم أن الفوز قد دنا أجله »

وكان وردان يسمع الحديث وقد أخذته الدهشة ، وكيف لا وقد تبين أن قائد جند الخليفة مجوسى يمالىء أعداء المسلمين على الايقاع بالدولة عند سنوح الفرصة • على انه اغتبط بأنه حصل على سلاح ماض يستعمله عند الحاجة• ثم رأى الموبذ يتحفز للنهوض ، فنهض الافشـــين ورفيقه وتلثما تخفيا ، فغادر مكمنه ، ثم وقف فى صحن الهيكل ليلتقى بالموبذ عند خروجه

وكان الناس فى شغل شاغل بعبادتهم ، فأومأ اليهم السادن أن الموبذ خارج ، فتهيأوا للتبرك بطلعته ، ووقف وردان بينهم يقلد حـــركاتهم ، ثم ظهر الموبذ يخطر بثوب يبهر البصر بألوانه وتطريزه ، وفى عنقه عقـــد من الجوهر ، وفى شماله صولجان قبضته مذهبة ، وفى يمينه عصا يضرب بها الأرض محتالا ، والناس يطأطئون رؤوسهم اجلالا وتعظيما له

فلما اقترب من وردان . سارع هذا اليه وأكب على يده يقبلها وقال : «ان مولانا المرزبان يدعوك اليه الساعة لأمر ذى بال »

فقال : « هل اشتد المرض عليه ؟ »

قال : « لا أدرى ، ولكنه ألح على أن أرجو منك أن تزوره الآن ، وأمرنى ألا أعود الا بك » • قال : « انتظرنى خارجا لأذهب معك »

فخـــرج وردان محاذرا أن يراه الافشـــين لئلا يدرك أنه اطلع على شىء من سره • ولما صار بالباب رأى مركبة شد اليها فرسان عليهما العدة المذهبة فعلم أنها معدة للافشين، ثم خرج الموبذ فركبها والافشين الى جانبه وهو ملثم، وأشار الى وردان فركب أحد الفرسين • ومضوا الى قصر المرزبان

اجتماع الحبيبين

تركنا ضرغاما في انتظار جهان بغرفتهـا وأهل القصر لا يرون بأسا من اجتماعهما ، لما يعلمونه من منزلة ضرغام عند مولاهم،ولأن جهان لا تحتجب عن الرجال · جلس ضرغام على كرسي في بعض جوانب الغرفة ينتظر حبيبته وهو على مثل الجمر وقد أهمه ما شاهده من مرض أبيها وتشاءم من ذلك ، ولكن شوقه لجهان وشدة رغبته في مقابلتها أنسياه كل شاغل

ثم سمع صوتها بجانب باب الغرفة تكلم « المهتر » وتوصيه بما أمر به أبوها ، فخفق قلبه ، ثم دخلت فلما أقبلت عليه خف للقائها وكلاهما يبتسم وقلبه يضحك ، وقد نسيا الدنيـا ومصائبها كأنهما انتقلا من عالم الشقاء الى عالم السعادة والهناء

واذا أعجز الفلاسفة تمثيل الفردوس ، فان أقرب مثل لحال المقيمين به ، حال حبيبين تصافيا وصفا لهما الزمان وخلا الجو ، فاجتمعا وطفقا يتشاكيان لا يزعجهما رقيب ، ولا يخامر قلبيهما شك أو غيرة · تلك هي الجنـة لولا ما ينتابها من القصر ، أو يعرض لأصحابها من طوارق الحدثان

فلما رأت جهان حبيبها واقفا لاستقبالها هشت له ومدت يدها لمصافحته، فمد يده وقبض على كفها وقلبه يضحك وعينـاه تبرقان · واذا كان ، وهو الشجاع الباسل الذى لا يهاب مواقف القتال ، قد ارتعد واضطرب·فكيف يكون شأنها ، وهي مهما تبلغ من رباطة الجأش والتعقل لا تخرج عن طبيعة المرأة الحساسة ؟

وبدأ ضرغام الكلام فقال : « لقد أطلت الغيبة عليك يا سيدتي »

فنزعت يدها من يده ونظرت في عينيـــه نظرة المحب العاتب وقالت : « لا تقل سيدتي بل···» · وتشاغلت عن اتمام الكلام بالقعود وهي تدعوه اليه ، فقعد كل منهما على كرسي ، وأدرك هو مرادها فقال : «كيف لا أدعوك سيدتي وأنت جهان عروس فرغانة وبنت المرزبان . وأنا ضرغام اليتيم ابن آفتاب الأرملة المسكينة ؟ »

فقطعت كلامه قائلة : « بل أنت ســيدي ومولاى · ليس لأنك رئيس حرس الملك أو قائد جند الخليفة ، ولكن لأنك شهم نبيل باســل · بل ان هذا أيضا لا يزيدك رفعة في عيني !· انى أشعر بشيء آخر يعجزني التعبير عنه · أشــعر بسلطة لك على · اذا لم تسعفني بالتعبير عنها كنت حزينـة

بائسة ! » . قالت ذلك وتوردت وجنتاها وغلب الحياء عليها ، فعلم أنها تعني الحب وأن الحياء يمنعها من التصريح فقال : « ان العامل الذى تحسبين ضرغاما المسكين أصبح به سيدا قد جعل الأميرة جهان معبودة فأنا عبدها الخاضع المطيع »

فقالت : « قلت لك انى عاجزة عن أداء ما فى خاطرى أو بيان أسبابه ، وانما أعلم أن منزلتك عندى لا تعلوها منزلة أحد على وجه هذه البسيطة . ويهمني الآن ألا نضيع الوقت سدى اذ أخشى أن يأتى الموبذ فيدعونى أبى اليه »

ولما ذكرت أباها تذكرت حاله فتنهدت ثم استدركت فقالت : « ان وقتنا ثمين يا حبيبى . نعم يا حبيبى ، سامحنى اذا دعوتك بهذا اللقب قبل أن تدعونى أنت به . آه من سلطان الحب ! »

فقال وقد هاجت أشجانه : « لا يحق لأحد أن يبدأ بهذا التصريح سواك، وقد فعلت حتى يكون لك فضل المتقدم . وهل أجسر أنا أن أدعوك به قبل أن أسمعه من فيك ؟. فأحمد الله على ذلك.وحق لى الآن أن أسميك حبيبتى .. آه ما أشهى هذا اللفظ فى فمى ، وما أخفه على قلبى !. لطالما كررته فى خلواتى ، وكم تمنيت أن أسمعه من فيك . وقد سمعته . فهل فى العالم رجل أسعد منى ؟! »

فأطرقت وهو لا يحول نظره عنها وكأنه يهم بأن يضمها بجفنيه تهيبا من أن يضمها بذراعيه ، فلما رآها مطرقة وقد بدا الاهتمام فى محياها اختلج قلبه فى صدره وتوهم أنها ستخطف من بين يديه فقال : « ما بالك مطرقة يا حبيبتى ؟ . »

فرفعت بصرها اليه وابتسمت وقد فهمت ما خالج خاطره وقالت : « لا تذهب بك المخاوف بعيدا . انى لم أسمك بهذا الاسم وأنا أخاف أحدا أو أخشى بأسا ، ولاسيما بعد أن آنست من أبى ما آنسته من الارتياح اليك والتعلق بك . ولولا مرضه . آه لولا مرضه .. ». وسكتت

فقال : « أرجو أن يشفى قريبا » . وسكت وعيناه تتفرسان فى عينيها ، وكل منهما يقرأ فكر صاحبه ، ولعلها قرأت أكثر مما قرأ هو فقالت : « ضرغام . لا ينبغى أن يغلب الضعف على جهان حتى تخفى احساسها عن حبيبها وتحمله على الشك فى شىء من أمرها . لقد تعاشرنا أعواما وعرف كل منا صاحبه حتى امتزجت روحانا فما فى الأرض قوة تستطيع التفريق بيننا ، وأرانى غير قادرة على الاستقلال بفكرى أو حياتى عنك . فأنا أشعر بأنك منى وأنا منك. فاذا فكرت فى شىء رأيت فكرى يمر على تذكارات أنت قوامها ، واذا تخيلت أمرا كان خيالك نصب عينى يحول بينى وبينه ، ولا ترتسم فى عقلى صورة الا وفيها شىء من صورتك . فهل بعد ذلك يستطيع

البشر أن يفصلوا بيننا ؟٠واذا استطاعوا التفريق بين‌هذين الثوبين الباليين فانهم أعجز من أن يفصلوا بين روحينا وفكرينا ٠ ولكننا مقبلون على أمر عظيم ٠ فاذا تجاوزناه ٠٠ » ٠ وسكتت وحولت وجهها عنه خشية أن يبدو له ما يتردد في مآقيها

أما هو فأسكره تعبيرها ومرآها ، على أنه لم يفهم مرادها فقال : « وما الذي يخيفك ؟٠ لا أعهدك تخافين ، ولك من تعقلك وثبات جأشك حصن حصين ٠ وهذه روحي بين يديك فارمي بها من تشائين »

قالت : « سلمت روحك يا ضرغام ٠ انى لا أخاف شيئا ، اذ ليس في الأرض قوة تستطيع أن تبعدني عنك ٠ وكنت أحاذر أن أجد من أبي تغيرا أو فتورا ، فذهب حذري اليوم ٠ ولكنه مريض ، فعساه أن يشفى قريبا »

قال : « يشفى باذن الله ٠ وهل تخافين شيئا آخر ؟ »

قالت : « أتوقع أمورا كثيرة تخيف غيري ، ولكنني لا أخافها لأني أعدها أعراضا وأنت الجوهر ، فاذا كنت لي فقد ملكت الدنيا وما فيها ـ اعذرني على هذا التصريح وخاطبني بمثله فاني لا أحب التكتم والتردد ! »

فقال بلهفة وعزم ثابت : « تريدين أن أصرح بأني أحبك ، أو بأني أترك الدنيا لأجلك ؟ ان هذا لا حاجة بي الى ذكره ، والظمآن لا يطلب منه الاعتراف بحاجته الى الماء ، والتعس لا يسأل هل يتمنى السعادة ٠ وأنا بغيرك ظمآن بلا ماء ، وجسم بلا روح ، وأنت سعادتي وحياتي وأنت كل شيء ! »

فأبرقت عيناها وسرى عنها وقالت : « هذا كل ما أبغيه ٠ اني أسمع صوت سامان في الدار ٠ وربما دخل علينا فيقطع حديثنا ٠ فنحن على هذا العهد وعند ابلال أبي سأفاتحه في هذا الشأن ثم أخبرك بما يكون »٠قالت ذلك وتحفزت للوقوف،فاذا بخيزران قد دخلت وفي وجهها انقباض ولهفة ، فنهضت جهان لملاقاتها فابتدرتها خيزران قائلة : « ان سامان داخل على مولاي المرزبان »

قالت : « وهل أتى الموبذ معه ؟ » ٠ قالت : « كلا »

فهزت رأسها وحزقت أسنانها ثم قالت لها وهي تشير الى ضرغام : « هل رأيت ضرغاما ؟ »

قالت وقد علاها الخجل : « لم أره يا سيدتي ٠ اعذريني لدخولي بهذه اللهفة فقد شغلت بأمر سامان لعلمي أن أباك يستاء من دخوله عليه وقد أوصى بألا يدخل عليه أحد » ٠ وتحولت الى ضرغام فحيته باحترام وهمت بتقبيل يده

فرد التحية وابتسم لها ، وكان يستأنس بها لعلمه بحبها لجهان ، وقال :

« مالي أراكم تخافون دخول سامان على أبيه ؟ »

قالت جهان : « لأن أبي تكدر منه أمس لاهماله المجيء بالموبذ اليه » .

قالت ذلك وخرجت وهي تقول : « سأذهب الى أبي ثم أعود »

لبث ضرغام في مكانه وسارت جهان حتى أتت غرفة أبيها ، فرأت سامان واقفا بالباب والحاجب يحول بينه وبين الدخول وهو يجادله مغضبا، فقالت : « ما بالك يا أخي ؟ »

قال : « ان هذا الوجل يمنعني من الدخول على أبي »

قالت : « لا تغضب فان أبانا في فراشه ، وقد صرفني وأدخل المهتر ليكلمه في بعض الشؤون . هل رأيت الموبذ ؟ »

قال : « لا . لم أجده »

قالت « ألا تعلم أن رجوعك وحدك يغضب أبانا ؟ »

وبينما هما في ذلك سمعا المرزبان ينادي من الداخل : « لا تدخلوا على سامان . أدخلي يا جهان »

فالتفتت الى أخيها وقالت له هامسة : « اذهب يا أخي الى الايوان ، ولا تكدر أبانا ، وسأعود اليك حالا » . فأطاع وانصرف . ودخلت هي فوجدت القيم جاثيا بين يدي أبيها وأمامه أوراق ودفاتر وقلم ودواة ، ورأت أباها جالسا في السرير وقد تغير وجهه وبدا الجد في عينيه ، فلما دخلت رفع بصره اليها وابتسم . فبشت له ودنت منه فقبلت يده وقالت : « وكيف أنت الآن يا أبتاه ؟ عسى أن تكون بخير ؟ »

فضمها اليه وقبلها وأطال معانقتها ، وأحست بدمعة حارة سقطت على عنقها فارتجفت ونظرت في وجهه فرأت الدمع في عينيه ، فأثر منظره فيها، وكأنه خاف أن تنزعج فقال وهو يتكلف الابتسام : « انني في خير . لا تخافي . سأعمل كل شيء في سبيل راحتك . اجلسي ». وأشار الى القيم فخرج وأغلق الباب . فأعادت نظرها الى ما بين يدي أبيها من الأوراق والدفاتر ولم تستحسن أن تسأله عنها

أما هو فتثاءب وأشار اليها أن تساعده على التوسد فأعانته ، فاستلقى واتكأ على الوسادة وقال : « علمت أن أخاك سامان عاد هذه المرة أيضا وحده . فانه لا يرى في مجيء الموبذ نفعا له »

فقالت : « لقد أرسل ضرغام خادمه ليأتي بالموبذ ، ولا يلبث أن يجيء ، فاطمئن »

وقد ذكرت ضرغاما عمدا لترى ما يبدو من أبيها . فقال : « ان ضرغاما جل كريم النفس، وقد سررت بلقائه وهو جدير بأن يكون أخا لك لا سامان لشريه »

قسرها ثناؤه على حبيبها ، وهمت بأن تفاتحه في شأنه واذا بالحاجب دخل يقول : « الموبذ بالباب ومعه الافشين »

فلما سمع اسم الافشين أشرق وجهه وبغت وقال : « والافشين أيضا ؟ »

قال : « نعم يا سيدى »

أما جهان فلما سمعت اسم الافشين انقلب سرورها كآبة ، ووقفت كأنها تحاول الفرار من رؤية ذلك الرجل ، ولكنها تجلدت ولبثت تنتظر أمر أبيها فقال لها : « لا بأس من بقائك هنا اذا شئت ، ولك الخيار »

قالت : « أتأذن لى فى الخروج »

قال : « أخرجي واطمئني » . فخرجت من باب سرى في ناحية من الغرفة، والتفت المرزبان الى الحاجب وقال : « يدخل الموبذ والافشين »

فدخل الموبذ والافشين وراءه ، وتوجه الموبذ أولا الى الصنم فوقف أمامه وانحنى متمتما ، وفعل الافشين فعله

فأشار المرزبان اليهما فجلسا ، ثم رحب بهما ووجه كلامه الى الافشين قائلا : « لقد أبطأت على حتى اشتد شوقي اليك »

فقال وهو يحك ذقنه وقد شاب معظمها لأنه كان في نحو سن المرزبان : « كان قد طرأ على ما عاقنى فلم أصل الى فرغانة الا اليوم . كيف أنت ؟ »

قال : « كما ترانى . وقد جئت فى ابان الحاجة اليك » . ثم التفت الى الموبذ وقال : « أرسلت في طلبك غير مرة فلم تأت »

قال : « لم يأتنى أحد قبل الآن »

قال : « أرسلت اليك ابنى سامان أمس واليوم فلم يجدك فى كارشان شاه »

فاستغرب الموبذ كلامه وقال : « انى لم أفارق المعبد منذ ثلاثة أيام لمناسبة العيد وتقاطر الناس الى فرغانة للتبرك وايفاء النذور . وكيف تدعونى ولا أجيب ؟ وكيف يسأل عنى في المعبد ولا أعلم . لا شك أن ولدنا سامان لم يسأل عنى أو لعله سأل غير العارفين »

فحرق المرزبان أسنانه غيظا وقال : « بل هو لم يسأل عنك . ولا أدرى غرضه من ذلك أو لعلى أدرى ولا أقول ، ولقد آن وقت الجزاء وهذا أخى الافشين شاهد » . ثم صفق فدخل الحاجب فقال له : « لا تأذن لأحد علينا وأغلق الباب »

☐

كانت جهان قد غادرت الغرفة منفعلة مضطربة لمفاجأتها بقدوم الافشين، ولما لاحظته من اهتمام أبيها باعداد الورق والدواة والقلم . فسارت توا الى ضرغام فرأته واقفا بالايوان وحده ، فأنستها رؤيته هواجسها ، وسرى

عنها . أما هو فتقدم نحوها وسألها عن أبيهـا ، فقالت : « انه أحسن حالا من الصـــباح وقد ذكر أنه كان يتمنى أن تكون لى فى مكان أخى سامان . فليته علم انك خير منه مكانا » . قالت ذلك ونظرت اليـه نظرة أغنتـه عن شرح كثير

فقال لها وعيناه تضحكان : « أشكرك على حسن ظنك يا جهان . وكيف تركت أباك الآن ؟ »

فتنهدت وقالت : « ألم تعلم بمجيء الافشين والموبذ ؟ »

قال : « هل جاء الافشين أيضا ؟ انى لم أر وردان بعد »

قالت : « أتيا معا .. هذا الذى كنت أتخوفه ! .ولكن لا بأس ما دام أبى أحسن حالا »

قال : « وأين هما ؟ » .قالت : « هما عنده فى خلوة وقد خيرنى بين البقاء معهم وبين الخروج ففضلت الخروج للتخلص من رؤيتهما ولكى أشاهد حبيبى ضرغاما »

قال : « لعل خلوتهم ستطول ، فهل تأذنين لى بالانصراف برهة ثم أعود؟»

قالت : « الى أين تتركنى ؟ » .

قال : « اذا شئت بقيت ، ولكننى لن أطيل الغياب »

قالت : « اذهب فى حراسة أورمزد ولا تبطىء »

فلما سمعها تذكر أورمزد قال : « لقد أذكرتنى شيئا لا بأس من سؤالك عنه فهل أقول ؟ »

فحدقت فى عينيه فقرأت فكره وقالت : « أظنك ستسألنى عن أورمزد وأنت تدين لغيره أليس كذلك ؟ »

فدهش لفراستها وقال : « نعم هذا سؤالى »

قالت : « انى أدين بما تدين به لأنى لا أحب فراقك فى الدنيـا ولا فى الآخرة »

ففرح لتعلقها به وقال : « ولى سؤال آخر ! » . قالت : « قل ما بدا لك»

قال : « أنت تعلمين غرام والدتى بالاقامة بالعراق لسر لا أعلمه »

فقطعت كلامه وقالت : « أنى أكون حيث تشاء أنت ، فان الدنيا كلهـا حيث تقيم ، ولا يهمنى شىء مما لنا فى فرغانة أو غيرها »

فقال : « قد نلت الآن ما أتمناه وقبضت على السعادة بيدى . فهل تأذنين فى ذهابى لأرى رجال الوفد الذين صحبتهم فأتخلص منهم ثم آتى اليك؟

قالت : « اذهب فى حراسة الله » . فودعها وخرج بعد أن أرسـل من يستقدم وردان

موت المرزبان ووصيته

خيل الى جهان أن قلبها يتحفز للذهاب فى أثر ضرغام ، فتماسكت واسترجعت رشدها وفكرت فيما هي فيه من أسباب القلق والاضطراب لمرض أبيها فانه اذا مات تصبح يتيمة ليس لها الا أخوها ، وهو لا يؤمن جانبه ولا يعول عليه . وذكرت خلوة أبيها بالموبذ والأفشين فخفق قلبها خوفا من تلك الخلوة وقامت فى ذهنها هواجس كثيرة ومخاوف شتى ، لما تعلمه من مطامع الموبذان ودسائسهم ولا سيما بعد أن تحولت الكهانة الى مرتزق لهم ومورد للأموال

والعقائد اذا تقادم عهدها وتولاها أهل المطامع دب اليها الفساد واصبحت شرا على الناس من الكفر . وعلى ذلك لم تكن جهان شديدة الأخذ بأسباب دينها . وانما كانت على الزردشتية مذهب أبيها على غير تفهم أو نقد ، لأنها ولدت فيها فشبت عليها كما شبت على سائر عاداتها وأخلاقها. وهذا شأن السواد الأعظم من العامة فانهم يدينون بما يألفونه من صغرهم ، واذا كبروا وتثقفوا ودلهم العلم على مظنة النقد فيه اغتفروها فى جانب ما غرس فى قلوبهم وعقولهم من مبادئه ، فأصبح الدين كالجنس يغضب له المرء وينصره غيرة وحمية كما ينصر عرضه ويذب عن حياضه

وكانت تنظر الى الموبذان وامثالهم مستخفة بما يقولونه ويزعمونه ، فلم تكن تحذرهم لاعتقادهم انهم يعجزون فى كل شيء عدا اكتناز الأموال . فلم يكن اختلاء الموبذ بأبيها ليهمها لو لم يكن الأفشين معه وهي تكرههبلا سبب ظاهر . وتخافه لأنه ملك ذو اعوان وجند . على ان اباها كان يجله ويعول عليه

ووقع نظرها عفوا على بساط فى الغرفة رات عليه من الرسوم المزركشة صورة أسد رابض عيناه كأنهما شرارتان فتذكرت حبيبها لأن اسمه من اسماء الأسد . فلما ذكرته ذهبت مخاوفها لعلمها بأنه ما دام بقربها فلا خوف عليها

بقيت جهان مستغرقة فى هواجسها ، حتى سمعت وقع اقدام ادركت انها لخيزران القهرمانة فخفق قلبها توقعا لخبر تسمعه فلما دنت منها

قالت : « ان سيدى المرزبان يدعوك اليه . تجلدى يا جهان وكونى كما أعهدك »

فأوجست خيفة من تحذيرها ولم تسألها عن السبب اعتمادا على قدرتها فى تحمل الصدمات ، واكبرت أن تبدى جزعا فمشت مسرعة ؛ وذكرت أنها سترى الموبذ والأفشين عند أبيها فانقبضت نفسها وظلت سائرة حتى وصلت الى باب الغرفة فوسع لها الحاجب فدخلت وعيناها الى سرير والدها . فرأته مستلقيا وعيناه شاخصتان الى الباب وقد غشيهما الدمع وتكسرت اهدابهما من البكاء . وحالما وقع بصره عليها ابتسم ابتسامة لا حياة فيها ، ولولا بريق تينك العينين وما يتجلى فيهما من الحنو والمحبة لظنته ميتا . فتمالكت ودنت من السرير ، فلما رآها أحس بنشاط جديد فبسط ذراعيه وفتح فاه ليكلمها فامتنع عليه النطق فاكتفت بحركات شفتيه وترامت على صدره ، ولولا ثبات جأشها لأغمى عليها لأنها تحققت فى تلك اللحظة أنها لا تلبث ان تصير يتيمة وحيدة

فأمسكت بذراعى أبيها المحتضر ونظرت فى وجهه نظرة الاستعطاف كأنها تتوسل اليه ألا يتركها ، فسبقتها العبرات وبكت وهى تمسك انفاسها لئلا يسمع شهيقها وأطرقت لئلا تظهر دموعها

أما هو فلم يفته ما خامر قلبها من الحزن والخوف ، واراد تعزيتها فعصاه النطق ولم يزد على ان حرك شفتيه وحول نظره واشار بيده الى الأفشين والموبذ . فالتفتت فرأت الأفشين جالسا وفى يده لفافة من الورق فلما رآها تنظر اليه بعد اشارة أبيها أراها اللفافة وابتسم لها كأنه يعزيها . وكان الموبذ واقفا بجانب التمثال يصلى ويتضرع فالتفت اليها وهو يظهر الأسف والحزن . ففهمت جهان خلاصة ما تم فى تلك الخلوة وهو ما كانت تخشاه وتحذر الوقوع فيه . وأعادت النظر الى المريض وصاحت : « أبى كيف انت ؟ انك فى خير »

فأراد ان يجيبها ويطمئنها والحشرجة تمنعه من الكلام ، فجلست بجانبه وامسكت يده فوجدتها تندى بعرق بارد ، فكادت تصيح وتولول لأنها تحققت انه فى آخر ساعات الدنيا ، وتجلدت لكنها لم تستطع امساك دموعها فأطرقت والدمع يتساقط على خديها وقد زادهما احتباس العواطف توردا وزاد عينيها بريقا . واما المريض فان سرعة تنفسه وخرير صدره ودنو اجله لم تفقده شيئا من رشده ولاانسته ابنته الحبيبة ، وجاهد كى يطلق لسانه بكلمة يقولها ولكنه غلب على أمره . فلما تحقق عجزه عن الكلام اشار اليها ان تخرج لعله ينام ، فوقفت ترتعد مترددة لا تدرى اتطيعه فتخرج أم تبقى بين يديه

ثم رأته قد ازدادت حشرجة صدره واخذ يدير راسه ويلتفت كأنه

يحاول النهوض ولا يقوى عليه ، واخيرا حدق نظره فى جهان فتطلعت فى عينيه فرأت ماءهما قد جف وذهب منهما بصيص الحياة وكأنه هم بأن يبسط يديه نحوها فلم ترتفعا الا قليلا ثم شهق وأرخى يديه وسكن صدره وهمد جسمه وأظلمت عيناه وتراخت أجفانه وبرز أنفه ووجنتاه ، واصفر اصفرار الموت وتنبش شعر لحيته ورأسه حتى اصبح منظره مروعا مفزعا ، فصاحت جهان : « وا أبتاه ! » . وحلت شعرها ولطمت وجهها وسمع أهل القصر صوتها ، وبلغ الخبر الى القهرمانة فركضت وأخذت بيد جهان وراحت تخفف عنها وتعزيها

ولما قضي الأمر اخذ اهل القصر فى اعداد المأتم كما هى عادة المجوس ، فغسلوا الجثة وألبسوها ثوبا أبيض ووضعوها على دكة فى غرفة كبيرة أخلوها من الأثاث ، وجلس الأخصاء حولها ، والموبذ يصلي ويدعو وهم يؤمنون ويستغفرون . وبعد هنيهة جاء سامان وكان غائبا عن البيت وأخذ يندب أباه والناس يخففون عنه ، وأما جهان فبعد أن استسلمت للجزع ساعة الوفاة رجعت الى نفسها فغلب عليها التعقل واعمال الفكر . وكانت تفكر فى ضرغام مصدر تعزيتها الوحيد فأخذت تتلفت لعلها تجده قادما فتتعزى برؤيته ومخاطبته

ثم اشار اليها الموبذ أن تتبعه الى غرفة أخرى ، ومشى فتبعته مطأطئة الرأس ، وتبعهما سامان فلما خلا الموبذ اليهما قال : « لا ينبغى أن تبالغا فى الحزن على أخينا الراحل ، فان اورمزد معه لأنه كان رجلا تقيا محسنا ، وسنوقد النيران على اسمه ثلاثة أيام ونجعل وقودها الند والصندل . ولا يخفى عليكما ان روح ابيكما لم تفارق هذا المكان بعد ولا تفارقه الا بعد ثلاثة أيام فلا تحزناها بالبكاء والنوح. وقد اوصى بتفريق الحسنات والمبرات وهو لا ريب عندى من اهل النعيم . ولذلك فان روحه بعد ان تقضي ثلاث ليال حول الجثة تصعد الى الأماكن المباركة فتلاقى ضميره على هيئة حورية تقص عليه حسناته وتقوده الى النور الأبدى . كما اننا سنوالي الصلاة على روحه طول السنة فلا تجزعا . على انى ابلغكما وصيته عن دفنه »

وكانت جهان تسمع مطرقة وتتلقى دموعها بمنديلها ، فلما قال ذلك رفعت بصرها اليه وفى عينيها ملامح الاستفهام فقال : « لقد اوصى بأن ندفنه فى برج السكوت »

فلما قال ذلك بانت الدهشة على وجه الفتاة واخيها وقالت : « كيف ذلك ؟ . انما يدفن فى برج السكوت عامة الناس والفقراء ، ومثل ابى يدفن فى حجرة خاصة »

قال : « نعم ولكنه اوصى بدفنه هناك ، وأسر الى السبب الذى بعثه على ذلك ولا اقدر ان أبوح به »

فاكتفت بقوله وسكتت ، أما سامان فلم يسكت وقال : « كيف ندفن اباننا المرزبان فى برج السكوت وانت تعلم انه مدفن العامة ، توضع فيه الاجساد على احجار تعرضها للهواء وتذهب طعاما للنسور والكواسر فلا يبقى منها الا العظام ثم تطرح هذه فى البئر العميقة وسط البرج فتختلط بعظام الطغام والمجرمين و . . »

فاستغرب الموبذ اعتراضه ولم يعره التفاتا وانما قال له : « هذه وصية الفقيد بحضور مولانا الأفشين وقد دونها فى وصيته التى ستتلى عليكم بعد بضعة أيام » . قال ذلك وتوجه الى قيم القصر فأوصاه بما ينبغى اعداده للدفن

وقضى القوم بضعة أيام فى المأتم وتوابعه من مراسم وتعاز واحسانات وصلوات . وطال انتظار جهان رجوع ضرغام ، وشغلت لابطائه وزادها هذا حزنا على حزنها ، وغم عليها ان المهمة التى ذهب فيها قد تستغرق أسابيع ، والمحب كثير القلق سريع التخوف . ولكنها آنست من أخيها سامان تقربا وتلطفا لم تعهدهما فيه قبلا . فلم يعد يفارقها لحظة ، وكلما رآها تتضجر خفف عنها. ولم يكن غافلا عن تعلقها بضرغام وأن لم يفاتحها فى شأنه من قبل ، فأخذ يكثر من ذكره وبالغ فى الثناء عليه ، مع أنه كثيرا ما كان يحسن لها غيره ولا سيما بابك الخرمى . وكان سامان لا يعرف الحب ولا يشعر بجواذب المحبين ولكنه لذكائه ودهائه لم يكن يخفى عليه امرهم واوجه الضعف فيهم

ورغم قوة فراسة جهان وسوء ظنها باخيها ، كانت تلتذ بحديثه ، وسرها أنه يحب حبيبها ويعجب بمناقبه وبسالته ، فاستأنست به واخذت تتناسى ما كانت تعهده من نقائصه او تخافه من مطامعه

ذلك هو سلطان الحب ، يعمى ويصم فمهما أوتى صاحبه من الحكمة والتعقل فانه يفقدهما اذا وقع فى شراكه ، وقد يبقى حكيما فى كل شىء ، وقد يعد من كبار اهل الدهاء والسياسة أو من كبار العلماء أو الشعراء او الفلاسفة ، ولكنه ازاء الحب يكون كالطفل يقاد بخيط ، وقد يغلب عليه الوهم فى بعض الاحوال حتى يصدق المستحيل ويعتقد الخرافات اذا كان فى ذلك ما يسهل عليه امنية أو يطمئن له قلبا

ومن هنا نرى ان الأب الحنون مهما يبلغ من انكاره الخرافات اذا مرض ابنه وفشلت فى علاجه حيل الأطباء قادته رغبته فى شفائه الى تصديق ما يصف الدجالون !

□

بقى الموبذ والأفشين يترددان على قصر المرزبان اثناء المأتم قياما بواجب

العزاء ، وسامان فى شوق الى معرفة وصية ابيه. فلما انتهى المأتم جاء الموبذ وطلب الاختلاء بجهان وأخيها ، فلما اختلوا أخرج من جيبه اسطوانة من فضة فتحها وأخرج منها درجا ملفوفا وقال : « هذه هى وصية أبيكما التى عهد بها الى مولانا الأفشين بحضورى » . والتفت الى جهان وقال : « والحق يقال أن اباك قد احسن الاختيار بالقاء مقاليد الوصية الى صديقه الأفشين »

فأصاخت جهان بسمعها وسامان جامد لا يتحرك . ففتح الموبذ الدرج وقال : « وقد أوصانى مولانا الأفشين بأن ابلغكما الوصية ثم أدفعها اليه فاسمعاها وتفهماها » . ثم أخذ يتلوها متمهلا ، وهذه هى :

« هذا ما عهد به المرزبان طهماز فى فرغانة ، فى آخر يوم من أيام حياته ، الى الملك الأفشين حيدر بن كاروس صاحب اشروسنة وقائد جند المعتصم ، بحضور الموبذ صاحب بيت كارشان شاه وبمعونة اورمزد العظيم . فى اليوم العاشر من شهر خرداد ماه من السنة .... للأسكندر

« يعهد المرزبان طهماز الى الأفشين حيدر بن كاروس ملك اشروسنة وقائد جند المعتصم بأن يكون وصيا على أهله من بعده يتصرف فيما خلفه من مال وعقار ، فيما يعود على الورثة بالخير ، بمقتضى هذه الوصية . ولم يخلف المرزبان طهماز من الورثة الشرعيين غير ولدين ، هما الفتى سامان ، والفتاة جهان . وقد أوصى بما يملكه جميعه لابنته جهان وحدها فهى الوريثة للقصر بما فيه والضياع وما فيها من ماشية ودواب ومنشآت ، ولها كل ما خلفه من جارية ورقيق وأثاث ومصوغات وآنية ونقد . يكون ذلك كله ملكا لها بشرط اشراف صديقنا الأفشين عليه وتدبيره بما يلهمه اورمزد اليه من أسباب النفع لها

« أما ولدنا سامان فانه محروم من هذا الميراث كله لا يصير اليه منه مال ولا عقار الا ما يكفى لمعيشته على ما يقدره الوصى . وأما سبب حرمانى اياه فلم اشأ ان أدونه فى هذه الوصية ، ولكن لكيلا يبقى مجهولا ويذهب معى الى القبر قصصته على الوصى بحضور الموبذ ، على أن يبقى مكتوما عندهما الى حين الحاجة

« هذه وصيتى كتبت أمامى ، وقد صدرتها وختمتها بتوقيعى ، وشهد فيها الموبذ ، ومن أخل بحرف منها كان ملعونا خمسين لعنة . وقد فعلت كل ذلك باختيارى وأنا فى سلامة العقل

« وأوصيت ايضا أن ادفن بعد موتى فى برج السكوت فى ضاحية فرغانة ؛ وتترك جثتى طعاما للكواسر

« واورمزد يتولى القيام بهذه الوصية ويعين صديقى الأفشين على العمل بها »

وكان الموبذ يقرأ وسامان وجهان صامتان ، حتى بلغ الى حرمان سامان من الارث فتغير وجه الشاب وامتقع لونه ، ولكنه تجلد وكظم حتى فرغ الموبذ من تلاوة الوصية فقال له : « كيف حرمنى ابى من حقى وانا ابنه الوحيد ؟ هذا لا يكون ابدا . انا وارث اسم ابى ولقبه واما العقار فلى ولأختى جهان ! »

فقال الموبذ : « قد قرأت عليكما الوصية ولا سبيل الى غير ما فيها ، والرأى فى كل حال رأى الأفشين . وقد فرغت من رسالتى فائذنا لى فى الانصراف ، وسيأتى الأفشين فيتولى العمل بالوصية ، والدولة تساعده على تنفيذها بالقوة ، فأنصح لك يا ولدى بأن تصبر على ما فاتك من ارث والدك » . قال ذلك وخرج مسرعا وخرج سامان يشيعه الى سلم الايوان . فلما ودعه ونزل الحديقة وقف سامان ينظر اليه ويحرق اسنانه ويقول فى نفسه : « هذا ما كنت اخافه من مجيئك يا موبذ النحس ، كم ارسلنى ابى لطلبك وانا اماطل واحتال لتأخير حضورك خوفا من مثل هذه الوصية لأنى كنت اشعر بما فى نفس ابى على . نعم انا اعرف سبب غضبه وما كنت اظنه عرفه ، ولكن ذلك لا يحرمنى من حقى فى الميراث . صدقت يا موبذ ان الأمر بيد الأفشين اللعين وهذا اطمع من نملة . ولعله سعى فى الوصاية ليستولى على التركة ويحرمنا منها جميعا . آه لو كانت جهان تطاوعنى لكنا نكيد له كيدا عظيما ، ولكنها شديدة التمسك بما يسمونه شرف النفس والأريحية على أنى سأكيد لهم جميعا » . وكان يناجى نفسه بهذه الخواطر وهو ينظر الى الموبذ الذى غادر الحديقة وركب فرسه وسار فى سبيله ، ثم رجع سامان الى اخته . وكانت قد شق عليها أن يكون الأفشين وصيا عليها ، ولكنها رأت الا مفر من ذلك . كما شق عليها حرمان اخيها من الارث ، فقالت له : « طب نفسا يا اخى ،انك لن تلاقى ضيما وانا على قيد الحياة . فأنت اخى وانا اعوضك عما فاتك من الميراث » .

فأطرق ولوى عنقه تذللا ومسكنة ، ثم رفع بصره والدمع فى عينيه وقال : « لم يسؤنى حرمانى من الارث بقدر ما ساءنى سببه ، فأى ذنب ارتكبته حتى أعامل هذه المعاملة ؟ »

قالت : « لا أعلم السبب ولا يعلمه الا الافشين ، وسيسافر الى بغداد ونبقى نحن والمال بين أيدينا نتصرف فيه كما نشاء »

فشكر لها عطفها عليه ، وكظم ما فى نفسه ، وشق عليه أن يطلع الافشين والموبذ على سبب حرمانه فسكت ، وجلس يفكر فى تدبير المكائد ونصب الحبائل ، وخاف أن تتنبه أخته لما فى ذهنه فشغلها بذكر ضرغام فقال : « لقد أبطأ علينا البطل ضرغام ، ولابد لتغيبه من سبب قهرى »

قالت : « يلوح لى أنه بعيد عن فرغانة ، فلو كان فيها أو قريبا منها لما

فاته خبر المصيبة التي حلت بنا · ولعله يعود قريبا »

فقال : « لو كان هنا لخفت المصيبة علينا · انى أستأنس بطلعته · لقد سموه ضرغاما وهو اسم على مسمى · وكم فيه من خصال تندر فى سواه ؟ »

فوقع ذلك الاطراء فى نفس جهان وقوع الماء على الظمآن ، ومع علمها أن أخاها يمدحه مجاملة لها ، سرت لسماع الحديث عمن تحب ، وأخذت تغالط نفسها فى أن أخاها يحبه ، وانها كانت مخطئة فى زعمها الأول !

وبينما هما فى الحديث أتت القهرمانة تنبىء سيدتها بمجىء ضرغام ، فخفق قلبها ونسيت حزنها . ولكنها بكت اذ تذكرت اعجاب أبيها به وما كانت تتوقعه من السعادة لو بقى حيا . ثم تجلدت وابتسمت له عندما رأته ، فحياها وأخذ فى تعزيتها · ثم تحول نحو سامان وعزاه فقال سامان : « ان لنا فى بقائك تعزية كبرى »

ومشت جهان الى غرفتها فتبعها ضرغام بلباس السفر فدعته الى الجلوس وقالت : « لقد كانت مصيبتنا مضاعفة لغيابك يا ضرغام »

قال : « كنت فى مكان بعيد اضطررت للذهاب اليه تعجيلا للفراغ من المهمة التي جئت لانجازها ، ولكن ·· » · وسكت فسألته : «وماذا جرى ؟»

قال : « جاءنى أمر الخليفة يستعجلنى بالرجوع »

فأطرقت ثم قالت . « ان سفرك يسوءنى كثيرا ولكننى ·· »

فقطع كلامها قائلا : « سأبقى فى فرغانة . لأن فيها قلبى وعقلى وكل جوارحى » · وانتبه الى ان سامان يسمعه ، فأجفل وخجل . فقالت له : « لا تخجل . ان أخى عالم بما بيننا ، وأراه يحبك كثيرا ويعجب ببسالتك ومناقبك · وليس ما يمنعنا من العلانية - أما بقاؤك هنا فهو أمنية حياتى ، ولكننى أرى أن تلبى طلب الخليفة لأنه أكرمك ورفع منزلتك وقد يكون فى حاجة الى حسامك أو رأيك · وهل لم يرسل الخليفة فى طلب الافشين أيضا ؟ »

قال : « لم يبلغنى شىء عن دعوته ، ولكننى أظنه يطلبه قريبا لأن الأمر أمر حرب والافشين كبير القواد · ولكن كيف أسافر وأنت فى هذا الحزن وكيف أطمئن وأنت ·· »

فقطع سامان كلامه قائلا « لا بأس عليها لأن أبانا عهد الى مولانا الافشين بتولى شئونها » · وارتجفت شفتاه من الغضب والحقد · فالتفتت جهان اليه وقد شق عليها أن يفشى ذلك لضرغام فيقلقه · وهذا شأن المرأة العاقلة فانها تكتم متاعبها عن رجلها ولا تظهر له الا ما يسره ، ما لم تضطر الى غير ذلك

وعجب ضرغام مما سمعه عن وصاية الافشين ، ونظر الى جهان مستفهما فقالت : « ان الافشين صديق لأبى ، وكان يثق فيه كثيرا ، فأراد أن يكرمنى

ويهيىء لي أسباب الراحة بعد موته فأوصاه بي بعهد كتبه له وأشهد الموبذ عليه · وما في ذلك شيء غريب »

فأطرق وأعمل فكرته ، فرأى أن الافشين معه في العراق ، ووصايته خير من وصاية رجل من أهل فرغانة لا سبيل له اليه · فمال الى السفر وأحب أن يسمع رأيها في سفرها معه ، فنظر اليها وعيناه تسبقانه الى الكلام وهي لا تحول نظرها عنه فقال : « اذا كان الأمر كذلك فقد يبقى الافشين هنا أياما ليدبر ما عهد فيه اليه ، وفي هذا ما يطمئنك في بعدنا »

فأدركت غرضه وقالت : « لا يطول بقائي هنا الا ريثما تنقضي عدة الحداد ، ثم أسافر الى بغداد · فاني لم أعد أطيق البقاء في هذا البلد بعد وفاة أبي ، وقد أصبحت رغم ما ألقاه من مؤانسة الفرغانيين ومحبتهم ، أشعر بأني غريبة بينهم ، ولاسيما بعد أن تسافر »

وكان سامان يسمع ما يدور بينهما ولا يشعر ، لأن قلب الاجرود مغلق لا نافذة فيه ولا سبيل للحب اليه ، ولكنه رأى من الحكمة أن يجاريهما فلما سمع كلام أخته قال : « ان جهان ولا شك مشتاقة الى رؤية والدتك في بغداد ، فهي صديقتها وكانت تحبها وتأنس بها »

فالتفتت جهان الى أخيها لفتة تأنيب وقالت : « أنا لا أحب غير الصراحة، لكأنك تظنني أخشى التصريح بحبي ضرغاما،على أني لا أرى في الحب عارا ، ولو مد أورمزد في أجل أبي عاما آخر لانتهى الأمر على ما تمنيناه ، فماذا ترى أنت ؟ »

فقال سامان : « لا أرى بأسا بحبك ضرغاما · انه أهل لذلك ولو لم تسبقيني الى حبه لسبقتك أنا اليه · لولا أنه لا يرضى بهذا البدل ! »

فراقها مزاح أخيها ، على ما في قلبه من الغيظ منذ سمع الوصية،ولكنها كانت تعرف فيه الكظم والدهاء والحقد · فلما سمعت مزاحه نظرت اليه شذرا في غير غضب ، ثم وجهت كلامها الى ضرغام قائلة . « ان سفرك يسوءني ، ولكنه واجب ، ولا يمضي الا القليل حتى ألحق بك » · فقطع سامان كلامها قائلا . « وأنا أكون في خدمتها حتى أصل بها اليك ، أو الى والدتك »

فأتمت كلامها قائلة : « ولا تظن شيئا من حطام الدنيا يحول بيني وبينك، وقد أكتب اليك قبل سفري » · قالت ذلك وهي تشعر بما يهددها من التعب ولكنها كانت كثيرة التعويل على نفسها كبيرة الثقة بتدبيرها · أما ضرغام فكان يخشى أن تمنعه من السفر وهو راغب فيه تحقيقا لآماله ، فلما رآها تدعوه اليه زهد فيه وآثر البقاء ، فسكت وهو لا يعلم بماذا يجيب . فأدركت تردده فقالت : « ان بقاءك معي أكبر أسباب سعادتي ، ولكن القائد

الباسل ليس من شأنه الا أن يلبى الدعوة ، فما بالك وهي موجهة اليه من الخليفة مالك رقاب الناس ؟ »

وقال له سامان : « كن مطمئنا فاني في خدمتها حتى تصل اليك سالمة »

ولم يكن ضرغام ممن يتخلفون عن أداء الواجب ، ولكنه ظن أن في سفره وحده ما يسوء جهان ، لأنها لا تستطيع مصاحبته قبل انتهاء أيام الحداد ، فلما رآها ترغبه في السفر سرى عنه فقال : « اذا كان هذا ما تريدين فأنا طوع أمرك ، وغدا أسافر ان شاء الله »

وأحس سامان بثقل وجوده هناك في تلك الساعة ، فنهض بحجة أن لديه أمورا خاصة لابد من ذهابه لانجازها ثم يعود ، فقالت له جهان : « لا تطل غيابك كعادتك فقد تغيرت الأحوال الآن وأصبح وجودك في القصر ضروريا »

فأشار مطيعا وخرج مسرعا يتعثر بأذيال قبائه • أما ضرغام فلما رأى نفسه في خلوة مع جهان شعر كأنه في عالم غير هذا العالم ، ونسى السفر والحرب والرتب والألقاب ، وتمنى لو تتحول تلك الساعة الى دهر أو تمتد الى الأبد ، لا يلتمس معها طعاما ولا شرابا ولا ثراء ، كأنه تجرد عن المادة ورأى في تقارب روحيهما معنى لا يشوبه شيء مما يفتقر اليه البدن أو تجر اليه الشهوات • والحب تجاذب بين الأرواح لا يفسده أو يضعفه غير الجسد بشهواته وميوله • ولذلك لا يبرح قويا ما دام عذريا • فمن رغب في بقاء الحب فلينزهه عن شهوة الجسد • فاذا بادل المحب حبيبته حبا بحب أتته السعادة صاغرة وأنبأ الملأ الذين عجزوا عن تمثيل النعيم أنه استمتاع الأرواح بالحب الطاهر المنزه عن أغراض الجسد ـ وقد يعد الناس هذا الحب خيالا شعريا ، ولكن ما أدرانا أن هذا الخيال لا يكون حقيقة في وقت من الأوقات

ولا خلاف على كل حال في أن اجتماع الحبيبين بعد فراق طويل ، مثل اجتماع جهان وضرغام ، يمثل السعادة الحقيقية • ولعل جهان كانت أشد شعورا بتلك السعادة بعد ما نال الحزن من قلبها بموت أبيها • والنفس الحزينة أحوج الى التعزية وأشد شعورا بها من سواها

فأخذا يتجاذبان أطراف الحديث ، وما حديثهما الا التشاكي ، وقد نسيا موقفهما وطال حديثهما ، ولو لم تدخل عليهما القهرمانة خيزران لبقيا في غفلة عن الوجود وأهله

وكانت خيزران لا تترك جهان برهة طويلة وحدها لئلا تستسلم للأحزان، وكانت تحسبها وحدها بعد خروج سامان فأتت تفتقدها، فلما رأت ضرغاما عندها خجلت وتراجعت ، فنادتها جهان فدخلت وقد أذهلها ما رأته في ذينك المحبين من ظواهر الهيام كتورد الوجنتين وبريق العينين وشخوص

كل منهما الى رفيقه ببصره وسمعه ، فأيقظهما دخولهـــا ونقلهما من عالم الأرواح الى عالم الأجســاد · فحيت ضرغاما وسألت جهان عن حالها وعما نحتاج اليه ، وقالت هذه : « لا أحتاج الى شيء · ولكن كيف رأيت ضرغاما يا خيزران ؟ »

فأجفلت القهرمانة لأنها لم تكن تتوقع سماع هـــذا السؤال وقالت : «تسألينني عن رجل وقع منكهذا الموقع وأنت أعلم مني بأقدار الناس· فمن أين لمثلي أن تبدى رأيا ، وغاية جهدى أن أتوسل الى أورمزد ليمنحكما ما تتمنيان »

ثم سألتها عن سامان فقالت : « خرج من القصر على أن يعود على عجل . فعسى أن يصدق »

ووقفت فوقف ضرغام وقال : « أتأذنين لى فى الانصراف ؟ » · فقالت : « يعز على سفرك ، ولـكن ·· » · ثم تجلدت وقالت : « سر محروسا وكن مطمئنا فانى لا ألبث أن ألحق بك فقد كرهت الاقامة بهذه البلاد »

فودعها وخـرج ، وكان وردان فى انتظاره مع بعض أهل القصر فأمره باعداد ما يقتضيه الرحيل الى العراق



بين الأفشين وجهان

عادت جهان الى القاعة وقد فارقها قلبها وفقدت رباطة جأشها ، فندمت على ترغيب ضرغام في السفر ، وأخذت تفكر فيما هي فيه فعزمت على أخذ أمورها بالحزم والتعقل حتى تتخلص من تلك الوصية أو ترى سبيلا آخر

ومضى النهار وساعات لم يعد • وفي اليوم التالى نهضت مبكرة وضفرت شعرها ولبست ثوبا أسود تزملت فوقه بمطرف من الخز الأسود ، وغطت رأسها بنقاب أسود ووجهها من وراء ذلك السواد كالقمر ، لو أن في القمر تلك المعاني ، أو لو كان فيه مثل تينك العينين الساحرتين !

وخرجت الى الحديقة تتمشى بين أشجارها متشاغلة بالتنقل من شجرة الى أخرى حتى وصلت الى مقعد فقعدت واستغرقت في تأملاتها ، واذا بالقهرمانة تأتي مسرعة تقول : « سيدتي • أنت هنا ؟ »

قالت : « ما وراءك ؟ »

قالت : « جاء •• جاء الافشين وهو يطلب أن يراك »

لم تستغرب جهان الخبر لانها كانت تنتظره بل فرحت بقدومه لتعرف غرضه عسى أن ترى وسيلة للنجاة من وصايته • فنهضت وسألت : « أين هو ؟ » • قالت : « في الايوان ينتظر قدومك »

فمشت مشية الجلال كأنها ملك يحف به الأعوان لا تبالى ما ينتظرها لاعتمادها على قوة جنانها وعزة نفسها ، حتى أتت القصر،فصعدت الدرجات المؤدية الى الايوان متشاغلة بمخاطبة القهرمانة في شؤون لا أهمية لها ، حتى أطلت على باب الايوان فرأت الافشين جالسا متصدرا • فلما رآها خف لاستقبالها • وهو يومئذ في نحو الستين من عمره وقد خضب لحيته حرصا على مظاهر الشباب • وكان طويل القامة كبير العينين مستطيل الوجه والعنق ، وقد تجعد جبينه وبرزت وجنتاه ، وعلى رأسه قلنسوة قصيرة حولها عمامة من الخز الموشى ، ولبس قباء بنى اللون تظهر السراويل من تحته ترف على قدميه ، وفوق القباء جبة سوداء • تمنطق تحتها بمنطقة مرصعة علق بها سيفا قبضته مرصعة•ومشى لملاقاتها مشية معجب بمنصبه، يحسب الترحيب بها تلطفا أو تنازلا • فلما دنا منها ابتسم وقال : « مرحبا بعروس فرغانة • كيف أنت اليوم ؟ » • ومد يده لمصافحتها فمدت يدها فأخذها وتباطأ في الافراج عنها ، فاقشعر بدنها وأحست بنفور دلها عليه

قلبها ولكنها أجابته عن سؤاله فقالت : « انى فى خير ، تفضل اجلس »

فتثاقل حتى جلست ، ثم جلس على كرسى أمامها وعيناه لا تتحولان عن وجهها ، فلمحت فيهما معانى زادتها نفورا منه فأطرقت حياء وترفعا ،فحمل ذلك منها على محمل الحزن فقــال لها : « ان المصيبة التى أصــابتك كبيرة يا عزيزتى ، لأن موت أبيك رحمه الله خسارة لا تعوض ، وأنت تعلمين ماكان بيننا من صلات المودة ، ويؤكدها أنه قد وكل الى الاهتمام بشؤونك بعده • ولم يفعل الا لعلمه بمنزلتك عندى • ألم تسمعى ذلك منه فى حياته •• ؟ ألم يقل لك كم أنا معجب بتعقلك وذكائك »

فاستغربت دخوله فى الحديث على هذه الصورة ، ولكنها سايرته فقالت: « كثيرا ما ســمعت أبى يذكر مودتك ورفعة مقامك ، والافشين صــاحب أشروسنة مشهور ليس فى فرغانة ولا أشروسنة من لا يعرف اسمه أو سمع بأعماله »

فسره اطراؤها وجرأه على التقــدم خطوة أخرى نحو الغرض الذى طالما كتمه فقال : « لم أسألك هذا السؤال لأسمع اطراءك ومدحك وانما أردت سماع الجواب عن سؤالى • فهل لم تســمعى من أبيك عما لك من المنزلة عندى ؟ »

فلم يفتها ما يعنيه أو يضمره ، ولكنها تجاهلت وقالت : « لا أذكر أنى ســمعت شيئا من ذلك ، ولا أظنك أحسنت الظن بى الا لأنك تعدنى من بعض أولادك كما تعد أبى أخا لك ، فشكرا لك على هذا الاحساس ، وهــذا ما يشجعنى على أن تجيبنى الى طلب لى عندك »

قال : « وما هو ؟ » • قالت : «رأيتك تثنى على تعقلى وذكائى ، فاذاكنت عند حسن ظنك فما معنى الوصاية على ؟ »

فضحك وقال : «ان الوصاية يا عزيزتى لا تسلبك شيئا منهذه الخلال!»

فقالت : « انك ملك وقائد ، ولك من المهــام والأعمال ما يشغلك عن الاهتمام بمثــلى ، وأنت مقيم بالعــراق وأنا بفرغانة ، فهلا ألقيت أثقال الوصاية عنك ؟ »

فقال : « كلا •• كلا • انى لا أســتطيع أن أخالف وصية أبيك ، ومهما تكلفنى من الأعباء فهى هينة ما دامت فى سبيل خدمتك • وهذه أمنية طالما تمنيتها ، وأما البعد بين العراق وفرغانة فأمره ســهل ، فاما أن تنتقلى الى العراق أو أنتقل أنا الى فرغانة ، ولابد من أن نكون معا على كل حال ! »

فتحققت غرضه ولكنها لم تشأ أن تفهم مراده فقالت : « لا أرى باعثا على هذا الارتباط يا مولاى »

فقال وهو يستعطفها : « لا تقولى مولاى »

فقالت : «يا أبت أو يا عماه كما تشاء · انى لا أرى داعيا لهذا الارتباط»

فقطب حاجبيه وابتسم ، ثم قرب كرسيه من كرسيها وقال : « ان قولك يا عماه يسىء الى أكثر من قولك يا مولاى · لماذا لا تخاطبيننى كما أخاطبك ؟ » · قال ذلك وأخرج من جيبه عقدا من الجوهر يساوى مالا كثيرا ومد يده نحوها والعقد يتلألأ فى كفه وقال : « مالى أناديك يا عزيزتى فتنادينني يا عمى ؟ »

فحولت جهان وجهها عنه وهى تنظر اليه شزرا وتباعدكرسيها،ووضعت يديها وراء ظهرها وقالت . « لا يا سيدى ، لا حاجة لى الى الجواهر . فانى حزينة ولا أرى مع ذلك مسوغا لهذا الخطاب »

فأظهر استغرابه من نفورها وقال : « أهكذا تعاملين رجلا أقامه أبوك وصيا عليك ؟ هبى أنى من عامة الناس فاحترمى وصية أبيك »

فقالت بصوت هادىء يزينه وقار وترفع : « كان الأولى أن تبدأ أنت باحترام تلك الوصية أيها الملك والقائد ! »

فقال بنغمة الفائز الظافر : « أتظنين أباك لم يوص الا بما فى تلك الورقة ؟ · انه أوصانى وصية شفاهية لابد لى من تنفيذها »

فقالت والازدراء باد فى شفتيها وعينيها : « لو كان أبى حيا ما قبل منك ذلك »

فابتسم وأبرقت عيناه بريقا أزعجها ، وقال بلحن الهائم الولهان : «هبى أنه لم يقل شيئا من ذلك ، ألا يكفى أن أقوله أنا · يلوح لى أن ما ظننته من تعقلك وذكائك لم يكن فى محله ؟· أيسوق اليك ملك اشروسنة عبارات التقرب والتودد وتجيبينه بالخشونة والنفور ؟ »

فنظرت اليه نظرة ملؤها الاستغراب والدهشة وقالت وفى كلامها تهديد: « قف عند هذا الحد من التلميح ، واحذر أن تنزغ الى التصريح · ان ملكك وان ضخم لا يساوى عندى شيئا »

قال : « يظهر أنك لم تفهمى مرادى · ألم تفهمى بعد ؟ انى أحبك ياجهان نعم أنى أحبك » · قال ذلك وقد ازدادت عيناه بريقا وبدا فيهما الاحمرار

فلما سمعت ذلك نهضت عن كرسيها ونفرت نفور الظبى من الأسد ، وقالت : « قلت لك قف عند حد التلميح فلم تصغ · أما وقد تجاوزته ، فاعلم أنى لا أسمح لك بمثل هذا الخطاب · وهل يليق بك وقد اشتعل رأسك شيبا أن تخطب محبة فتاة أصغر من بعض أبنائك ؟ »

فتنهد الافشين تنهدا حارا وقال وهو يتذلل ويتلطف : « آه يا جهان · أتحسبين الحب محرما على غير الشبان ؟· انى أرى الكهولة أولى به وأقدر عليه · ان الناس مخطئون بما يتوهمون فلا شأن للسن بالحب »

ثم اعتدل في مجلسه وأشار الى صـــدره وقال : « ان في هذا القلب من لواعج الغرام ما لا يتسع له صدور الشبان · ولقد كنت شابا وأنا اليـوم كهل ، وأقسم لك بما تعبدين انى أشـد كلفا وأعرق فى الحب من قبل · ويدلك على ذلك انى وأنا الملك السيد والقائد الباسل أترامى عنـد قدميك لأخطب ودك وألتمس رضاك متذللا متصاغرا » · وترامى عنـد قدميها وقال : « فاذا أطعتنى رأيتنى عاشقا يبذل نفسه فىسبيل سعادتك،وكنت الملكة النافذة الكلمة في العراقين وفارس وخراسان واشروسنة وفرغانة · وان أبيت وظللت على خطئك ·· »

فقطعت كلامه وهى تنظر في وجهه مستخفة وقالت : « انهض يا حيـدر انهض يا ابن كاروس · انهض يا ملك اشروسنة وارجع الى رشـــدك ودع ما تقول وأنا أصـفح عنك وأغضى عما فرط منك وأكتم خبر جرأتك · انه لا ينبغى أن تكون فتاة مثلى أربط منك جأشا وأكثر تعقلا »

فوقع كلامها وقع السهم فى قلبه فنهض يحرق أســـنانه وقال : « لقد قتلتنى بعنادك ، فلا تحسبينى عاجزا عن ارغامك ؟ · وارجعي الى صوابك وفكرى فيما عرضته عليك من أسباب السعادة ولا تعملى عمل أهل الجهالة ، واعلمي انك وما تملكين فى قبضة يدى . فاذا أطعتنى كنت أنا وما أملك فى قبضة يدك ! »

فهاج غضبها ودبت الحمية في عروقها وحدثتها نفسها بأن تزيده تأنيبا، لكنهـا أمسكت لعلمها أنهـا لا تقوى على مناوأته وهو ملك وعنده الجنـد والأعوان ، وبيده عهد أبيها بالوصاية المطلقة عليها ، فلا ينصرها عليـه حاكم ولا ينجيها منه سلطان ، الا اذا كانت فى دار الخلافة فربما استعانت عليه بالخليفة فينصفها

فرأت من الحكمة أنتستعين عليه بالتعقل والتدبير ، فتمالكت جأشها بما فطرت عليه من قوة الارادة وقالت بصـــوت خافت : « سمعتك تستمهلنى ريثما أفكر فيما عرضته على ، وأنا أمهلك لتفكر فيما قلته لك ، ونرى بعد ذلك ما يكون ·· وسأكتم ما بدا منك وأبذل جهدى فى نسيانه حتى يكون مكتوما عنى أيضا ، لأنى أضن بصديق أبى ووصيه أن يقال عنه ما قد يقال عنك لو علم الناس أقوالك · فهل تقبل ما أقوله لك ؟ واذا أبيت الا الطيش فأنا أولى بالطيش منك ولا تحسبنى فتاة ضعيفة »

فأحس الافشين بعظمة تلك الفتاة ، ولم يعد يقوى على النظر فى عينيها، كأن الغضب زاد كهربائيتهما فتطاير منهما الشرر · ووقع كلامها على رأسه كالصاعقة وقال : « ما أنت فتاة ضعيفة ولا أنا من أهل الطيش ، ولـكنك ترين ما يرى سائر الناس أن الحب مقصـور على الشبان ، وأنا أريك رأى العين أن الكهول أشد هياما · ان بين جنبى قلبا يضحى بالملك وبالحياة فى

سبيل محبوبه . فهل يفعل الشبان ذلك ؟ وهم انما يحبون عن خفة وجهالة لا يثبتون في الحب ولا يرعون زمام المحبوب . أما وقد استمهلتني فها أنذا أجيب طلبك راجيا أن ترجعي الى رشدك . وأيام الحزن على صديقي أبيك لم تنقض بعد فنحن الآن في أوائلها ولعلي لا يخيب ظني بعد انقضاء أجل الحداد ، وبعد أن تتحققي صفاء نيتي فيما أرجوه لك من الخير في دنياك . فاعملي فكرك على مهل »

فأغضت عن طويل شرحه في بث عواطفه وآماله ، وقالت بصوت هادىء وجأش رابط : « بقيت لي كلمة أحب أن تسمعها بوصفك وصيي الأمين . هل قمت بحق الوصية فدبرت شؤون القصر وأهله ؟ »

قال : « فعلت كل شيء فالزراع عاملون في الحقول ، والقيم يدير شؤون القصر ، وأنا أحرص على مالك منك » . ومد يده والعقد لا يزال فيها وقال : « والعقد ألا تقبلينه ؟ خذيه اذا شئت »

فحولت وجهها عنه مشمئزة وقالت : « لا أريد قبول شيء يذكرني بهذا الاجتماع . ولو استطعت أن أجرد هذه القاعة من فراشها وأثاثها لفعلت حتى لا أرى شيئا شهد هذا الموقف أو سمع هذا الكلام . والآن اسمح لي أن أشكر لك عنايتك بشئون التركة ، وذلك ما كنت أرجوه من الافشين صديق أبي الأمين على أهله . وأخيرا هل لي أن أعرف لماذا حرمتم أخي سامان ارثه ؟ »

فأحس الافشين عند سماع أقوالها أنه يتصاغر أمامها ، وأنها هي تعظم وتعلو حتى كاد يتلعثم لسانه وأغلق عليه . وانما غلبته على بسالته وسلطانه بالعفة وأدب النفس ، فتجلد وقال : « انك تسألينني سؤال القاصر لولي أمره وأنا مكلف أن أكتم السبب ، فلو سألتني سؤال الحبيب لمحبه لأطلعتك على كل شيء »

قالت : « اعمل بالوصية ودع الحب والمحبين »

فدهش الافشين ولم يزدد الا هياما بها ، ولكنه تهيب الكلام معها ، فسكت ونهض مستأذنا في الانصراف . ثم خرج وقد غلب على أمره وعلم أنه لن ينال رضاها . وانما أطاعها وقبل التأجيل فرارا من الفشل

المعتصم و « سامرا »

ظلت جهان واقفة تنظر الى الافشين حتى غادر غرفتها ، فرفعت بصرها الى صورة مطرزة على ستارة بالحائط تمثل وجه أبيها ، وتنهدت تنهدا عميقا وأحست بضعف مفاصلها كأنها خارجة من عمل شاق فألقت نفسها على الكرسى ، والتفتت الى ما حولها وناجت نفسها قائلة : « آه يا جهان · أواه يا عروس فرغانة ! ما الذى دهانى فى هذين اليومين ؟ · مات أبى ، وحسنت السفر لحبيبى · ولكن لا بأس من سفره حتى لا يعلم بما يضمره ذلك الشيخ الجاهل قبحه الله من ملك صعلوك وتبا له من قائد مغرور ! أيطمع فى جهان وهى أبعد عنه من الثريا ؟ · مالى لم أقل له ان قلبى لضرغام ؟ · ولكنى لو قلت ذلك لعرضت حبيبى للخطر · حبيبى ضرغام أين أنت ؟ » · ولما ذكرت اسمه وتذكرت بعده عنها انقبضت نفسها واستسلمت للبكاء · فأطلقت لدموعها العنان وهى تحاذر أن يسمع صوت بكائها أحد · وكأنها نسيت نفسها وهون عليها البكاء آلامها فأغرقت فيه · وفيما هى فى ذلك أعادها الى نفسها أن سمعت وقع خطوات مسرعة نحوها ، فالتفتت فاذا بالقهرمانة دخلت مذعورة وقد فتحت ذراعيها كأنها تهم بأن تضمها اليها · فترامت جهان بين ذراعيها وقد أخذها الخجل لما بدا من ضعفها فابتدرتها خيزران قائلة : « ما بالك يا سيدتى ، ماذا أصابك ؟ »

فقالت وهى تتجلد وتمسح دموعها : « أتستغربين بكائى يا أماه وقد فقدت أبى بالأمس ؟ · ان مصيبتى بفقده مضاعفة ! »

ولم تكن خيزران غافلة عما دار بين جهان والافشين وان لم تسمعه ، ولكنها أدركت شيئا منه لما رأت وجه الافشين عند خروجه فقالت : «صدقت ان وفاة سيدى المرزبان رزء عظيم ، خصوصا اذا خلفه مثل هذا الوصى! » · وغصت بريقها وهمت بجهان فضمتها وقبلتها وقالت : « أنا أعلم سبب بكائك فلا تهتمى ، واعلمى انى أضحى بحياتى فى خدمتك ، وكذلك كل أهل هذا القصر بل أهل فرغانة جميعا يفدونك بأنفسهم »

فتخلصت جهان من بين ذراعى خيزران بلطف ، وأشارت اليها أن تقعد الى جانبها ، فجلست وهى ترمق جهان ولا ترتوى من النظر فرأت وجهها تغير من الحزن والقنوط الى الاهتمام والجد وأطرقت وبدا التفكير فى عينيها وجبينها · وطال سكوتها وخيزران مصغية تنتظر ما يبدو منها وما تريد أن

تقوله ، وأخيرا وقفت جهان فجأة ونظرت الى خيزران نظرا حادا وقالت : « لا مقام لى بهذه الديار بعد الآن ! »

فصعقت خيزران عند سماعها ذلك منها ووقفت وصاحت قائلة : « ماذا تقولين ؟ »

قالت : « ينبغي أن أترك هذا القصر · يجب أن أسافر حالا »

قالت : « والى أين ؟ كيف تتركينه وفيه كل مالك وقد ربيت فيه ؟ ·لمن تتركينه ؟ »

قالت : « أتركه للطامعين فيه · أتركه للافشين والموبذ ! »

قالت وقد اصفر وجهها وجلا : «كيف تتركينه وفيه ثروتك وأنت صاحبة الأمر والنهى فيه ؟ »

قالت والحزم باد في محياها : « لا تهمنى الثروة ولا الأمر والنهى ، وما الفائدة من الجدران والأشجار والأحجار ·؟ ليست السعادة بهذه الأمور »

فأدركت أنها تشير الى ما تخشاه من مطامع الافشين وهى بعيدة عن ضرغام ، فقالت : « اذا كان ذلك الرجل قد أساء اليك فانبذيه نبذ النواة · لا تعيريه التفاتة فأنت سيدة في قصرك ولن يجرؤ على اخراجك منه »

فنظرت اليها شزرا وقالت : « بل هو يريدنى أن أبقى فيه وأنا التى أطلب الذهاب »

قالت : « كيف تذهبين يا سيدتى والى أين ؟ »

فأطرقت ثم قالت : « انى ذاهبة · نعم ذاهبة ·· لا محالة · وأما أنت فامكثى هنا ! »

فقطعت خيزران كلامها وقالت وهى تشرق بدموعها : « أنا أبقى ؟ وماذا أفعل هنا من غيرك ؟ · انى بين يديك حيثما تذهبين · وانما أردت أن أعلم الجهة التى تقصدين »

قالت : « انى ذاهبة الى العراق »

قالت : « انك تقولين ما يسهل لفظه ويصعب فعله ، أتعلمين المسافة بيننا وبين العراق ؟ »

قالت : « لا أعلم · ولكنى سأذهب اليها »

قالت : « انك حكيمة لا تقدمين على أمر الا بعد التفكير ، فهل تعلمين أن بيننا وبين العراق مسيرة بضعة أشهر ، يقطع معظمها فى البرارى الخطرة التى لا يستطيع سلوكها الا القوافل المحروسة لكثرة اللصوص وقاطعى الطرق ؟ »

قالت : « مهما يكن من الأمر فانى ذاهبة الى العراق »

قالت : « تبصرى يا سيدتى أو يا حبيبتى ، وأشفقى على شبابك ولا

تعرضي نفسك للهلاك ٠٠ ان القاصد الى العراق ينبغي له أن يقطع صحارى قاحلة يكثر فيها اللصوص من التركمان وغيرهم،وكثيرا ما يعترضون قوافل التجار الذاهبة الى خراسان أو فارس فيقتلون أصحابها ويسلبون أموالها فكيف تسافرين أنت فيها ؟ »

قالت : « أسافر كما يسافر الناس ٠ وسندبر وسيلة السفر »

فلما لم تر حيلة لارجاعها عن عزمها قالت : « اذا كنت تذهبين الى العراق خوفا من الافشين فالعراق مقره وهو صاحب النفوذ هناك »

قالت : « لست أخافه هناك ، فان يد الخليفة فوق يده ، وهناك ضرغام أيضا » ٠ قالت ذلك وسكتت لحظة ثم استأنفت الكلام قائلة : « لا أعني أن أستعين بضرغام عليه ولكنني ألقى هذا الشيخ الجاهل في بلد يسمع فيه صوت الحق ٠ انه يغلبني هنا بجنوده ولكنه هناك لا يقدر على ذلك ، فلا تحاولي أن ترجعيني عن عزمي » ٠ ومشت الى الباب فتبعتها خيزران وقد أخذتها الدهشة ولم تتمالك عن البكاء

أما جهان فمشت مسرعة نحو غرفتها لا تلتفت يمينا ولا شمالا وقد تمثلت فيها الشجاعة وثبات الجنان ، ولم تجرؤ خيزران أن تعترضها ولا أن تدخل في أثرها فتباطأت في مشيتها ٠ واذا بجهان تناديها من الداخل فأسرعت اليها فرأتها جالسة على سريرها والحيرة تتجلى في عينيها رغم ما في جبينها من دلائل العزم الصادق ، فلما دخلت ابتدرتها جهان قائلة : « ألم يعد سامان بعد ؟ »

قالت : « كلا يا سيدتي ٠ لم أشاهده هذا الصباح »

فهزت رأسها وقالت : « تعالي اجلسي بجانبي يا أماه »

فجلست خيزران وهي تتهيب النظر اليها ، فقالت جهان : « احذري أن يعلم أحد سبب سفري ، وأوصي المهتر (قيم القصر) بأن يستمر في تعهد أموالنا ومغارسنا ، واخبريه أننا خارجون الى بلد قريب ٠٠ »

قالت : « سأفعل ذلك يا مولاتي ٠٠ ومتى السفر ؟ »

قالت : « في أقرب وقت ٠ وقبل انقضاء عدة الحداد وهي لا تزال طويلة وسأحدده لك ٠ انما أرجو منك أن تعدي ما ينبغي حمله من الأمتعة فاننا على سفر طويل »

فأشارت برأسها مطيعة وسكتت تنتظر ما يأتي به الغد ، وان كانت لا تتوقع رجوع جهان عن عزمها لما خبرته من اقدامها وثباتها وحزمها فتركتها في الغرفة وحدها وخرجت

قضت جهان بقية اليوم تفكر في أخيها سامان لاحتياجها الى صحبته في ذلك السفر الطويل وهي تعلم انه لا يقل عنها رغبة فيه ٠ وأصبحت في

اليوم التالى فاذا سامان يقرع باب غرفتها فابتدرته بالعتاب على غيابه فقال: « اذا كان غيابى عنك يوما واحدا قد أقلقك فكيف اذا غبت عنك أشهرا ؟ »

قالت : « هل اعتزمت السفر ؟ »

قال : « وفيم الاقامة ببلد حرمت من خيراته فأنا غريب بين أهلى . أما أنت فانك وريثة القصر والمال فامكثى ودعينى أضرب فى الأرض » . قال ذلك وهو يتظاهر بالحزن فلم يفتها قصده ولكن سفره وافق هواها فقالت : « وما قولك اذا سافرنا معا ؟ »

قال : « أعازمة أنت على السفر أيضا ؟ » . قالت : « نعم »

قال : « لا أرى باعثا على سفرك الا اذا كنت تقصدين العراق وهناك ضرغام حبيبك »

قالت : « نعم أنا عازمة على السفر الى العراق . وأنت ؟ »

قال : « ولكن مثل هذا السفر لا يتأتى الا بعد التأهب الكافى ، ولابد لنا من صحبة قافلة لأن الطريق وعر وطويل »

قالت : « دبر ما تراه وليكن فى القريب العاجل »

فأبرقت أسرة سامان وهو انما بدأ بتلك المقدمة ليسمع هذه الخاتمة لحاجة فى نفسه طالما سعى فى قضائها ، ولولا رغبة جهان فى السفر فرارا من الافشين لانكشف لها غرض أخيها ، ولكنها تعامت وتجاهلت رغبة فى النجاة ، والانسان كثيرا ما يطغى غرضه على تعقله ، فعهدت الى سامان بتدبير أمر السفر وأخذت هى وخيزران تستعدان فى الخفاء

□

وكان المعتصم قد ترك بغداد وبنى مدينة « سر من رأى » أو « سامرا » على مسافة خمسين ميلا شمالها ، ليقيم بها رجاله الأتراك وغيرهم ، فكانت المدينة الثانية من مدن بنى العباس ، وقسمها الى قطائع أقطعها لرجاله وهم فرق تنتسب كل فرقة منهم الى مواطنها التى حملت منها ، فقد حمل بعضهم من سمرقند وهم الأتراك ، وبعضهم من فرغانة ، وبعضهم من اشروسنة أو غيرها ، وجعل على كل جماعة قائدا . وأشهر قواده الافشين وأصله من ملوك اشروسنة ، وأشناس وكان فى الأصل مملوكا لبعض قواد المعتصم فابتاعه ورقاه ، وايتاخ ، وسيما ، وكانا مملوكين أيضا

ولما استقر رأيه على بناء « سامرا » أحضر المهندسين والفعلة والبنائين وأصحاب المهن من النجارين والحدادين، وأمر بحمل الساج والخشب والجذوع من البصرة وبغداد وسائر السواد ، ومن انطاكية وسائر سواحل الشام ، وأحضر الرخام من اللاذقية

وأقام قصره وسط المدينة وبجانبه المسجدالجامع واختط الأسواق حول المسجد وجعل كل تجارة منفردة في سوق على نحو ما فعل المنصـــور في بغداد ، وأفرد لقواده قطائع أبعدها عن قصره وعن منازل النـــاس وأهل الأسواق ، فأقام اشناس في محلة بأقصى شمال المدينة على بضعة أميال من قصره سماها الكرخ على اسم كرخ بغداد ٠ وأقام الأفشين في الطرف الجنوبي في مكان يسمى المطيرة على نحو تلك المســـافة من قصره ٠ وأنشأ للفراغنة قطائع أقرب اليه من سواهم ، وكذلك الأتراك والخراســـانية والمغاربة ٠ وأمر قواده أن يبنوا المساجد والأسواق في قطائعهم لرجالهم ٠ وجعـــل لسامرا شوارع موازية لمجرى دجلة تقطعها دروب وأزقة أكبرها الشـــارع الأعظم يمتد من المطيرة شمالا على موازاة دجلة الى الـــكرخ ، وتمتد قطائع الناس يمنة ويسرة على هذا الشارع وتتصل اليه بدروب وأزقة تنفـــذ الى دجلة ٠ وفي هذا الشارع كان ديوان الخراج وقصر المعتصم والمسجد وسوق الرقيق ٠ ويلي الشارع الأعظم شارع آخر على موازاته يعرف بشارع أبي أحمد

وبنى على دجلة جسرا يوصل الشاطىء الشرقي بالغربي وأقام في هـــذا الجانب العمارات وغرس البساتين وحفر الآبار واستقدم من كل بلد أصحاب الأعمال اللازمة للعمارة ، فاســـتقدم مهندسي الماء وصناع القراطيس من مصر ، وصناع الزجاج والخزف من البصرة ، وأنزل أهل كل مهنة وصناعة مع عيالهم ٠ وجعل الأبنية قصورا حولها البســـاتين وبينها الميادين ٠ ولما تسامع الناس ببناء هـــذه المدينة تقاطروا اليها للبيـــع والشراء ، وزاد فيها الواثق والمتوكل وغيرهما ممن خلف المعتصم كثيرا من الأبنية الفخمة

وكان في جملة أبنية الفراغنة بقرب قصر المعتصم بيت متوســـط الحجم قائم في حديقة حولها سور ، له باب مطل على دجلة وعنـــده نخلتان ٠ ولم يكن أهل سامرا يعرفون شيئا عن أهل هذا البيت اذ قلما كانوا يرون فيه أحدا غير الخدم الذين يخرجون الى السوق في حوائجه ، على أن القواد كانوا يعرفون انه منزل القائد ضرغام وكانوا يعجبون لرغبته عن زخارف الحيـــاة خلافا لسائر القواد أو الأمراء الذين كانوا يستكثرون من الحاشية والموالي والمماليك ٠ وكان أكثرهم يظنونه وحيدا فيه ، وربما زاره بعضهم أثنـــاء اقامته بسامرا ٠ أما بعد سفره الأخير فانهم انقطعوا عنـــه اذ لم يبق في البيت أحد الا امرأة مكفوفة البصر هي أمه ومعها جارية عجوز تخدمها اسمها مسعودة

أم ضرغام

كانت أم ضرغام واسمها آفتاب قد كف بصرها فى عنفوان شبابها قبل ذهابها الى فرغانة ، ولم يكن أهل ذلك البلد أكثر معرفة بسابق حياتها من اهل سامرا ، حتى المرزبان واهل قصره مع طول اقامتها بينهم. فقد كانت تكتم أصلها حتى عن ابنها ضرغام ، فكان اذا سألها عن أبيه زعمت أنه كان من جند المسلمين وقتل فى بعض الوقائع ، وأنها نذرت لبس السواد عليه كل حياتها . ولم يصدق ضرغام قولها لما لاحظه من التجائها الى الايجاز عند ذكره ، فألح عليها ذات يوم واستحلفها أن تخبره الحقيقة ، فوعدته ان تطلعه عليها فيما بعد ، وكان كلما ذكرها بوعدها استمهلتــه الى فرصة أخرى . وقضى شبابه فى فرغانة وهو يطلب الشخوص الى العراق لينخرط فى الجندية أو يتعاطى عملا يرتزق منه كما فعل أمثــاله من أهل النشاط والذكاء ، فلم توافقه على ذلك الا فىالأعوام الأخيرة فجاء معها واقام بسامرا، فظهرت مواهبه وارتقى فى الجندية حتى صار رئيس الحرس ، وكان يسألها عن أبيه فتؤجل الجواب

ولما استأذنها فى الذهاب الى فرغانة فى مهمته الأخيرة اذنت له والحت عليه فى أن يعجل بالرجوع ، وبقيت فى ذلك القصر ليس معها غير جاريتها مسعودة . وكانت تقضى نهارها فى البيت لا تخرج الى البستان الا نادرا ، والجارية تبذل جهدها فى تسليتها ، وقد قضت فى خدمتها اعواما عديدة لم ترها ضاحكة قط ، فلم تكن أقل استغرابا لحالها من الآخرين . على أنها كانت تحترمها وتحبها حبا جما لما خبرته من لطفهــا وطيب عنصرها ، مع التزامها الصمت الا نادرا .

وكانت آفتاب على كهولتها وابتلائها بفقد بصرها جميلة الخلقة خفيفة الروح ، تدل ملامح وجهها على ما كانت عليه فى شبابها من الجمال المفرط وكانت رشيقة القوام ممتلئة البدن محتفظة بآثار الجمال رغم ما مر بها من تكاليف الحياة ، فكانت جاريتها مسعودة تبذل جهدها فى تسليتها وتروى لها ما تسمعه من الأخبار ، فتلحظ منها الاصغاء لسماع اخبار الخليفة المعتصم ، ولا سيما بعد ان صار ابنها رئيسا لحراسه . ولم تكن تسمع منها جوابا غير قولها وهى تتنهد : « متى يعود ضرغام ، لقد طال غيابه »

حتى اذا جاء البشير بقدومه كان أول من علم به مسعودة ، اخبرها به

رسول أنفذه ضرغام قبل وصوله لعلمه أن أمه تتلهف لرجوعه . فدخلت مسعودة على سيدتها مهرولة ، ولو تيسر لآفتاب أن ترى وجهها لقرأت فيه دلائل البشر . ولكنها حرمت نعمة النظر لا لذنب أو مرض وانما قضت عليها بذلك مظالم ذلك العصر ، كما قضت تلك المظالم ايضا بأن تكتم سبب عماها وتخفى حقيقة حالها على كل انسان

فلما دخلت مسعودة شعرت آفتاب بسرعة حركتها وحدثها قلبها بخبر تحمله اليها فبدت على وجهها ملامح الاهتمام ولم تمهل خادمتها حتى تتكلم فابتدرتها قائلة : « ما وراءك يا مسعودة ؟ هل أتى ضرغام ؟ » .

فصاحت : « نعم يا سيدتى ، من انباك بهذا ؟ »

قالت : « انبأنى قلبى ! وهل لقلبى شغل سواه . اين هو ؟ »

قالت : « انه على مقربة منا »

فما تمالكت آفتاب عن النهوض فجأة وبدت فى محياها علامات البشر وتقطر من بياض عينيها دمعتان سالتا على خديها فتلقتهما بطرف نقابها الأسود ، وصاحت وهى تبتسم : « أتى ضرغام ؟ . الحمد لله . متى يصل الينا ؟ »

قالت : « يصل هذا المساء ان شاء الله »

فقالت : « اعدى العشاء » . ومشت نحو غرفتها مشية البصير لا تعثر بشىء ولا يوقفها شىء ، على عادة العميان الأذكياء . فدخلت غرفتها وغسلت وجهها وبدلت ثيابها وشغلت نفسها ببعض المهام حتى لا يطول عليها الانتظار

وكان من توقد ذهنها ورقة شعورها انها تتعرف مكان كل واحد من خدمها فى الغرفة أو الحديقة وهى جالسة فى مجلسها ، فبعد ان فرغت من اصلاح شأنها جلست فى الايوان ومسعودة فى المطبخ تهيىء الطعام تفكر فى قدوم مولاها مفعمة سرورا لفرح مولاتهـا ، فاذا بهـا تسمعها تنادى : « مسعودة . . »

فهرولت الجارية تقول : « أمرك يا مولاتى »

قالت : « ان ضرغاما آتى قولى للخدم يخرجوا لاستقباله »

فعجبت مسعودة لكلامها لأنها لم تكن ترى شيئا يدل على ذلك ، فخرجت الى الحديقة فلم تجد أحدا فعادت تقول : « لم يأت بعد ولكنه آت قريبا »

قالت : « انى اسمع وقع خوافر جواد ! »

وكانت مسعودة قد تعودت منها كثيرا من ادلة الشعور البعيد ، فذهبت الى البستان وامرت الخدم بالخروج لاستقبال سيدهم وهى لا ترى أحدا قادما ، ولكنها لم تبلغ باب البستان حتى نظرت الغبار من بعيد وسمعت وقع حوافر الخيل وتحققت قول سيدتها ، ولم تمض هنيهة حتى رأت

ضرغاما قادما على جواده بلباس السفر ، ووراءه تابعه وردان على جواد آخر . فرجعت لتبشر سيدتها فرأتها قد سبقتها الى باب الدار وعيناها شائعتان نحو الجهة التى تسمع الصوت منها وهما تجولان بين الأجفان كأنهما تريان شيئا . وانما حركهما محرك البصيرة النقادة ولهفة الوالدة المشتاقة ، ولم تمهلها فسبقتها الى الكلام قائلة : « ألم اقل لك انه جاء ؟ ! وانى اشعر بوقع حوافر جواده يمشى فى مفاصلى وكأنى احس بحرارة انفاسه ، حرسه الله » . قالت ذلك وكأنها تنطق بعينيها وحاجبيها ويديها وبكل جارحة من جوارحها ، فأثر منظرها فى مسعودة وخفق قلبها شفقة عليها ، وودت لو تعيرها عينيها لترى بهما ابنها وتفرح بمنظره

ولما وصل ضرغام الى باب البستان ترجل واعطى الخادم زمام جواده ، ثم صعد درجات الدار حتى بلغ مكان امه ، فأكب على يديها يقبلهما ، فضمته الى صدرها وقبلته ومشت الى الايوان ترحب به وتكرر تقبيله وتستنشقه وتتفحص كتفيه وذراعيه وصدره وعنقه بيديها وتتحسس بأصابعها وجهه ولحيته وشاربيه وعينيه كأنها تحدق فيه بأناملها . حتى اذا دخل الايوان جلست على وسادة وأجلسته بجانبها وهى تضمه وتشمه كأنها تخاف أن يخطفه احد من بين يديها ، بينما الدمع يتساقط من عينيها وهو لا يعترضها فيما تعمله ليسرها . ثم اخذت تسأله عن صحته فطمأنها وشرح لها شوقه اليها وانها لم تبرح من خاطره أثناء ذلك السفر الطويل ، فأمرت مسعودة أن تهيىء المائدة ، فاستأذنها ضرغام فى تبديل ثيابه قبل الطعام فأذنت له ، ثم قاموا الى المائدة ففرغوا من الطعام نحو العشاء وقد أنير البيت بالشموع وهى أول ليلة أنير فيها منذ سفره ، لأن آفتاب فى غنى عن الضوء ولم يكن يزورها احد فلم تكن تنار الشموع فى غياب ضرغام الا نادرا

وبعد العشاء خلت افتاب الى ابنها واخذا يتحدثان ، فاتكأ ضرغام على وسادة ، ووالدته بجانبه وهى قابضة بيدها على يده كأنها تعتاض عن المشاهدة باللمس ، واخذت تسأله عن سفره وهو يقص عليها ما شاهده فى طريقه من الغرائب والأخطار حتى وصل الى سامرا فى ذلك المساء فقالت : « وهل أقمت بفرغانة كثيرا ؟ »

فلما ذكرت فرغانة تذكر اشياء كثيرة فقال : « نعم اقمت بها بضعة ايام » . وسكت مترددا فى اخبارها بموت المرزبان فأدركت تردده من صوته فقالت : « قص على ما رأيته هناك . ماذا جرى ؟ »

قال : « ماذا اقص عليك ان القوم يذكرون جيرتك ويتحدثون عنك كثيرا»

قالت : « وكيف المرزبان واهله ؟ »

قال : « كلهم فى خير الا المرزبان فانه مريض مرضا ثقيلا عجز الطب والأطباء عن علاجه »

قالت : « أظنه مات . أليس كذلك ؟ »

قال : « اذا لم يكن مات فانه يموت قريبا لطول مرضه . والحق يقال انه رجل طيب القلب يكن لك احتراما كبيرا »

قالت : « اراك تتلطف فى ابلاغى خبر موته . رحمه الله . كيف فارقت أهله ؟ »

فلم يستغرب ضرغام شعورها بموت المرزبان ، وقد تعود منها مثل هذا الشعور المرهف ، واحب الاستطراق الى التحدث عن جهان فقال : « ان أهله فى خير فقد ترك لهم مالا كثيرا »

قالت : « وقد آل هذا الميراث الى جهان على ما أظن »

فاستغرب نسيانها سامان فقال : « وهل نسيت سامان اخاها ؟ »

فأدركت أنها كادت تبوح بسر تكتمه ، وبان الارتباك فى وجهها فأطرقت وعيناها ترقصان فى وجهها من الحيرة ثم قالت : « لم انس سامان ولكننى احسب أن أباه حرمه من الميراث »

فازداد تعجبه وهو يعلم انها لا تلقى الكلام جزافا فقال : « اتقولين ذلك تخمينا أم أن هنالك سببا تكتمينه »

فقالت : « ربما كان ذلك . وهب أنى لم اكتم سببا فلو جاز لى ان أقوله لك لقلته ، دعنا الآن من سامان واخبرنى عن جهان عروس فرغانة كيف هى ؟ . انى احبها واعجب بذكائها ولطفها »

فلما سمع اطراءها جهان شغل بها عن رغبته فى استطلاع خبر سامان وطاب له التحدث عن حبيبته فقال : « ان جهان جديرة باعجابك ، وهى موضع اعجاب الفرغانيين على بكرة ابيهم . انى لم أر مثلها بين النساء ولا مثل جمالها وتعقلها . وكم تمنيت ان يمن الله عليك بالبصر لتشاهديها »

وحينما سمعت اعجابه بها آنست منه ميلا شديدا اليها فقالت : « اراك كثير الاطراء لسجاياها ، ولا الومك على ذلك اذ لم يفتنى من مشتهيات المبصرين فى هذه الدنيا الا رؤيتك ورؤيتها » . وتنهدت وقالت : « هذا نصيبى من دنياى واحمد الله انه أنار بصيرتى ومن على ببقائك . واذا فاتنى ان اراك بعينى فلم تفتنى رؤيتك بقلبى . اما جهان فلم أحب فتاة مثل حبى لها وهى ايضا مرسومة فى قلبى » . قالت ذلك ومدت يدها الى صدر ضرغام وهى تظهر انها تحاول ضمه فأحست بخفقان قلبه فتحققت حبه جهان وهو لا يفقه مرادها ثم قالت : « انى أحب جهان يا ضرغام فهل انت تحبها ؟ »

فقال : « نعم يا اماه . ولا أظنك ترين بأسا بذلك ، لانك وضعتها فى قلبك معى كما تقولين »

قالت : « لا ارى بأسا . ولكن هل هي تحبك أيضا ؟ انها بنت المرزبان وقد كنا اضيافا في قصر ابيها . فربما حسبت نفسها ارفع منك مقاما على عادة اهل اليسار . ولا لوم عليها اذا فعلت ذلك لأنها لا تعرف اباك » . ولم تكد تقول ذلك حتى تصاعد الدم الى وجهها ثم أمسكت كأنها ندمت على ما فرط منها

فقال : « اطمئني يا أماه ، ان جهان تحبني حبا شديدا ، وهي بحمد الله بمنجاة من الكبرياء وقد تعاقدنا على الزواج وهي لا تعرف نسبي ، والآن وقد جرنا الحديث الى ذلك ألا ترين انه قد آن لك أن تبري بوعدك »

فعلمت انه يستنجزها وعدها ليعرف اسم ابيه فقالت : « لم يجيء الوقت يا ولدي ، وسيأتي قريبا . عد بي الى حديث جهان فان خبر خطبتها يفرحني وطالما تمنيت ذلك وانا احسبه بعيدا . فهل حدث ذلك على يد ابيها ؟ »

فقال : « اعترف لك الآن بسرنا فقد تعاقدنا على الزواج قبل مجيئي معك الى سامرا ، ولم ابح لك قبلا لأني لم أكن احسب نفسي أهلا لها وانا يومئذ لا شأن لي ، فلما وفقني الله الى المنصب الذي نلته عند امير المؤمنين احتلت في الذهاب الى فرغانة لأعلمها وأتمم العقد على يد ابيها فذهبت فوجدتها عند عهدنا ، وكدنا نعقد القران لولا مرض ابيها ووفاته فأجلنا هذا الأمر الى فرصة اخرى »

قالت : وهل تنوي ان تزوجتما أن تقيما بفرغانة ، أم تأتي بها الى هنا ؟ »

قال : « هذا امر منوط برايك ، فهي لا تخالف لك رايا ، وكنت قد عزمت على البقاء هناك حتى تنقضي عدة الحداد فاعقد القران وآتي بها الى هنا . فجاء أمر الخليفة يستعجلني الرجوع ، ولقيتها قبل سفري فحبذته على أن نعمل بما نراه بعد ذلك »

فابرقت أسرة آفتاب وابتسمت وقالت : « احمد الله على هذا التوفيق واطلب اليه ان يتم نعمته عليك بما في خاطري لتكون اسعد الناس »

فعلم انها تشير الى سر ابيه فقال : « اني أسعد الناس بك . ولكن . . »

فخافت ان يستأنف سؤالها عن ابيه فقطعت كلامه وقالت : « وهل علمت لماذا استعجل الخليفة قدومك ؟ »

قال : « لم أعلم بعد ، ولعله سيرسلني في مهمة عسكرية . هل علمت شيئا عن هذا ؟ »

قالت : « لم أسمع شيئا في غيابك لأني لم أكن اكلم احدا غير مسعودة »

فقال : « وهل بعث في طلب الافشين ايضا »

قالت : « لا ادري . اين هو الافشين الآن ؟ اليس في سامرا ؟ »

قال : « كلا انى لقيته فى فرغانة »

فأطرقت كأنها تفكر فى أمر خطر لها ثم قالت : « ان الأفشين كان صديقا حيما للمرزبان . هل شهد موته ؟ »

قال : « نعم . شهده وقد أقامه المرزبان وصيا على أهله بعده »

فابتسمت ابتسام مطلع على أمور سابقة تؤيد ما قاله ، فلحظ ضرغام ابتسامتها فقال : « ما بالك تبتسمين ؟ هل عرفت شيئا عن هذا الأمر من أحد غيرى ؟ »

قالت : « لا ، ولكننى تذكرت اشياء كنت سمعتها من صديقتى ام جهان رحمها الله ، فقد كانت تسر الى كل ما يهمها ، وانا ايضا كنت اكاشفها باسرارى ، وكثيرا ما شكت الى ثقة زوجها بالأفشين وهى لا تثق به لما تعلمه من جشعه وطمعه ولكنها لا تجسر على أعتراض المرزبان فى اعماله »

فلما سمع ذكر الجشع والطمع شغل باله لأن الرجل أصبح وصيا على تركة كبيرة ربما تلاعب بأموالها ولكنه كان حسن الظن بالناس لسلامة طويته ، فأكبر أن يطمع ذلك القائد العظيم فى مال أقيم وصيا عليه فقال : « هل تظنين الأفشين يمد يده الى شىء من التركة ؟ »

قالت : « لا أدرى . ولكننى ذكرت لك ما كانت تسره الى تلك المسكينة ، وهى التى أسرت الى ما علمته عن سامان وسبب حرمانه من الارث »

فانتبه ضرغام لشىء لحظه من سامان فقال لها : « لا شك أن سامان نفسه كان عالما بنية ابيه ، ولذلك كان يبذل جهده فى منع الوصية فكان كلما بعث به أبوه لاستقدام الموبذ ، لم يفعل وانتحل أعذارا غير مقبولة ! »

قالت : « وهل كتبت الوصية على يد الموبذ ؟ »

قال : « نعم وأنا أرسلت وردان للمجىء به »

فهزت رأسها وقالت : « أنعم به من موبذ ! وهذا أيضا كانت تلك المسكينة تستثقل ظله وتنفر من رؤيته فاذا زارهم فى عيد هربت من الايوان حتى لا تلتقى به . وقد أذكرتنى وردان . أين هو ؟ »

قال : « هنا عندنا ، واظنه نام الآن لأنه متعب من السفر . انه والحق يقال همام غيور كنت كثير الاعتماد عليه فى شئونى . وانا لا أدعوه خادما فهو أولى أن يدعى صديقا لأنه ارقى كثيرا من طبقة الخدم ، ولعل له شأنا »

فقالت : « احتفظ به فقد يكون شهما خانه الدهر والدهر بالناس قلب » . ثم انتبهت الى ان قد دنا موعد الرقاد ، ولا سيما أنه متعب من السفر فقالت : « اذهب يا حبيبى الى فراشك ، وغدا تخرج بحراسة الله الى المعتصم ، وارجو أن تلقاه وانت فى خير وعافية » . قالت ذلك ونهضت وذهب كل الى فراشه

المعتصم والأسد

نهض ضرغام فى صباح اليوم التالى ، فقبل يد أمه وأفطر ، ثم ارتدى الثياب التى يدخل بها على الخليفة وأهمها : القلنسوة حولها العمامة،والسواد وهو الجبة السوداء الخاصة بالعباسيين وتحتها القباء والسراويل • وتقلد السيف ، ثم ركب جواده ، وركب وردان فى أثره ، وسارا يلتمسان قصر الخليفة

وكان قصر المعتصم فى الجانب الشرقى من سامرا ، ويقال له الجوسق ، ويحتوى على أبنية عدة يضمها سور واحد • وقد قلد فى بنائه طراز الأكاسرة فى المدائن فجعل بابه الخارجى مثلث القناطر : القنطرة الوسطى كبيرة لمرور الفرسان ، والى كل من جانبيها قنطرة صغيرة يمر تحتها المشاة• ويستطرق الداخل الى حديقة كبيرة بها أبنية كثيرة أكبرها البناء الذى يقيم به المعتصم ، وبقية الأبنية للحاشية وفى جملتها بناء للأضياف وآخر للسباع ، فقد كان المعتصم مولعا باقتنائها وكثيرا ما يخرج لاقتناصها

وصل ضرغام الى ذلك القصر فى الضحى ، فلما أقبل على الباب وقف له الحرس وحيوه ، فدخل على جواده ، وترجل وردان وقاد فرسه فى أثره أما ضرغام فلم يترجل حتى دنا من قصر الخليفة فأخذ وردان فرسه وساق الفرسين الى الاصطبل ، فرحب الحاجب بضرغام ولما سأله عن المعتصم قال : « لقد خرج أمس للقنص ولم يعد بعد »

قال : « وهل تظنه يعود الآن ؟ »

قال : « لا يلبث أن يأتى »

فأدخله الحاجب الى قاعة يستريح فيها ، ووقف بين يديه وأخذ يرحب به ويسأله عن سفره ، فطمأنه وسأله عن الأحوال الجارية لعله يفهم سبب طلبه فلم يجد ما يشفى غليله • ومكث وهو يتشاغل بمشاهدة ما أحدث فى القصر من الرياش الجديد • ثم رأى أن يخرج الى الحديقة يتفرج على ما فيها من الأشجار والرياحين فرافقه الحاجب الى بعض أطرافها واذا بأهل القصر فى هرج ومرج وصاح بعضهم : « عاد الخليفة » • فتحول القوم نحو الممر المؤدى الى القصر وأخذت طلائع الموكب تتقاطر بين فرسان ومشاة ثم أقبل الخليفة على جواده وعليه لباس الصيد فوق الدرع التى يلبسها اذا خرج للصيد خوفا من وثوب السباع أو غيرها من الضوارى

وكان المعتصم ربع القامة طويل اللحيـة أبيض أصهب مشربا حمرة تلوح الشجاعة فى وجهه وتتجلى القوة العضلية فى بدنه ، وبلغ من قوته أنه كان يحمل ألف رطل ويمشي بها خطوات. واذا اعتمد بأصبعيه السبابة والوسطى على ساعد انسان دقه . وكان يلوى العمود الحديد حتى يصير طوقا ويشد على الدينار بأصبعه فيمحو كتابته . وكان غضوبا شـديد النقمة منصرف الهمة الى ركوب الخيل واللعب بالصوالجة . فلما وصل الى باب القصر ترجل وحيى الوقوف وأكثرهم من القواد والفرسان ، فوقع بصره على ضرغام فهش له وحياه فأسرع ضرغام اليه وهم بتقبيل يده ، فمنعه وقال : « أنت هنا »

قال : « جئت يا مولاى طوعا لأمرك »

قال : « وددت لو كنت البارحة معى فى هذا الصيد »

قال : « وأنا أشتهى ذلك يا أمير المؤمنين .. لا زلت ظافرا غانما »

وبعد أن حول الخليفة وجهه نحو القصر رجع كأنه تذكر شيئا وأشار الى الوقوف فانصرفوا واستبقى ضرغاما وقال له : « سأذكر لك الآن شيئا يسرك . فقد اصطدت أسدا هائلا . ولا أرى أسدا الا تذكرتك لأنك تسمى ببعض اسمائه » . ثم أشـار الى الحاجب فوقف بين يديه فقال له : « قل لأصحاب الصيد أن يأتوا بالأسـد الى تلك المصطبة » . ومشى الخليفة الى مصطبة فى بعض جوانب الحديقة وهو يراعى ضرغاما ويكلمه ، واغتنم فرصة الانتظار وأخذ يسأله عن سفره قائلا : « عسى أن تكون قد وفقت فى هذه الرحلة الى ما يسرنا »

قال : « صدعت بأمر مولاى فرافقنا توفيقه فابتعنا الجوارى ... »

فقطع كلامه قائلا : « أنت ابتعتهن ؟ »

قال : « كلا يا مولاى فليس لى أن أكون تاجرا ، ولكننى ساعدت الجماعة فى ابتياع ما يلزم وسيصلون هنا عما قليـل ، وانما تعجلت المجىء طوعا لأمر أمير المؤمنين »

فلما قال ذلك بدا الاهتمام فى وجه المعتصم وأطرق ثم قال : « سنتكلم فى هذا بعد قليل » . والتفت الى باب الحديقة فأبرقت أسرته ، وأشـار الى ضرغام فالتفت فاذا بجماعة يحملون قفصا من قضبان الحديد على أعمدة . وفى القفص أسد هائج يكاد الشرر يتطاير من عينيه. فقطب ضرغام حاجبيه تهيبا وكأن شيئا جاش فى خاطره اذ تمثلت له الشـجاعة فى وجـه ذلك الحيوان المفترس

فلبث المعتصم واقفا ، فلما اقتربوا بالقفص أمرهم بوضـعه ، فوضعوه أرضا والأسد يزأر زئيرا تصطك له المسامع ، فقال المعتصم : « انه يزأر من شدة الألم لأنى رميته بنبل أصاب لبته وأخشى أن يموت منـه ، مع أنى أحب أن يبقى حيا لأتمتع بلذة هذا الصيد كلما رأيته » . قال ذلك ومشى

الى القفص وضرغام بجانبه الى الوراء تأدبا حتى أصبحا على بضع أذرع من الأسد . وكان بيد الخليفة نبل ليس معه من الأسلحة سواه لأن صاحب لباسه أخذ أسلحته ساعة وصوله واستبقى النبل بيده يتشاغل به . فلما دنا من القفص أخذ يداعب الأسد ويشير اليه بالنبل كأنه يهم بضربه والأسد يزأر ويتململ والدم يقطر من لبته وقد جمد بعضه على صدره وقائمتيه واحمرت عيناه وتناعستا ، فظن المعتصم أنه سيموت فرمى النبل عليه لمداعبته فأصاب عينه فهب الأسد غضبا وألما ووثب يطلب الخليفة فلطم رأسه قضبان الحديد فارتد وقد اشتد غضبه كأنه جن ، والمعتصم وضرغام ينظران اليه مستهزئين وقلباهما يخفقان ، فان للأسد رهبة حتى في حالة الاحتضار

وفيما هم فيذلك وضرغام يتفرس في الأسد راثيا لما أصابه اذا بالأسد يضرب جانب القفص برأسه ضربة قوية حطمت منه قضيبين وأحدث فرجة نفذ منها خارجه ، فذعر الناس وفروا مسرعين يطأ بعضهم بعضا ، ماعدا ضرغاما والخليفة . ولم تكن الا لحظة حتى هجم الأسد على الخليفة ممسكا ذراعه بمخالبه ، وفتح فمه وهم بأن يلتقم رأسه ، فبغت المعتصم ، وذهبت قوته وأيقن بالهلاك ، اذ لم يجد شيئا يدفع به عن نفسه ولا وسيلة للنجاة من براثن الأسد وقد ولى الناس فرارا ورعبا . على أن ضرغاما ثبت في موقفه وانقض على الأسد فقبض على فكه الأسفل بيد وعلى الأعلى باليد الأخرى ، وهو يقول : « لبيك يا مولاي . سلمت باذن الله » . وما عتم الخليفة أن سمع تمزق شدقي الأسد . وشعر بأن ذراعه تخلصت من مخالبه ثم رآه يهجم على ضرغام ، ولكن هذا استل خنجره ومضى يطعنه في لبته وخاصرته وتحت ابطه ، وقد غلبت عليه سورة الغضب حتى أصبح منظره أشد رهبة من الأسد فوقف شارباه واحمرت عيناه وتقطب حاجباه

وكان الجمود قد استولى على الحاضرين ، ولكنهم لما رأوا الأسد مضرجا بدمه وضرغام فوقه والخليفة واقف وعيناه شائعتان الى ضرغام تقاطروا راجعين وعلا صياحهم يهنئون الخليفة وينظرون الى ضرغام معجبين. وابتسم المعتصم لضرغام والاصفرار غالب علىسحنته من أثر البغتة ، وقال : «بورك فيك يا ضرغام .. انك والله ضرغام حقيقة »

فلما سمع اعجاب الخليفة به رجع الى رشده فوقف والخنجر في يده يقطر دما - فرماه وقال : « اني عبد أمير المؤمنين ولم أفعلشيئا الا ببركته ، وانه أولى مني بالانتقام من هذا الوحش . ولو انفرد به لقتله ولكنني غلبت على رشدي فلم أستطع صبرا على ما رأيته من جرأته فنبت عن مولاي بقتله ، وهي جرأة أستغفر لها »

فأعجب المعتصم بأسلوبه في الاعتذار وشكره ، ورأى أن يؤجل ما بقي عنده من الكلام لخلوة يختليانها ، وهم بالمسير فأحس بألم في ذراعه من أثر

مخالب الأسد ولكنه تجلد ومشى وأمر القوم بالانصراف ، وتحول مع ضرغام الى قصره وامر الحاجب أن يمنع الدخول عليه في ذلك اليوم الا للطبيب الذي أمر باحضاره ، فلما أتى هذا وكشف عن الجرح لم يجده يستحق الاهتمام لأن الدرع صانت موقع المخالب • فهنأه بالسلامة وأشـار عليه أن يلزم الفراش بقية ذلك اليوم .

▭

تسامع أهل الجوسق بما وقع للخليفة ، فتقاطر الوزراء والقواد للسؤال فأنبأهم الحاجب بما أوصاه به فرجعوا • ثم دعا ضرغاما الى مخدعه فدخـل بعد أن غسل يده وأصـلح من شأنه ، فتحفز المعتصم للوقوف له اظهارا لاعجابه ، فأكب ضرغام على يده يقبلها ، ثم أمره الخليفة بالجلوس بجـانبه فجلس متأدبا ، فقال له : « ان حياتي الآن من يدك يا ضرغام » .

فاطرق ضرغام استحياء،وقال : « عفوك يا مولاي اني لم أفعل ما يستحق هذا الاطراء فانما نبل أمير المؤمنين أردى الأسد من قبل ، وما وثوبه هذا الا من حشرجة الاحتضـار • وهب أني أتيت شيئا فأنا عبد أمير المؤمنين أفديه بدمي »

قال : « بورك فيك • اني طالما أعجبت ببسالتك واخلاصك وأنا محـاط بالمداهنين والملقين لا أثق الا بقليلين ، وان كنت أظهر وثوقي بهم جميعا • وان قائدا مثلك يندر في بلاط الخلفاء في مثل هذا الجيل الفاسد • ولم أكن أجهل اخلاصك من قبل ولذلك جعلتك رئيس حرسي فأنت جدير بهـذا المنصب ولا يليق الا بك » • ثم التفت الى الباب ثم الى النافذة كأنه يتفقد المكان ليتحقق خلوه من الرقباء وأطرق وضرغام ساكت يسترق النظر اليه، ثم رفع المعتصم رأسه وقال : « أتعلم لماذا استعجلت مجيئك من فرغانة ؟ » • قال : « كلا يا مولاي »

قال : « أتعلم أن دولتنا قامت على كتم الأسرار »

قال : « نعم أعلم ذلك ، وليتأكد مولاي أني أحفظ لسره من صدره »

قال : « اني وثقت بك لاخلاصك وحسن بلائك منذ رأيتك للمرة الأولى وقد شعرت بشيء حببك الي »

فتحفز ضرغام للوقوف اجلالا وشكرانا وقال : « تلك منة لا أستحقها ، ومن أين لجندي مثلي أن ينال هذه الحظوة عند أمير المؤمنين ؟ وأي فضـل لي اذا أخلصت الخدمة لخليفة الرسول ؟ • أليس ذلك فرضا على كل مسلم ؟ »

فقال وهو يقعده بيده : « بلى • ان ذلك فرض على المسلمين ولكن المخلصين قليلون ، ولولا ذلك ما اضطررت الى الخروج من بغداد وانشاء هذه المدينة

ولا كان ثمة ما يدعو لتجنيد هؤلاء الأجنـــاد من أقصى تركستان وفرغانة لأستعين بهم على قومي وعشيرتي ، وعلى أولئك الفرس الذين أطمعهم أخي المأمون في الدولة ٠ اني محاط بالأعداء من كل ناحيـــة ٠ وكأنه ما كفاني الأعداء الأباعد في أذربيجان وطبرستان حتى ابتليت بهم في مدينتي وفي قصري !٠حتى هؤلاء الأتراك الذين جعلتهم بطانتي وعهدت اليهم في حمايتي ونصرة هذه الدولة ، لا ينصرونني الا طمعا في المال ! ٠ وأنا انما أسايرهم وأخادعهم وأنفق الأموال فيهم ، وهم يظنون انهم يخدعونني ! » ٠ وسكت وبدا الجد في عينيه فأبرقتا بريقا يوهم الناظر اليهما أن الدمع يغشـاهما فتهيب ضرغام من ذلك وأطرق ينتظر ما يبدو من الخليفة فاستأنف هـــذا كلامه وقال : « ضرغام ٠ هل رأيت الافشـين في فرغانة ؟ » ٠ قال : « نعم يا مولاى »

قال : « وما الذى ذهب به الى هناك ؟ »

قال : « لم يخبرني عن سبب ذهابه ، ولـكنني أظنه ذهب ليتعهد بلده وأهله في عيد النيروز ٠ وأظنه قادما قريبا »

قال : « انه قادم لا شك ، لأنه لا يجد رزقا أوسع من هذا ولكن ٠٠ »

قال : « وهل أمير المؤمنين في ريب من اخلاصه ؟ »

فقال : « اني أكاد ألمس ذلك بيدي ولكني أغالط نفسي وأظهر الثقة به ، لأننا في حرب لا غنى لنا فيها عن رجاله ، وليتني كنت مخطئا فالذى أبغيه منك الآن أن تكون موضع سري وألا تفارقْ قصري »

فأجابه على الفور : « اني عبد أمير المؤمنين وطوع اشارته »

قال : « أنت منذ الآن صـــاحبي فانه وان كان اسـمك أليق الأسماء ببسالتك فقد اخترت لك اســـم « الصاحب » لأنك مصـــاحبي ٠ فهمت يا صاحب ؟ »

فحنى ضرغام رأسه شكرا وقال : « لقد تكاثرت عـلى نعم أمير المؤمنين ، ولا أراني أهلا لها ولكنه أراد أن يرفع صنيعته و ٠٠ »

فقطع الخليفة كـلامه قائلا : « كيف لا تكون أهلا لذلك وقد أنقذتني من براثن الأسد ؟ »

فأطرق ضرغام اســـتحياء وقلبه يرقص طربا لما يتوقع من فرح جهان بارتفاعه في نظر الخليفة ، وبأنه صار أهلا لها بحق ــ والمحبون انما يطلبون العلا ارضاء لأحبائهم ــ ونظر الى الخليفة وقال : « لم أعد أستطيع الشـكر على نعم مولاى »

فقال : « اذا كنت تعد هـــذه نعما ، فكيف بما أعددته لك مـــن النعم الحقيقية ؟ »

فظل ضرغام ساكتا واستأنف الخليفة الكلام قائلا : «علمت أنك لم تتزوج بعد وانك تقيم مع والدتك. فأردت أن تقيما بقصر خاص بجوار هذا القصر، وقد آن لك أن تتزوج . أليس كذلك ؟ »

فأطرق ضرغام أدبا وقال : « الأمر لمولاي »

قال : « لقد استحسنت لك جارية تركية عرفت فيها الذكاء والجمال . رأيتها منذ عام وبعض العام فأضمرت أن أزوجك منها »

فلما سمع ضرغام كلامه سقط في يده ، لأن قلبه ليس له ، وقد أحب جهان ولا يريد أن يحب سواها ، ولكنه لم يستطع مخالفة الخليفة ولا استطاع التأمين على قوله فظل ساكتا وقد حار في أمره

فرأى المعتصم حيرته، ولم يدر في خلده انه يمتنع ، فقال : «لماذا لا تجيب؟ ألم يرقك اقتراحي ؟ »

قال : « كيف لا . ان جوار أمير المؤمنين أمنية الأماني » . وسكت عن الزواج فظنه الخليفة سكت حياء فقال : « والزواج .. لعلك لست كسائر الناس ؟ ليس في جندي واحد لا يتمنى الزواج ولذلك تراني أبعث في ابتياع الجواري لهم من تركستان ، لأني لا أريد لهم أن يختلطوا بالسوقة ببغداد وغيرها فيغلب عليهم التخنث . أم لعلك تؤثر أن تختار جارية من الجواري اللواتي ابتعتموهن في هذه الرحلة . ولكنك لن تجد في تركستان كلها فتاة أجمل من التي اخترتها لك ولو جهدت . ويكفي أن اختياري وقع عليها. وقوادي يتنازعون عليها لفرط جمالها وذكائها ولكنني قد اختصصتك بها دونهم ! »

فلم يجد ضرغاما سبيلا للقبول أو لابداء ما يجول في خاطره ، ثم تشجع وقال : « اننا في حرب أو في تأهب لحرب ، ومتى فرغنا من ذلك فاني عبد أمير المؤمنين »

فاكتفى المعتصم بما سمعه وأعجبه منه تأهبه للحرب فقال : « وهب أننا في حرب فلست تفارق قصري . وأت بأمك وأهلك الى هنا وأخبرها أن اسمك من اليوم (الصاحب) وسأوصي بطانتي وقوادي وسائر رجال دولتي بذلك » . ثم تزحزح من مكانه فتحفز ضرغام للنهوض وقال : « أيأذن أمير المؤمنين في أن أذهب لأخبر والدتي بما أمر ؟ »

قال : « سر اذا شئت وستهيىء القهرمانة لكم المنزل اليوم »

فمشى ضرغام ووجهه الى المعتصم حتى خرج ، ثم أرسل الى وردان فجاءه بالفرس فركبا قاصدين الى البيت وضرغام تتقاذفه الأفكار ، وقد سره اعجاب الخليفة به ودعوته ليقيم بقربه كما ساءه أمر الزواج ولكنه لم يعلق عليه كبير شأن اذ لا دخل له بالسياسة فيسهل التخلص منه

فلما وصل الى منزله تلقته أمه بالترحاب وسألت وردان عن حاله وكانت

قد أعدت الطعام فجلست معه الى المائدة ، وشعرت منسكوته أن تغييرا طرأ عليه فقالت : « هل لقيت أمير المؤمنين ؟ » . قال : « نعم يا أماه »

قالت : « كيف حاله وهل أخبرك بسبب تعجيله باستقدامك ؟ »

فابطأ في الجواب لأنه خاف ان قال لها كل شيء أن يخلف الوعد ويبوح بالسر ثم قال : « أخبرني . ولكن حدث أمر غريب »

قالت : « ما هو ؟ » . فقص عليها خبر الأسد وما كان من دفاعه عن الخليفة ، فانشرح صدرها وبان ذلك في محياها . ثم أخبرها أن الخليفة غير اسمه وسماه « الصاحب » وذكر لها السبب فازداد سرورها ، ثم قال : « وقد دعاني للاقامة بجواره »

وكانت تهم بلقمة من الرغيف لتتناولها فلما سمعت كلامه ارتبكت وشخصت بعينيها البيضاوين اليه وقالت : «دعاك للاقامة بجواره ؟.لماذا ؟»

قال : « لأكون ملازما له . وذلك اكرام عظيم »

قالت وقد توقفت عن ازدراد ما في فيها من الطعام : « وهل يريد أن أكون أنا معك أيضا ؟ »

قال : « نعم فقد قال لي : « تسكن أنت وأمك هنا »

فتغير لونها وتشاغلت بالمضغ وبان قلقها من تسرعها فيه وقالت : «اذهب أنت وحدك ، ولا حاجة بي الى الاقامة بقصر الخليفة »

قال : « ولماذا يا أماه ؟. اذا كنت لا تريدين الذهاب معي فأنا أيضا لا أذهب »

قالت : « اذهب أنت فان القرب من الخليفة شرف يتمناه القواد ، وأما أنا فأمكث هنا على أن تتردد على حينا بعد آخر لألمسك وأقبلك »

فعجب ضرغام من استنكافها واباثها وقال : « بل تذهبين معي فنقيم هناك كما نقيم هنا ، وقد وعدت الخليفة بذلك ولا سبيل الى الاخلاف »

فوجمت حينا ثم قالت : « ننظر في ذلك »

قال : « ليس في الوقت متسع فاننا ذاهبون غدا ، فقولي لمسعودة تستعد ، وسأوصي وردان بأن يساعدها . ولا ريب أنك ستأنسين بمن في قصر الخليفة من النساء فتقضين النهار في الحديث أو سماع الغناء ، وذلك خير من بقائك وحيدة هنا . هذا فضلا عن حاجتي الى وجودك هناك لأمر يهمني »

فصعدالدم الى وجنتيها وتغيرت سحنتها وأدارت عينيها دورة تكاد تنطق بما اعتراه من الارتباك ، وقالت : « أما الاستئناس فلا أبغيه من سواك فأنت تعزيتي الوحيدة لا أطلب سواها بل أنا أشترط عليك اذا كان لابد من

ذهابى أن يكون لى الخيار فى البقاء بالمنزل أو الخروج منه • ولكن ما حاجتك الى وأنا مكفوفة البصر كما ترى ؟ »

قال : « أنت ضوئى ، وستكونين عونى على انقاذى من السعادة التى أعدها الخليفة لى »

قالت : « انقاذك من سعادة ؟ ماذا تعنى ؟ »

قال : « أعنى ان الخليفة خطب لى جارية تركية ذكر أنها أجمل نساء هذه المدينة واختصنى بها دون قواده »

قالت : « وبماذا أجبته ؟ » • قال : « أجلت الجواب لأنى استحييت أن أرفض »

قالت : « هل نويت الرفض ؟ » قال : « وهل أقبل ؟ »

فسكتت وذكرت انه عالق بجهان فقالت : «وكيف ترفض أمر الخليفة ؟»

قال : « وجهان ؟ أليست خطيبتى ؟ »

قالت : « لذلك تريدنى أن أكون معك ؟• عسى أن أحتال لانقاذك منهذه الورطة • ذلك شىء يسير »

فانشرح صدره وقال : « اذن غدا ننتقل جميعا • واحذرى أن تنادينى ضرغاما فان الخليفة قد سمانى (الصاحب) وقد يستاء اذا دعيتنى بغير ما سمانى »

قالت : « لك على ذلك » • وكانوا قد فرغوا من الطعام فأمرت مسعودة بالتأهب ، وأمر وردان بمساعدتها • وفى اليوم التالى انتقل الجميع الى قصر الخليفة وأقاموا بمنزل بجانبه وليس معهم من الخدم الا وردان ومسعودة، اكتفاء بخدم الخليفة



أحمد بن أبي دؤاد

قضى الصاحب فى جوار الخليفة اياما يتوقع أن يسمع خبرا عن جهان او نبأ بقدومها ، وقد ازداد رغبة فى مجيئها لتنقذه من الجارية التى اختارها الخليفة . ولم يداخله شك فى ان الخليفة اذا رأى جهان زهد فى سائر نساء الارض فلا يلومه حينئذ اذا ابى الزواج بسواها . وطال غيابها واستبطأها فقلق لتأخرها وانقطاع اخبارها وضاق صدره عن كتمان القلق ، فاستدعى وردان ذات يوم وقال له : « ما قولك فى أهل فرغانة ؟ »

ففهم وردان قصده وقال : « أتعنى مولاتى جهان ؟ »

قال : « أعنى انى كنت على موعد معها هنا بعد انقضاء الحداد ، ولكنها لم تأت ولا سمعنا عنها خبرا ، فما رأيك ؟ »

قال : « اتريد ان اذهب للبحث عنها ؟ »

فأعجب الصاحب بتفانيه فى خدمته وابتسم وقال : « بورك فيك يا وردان ؛ لا أكلفك هذه المشقة ولكننى استشيرك فى الامر »

فاطرق وردان يفكر ثم قال : « الرأى عندى ان نصبر مدة أخرى حتى يأتى مولانا الأفشين من فرغانة »

قال : « ومتى يكون هذا ؟ »

قال : « جاءت البشائر بقرب وصوله ، فاذا جاء سألناه او سألنا بعض رجاله »

فاستحسن ضرغام ذلك ، وقال له « ارى أن تتولى انت أمر البحث من بعض رجال الأفشين »

قال : « فهمت مرادك ».

فضحك الصاحب (ضرغام) وقال : « لا تكتم رأيا ترى فيه نفعا لى . واعلم انى اعدك رفيقا لى لا خادما فأنت أرقى من ذلك كثيرا »

فأطرق وردان احتراما وقال : « انا خادمك اتفانى فى خدمتك . اتأذن لى فى أن اذهب للقاء حملة الافشين قبل وصولها ؟ » . قال : « افعل ما يبدو لك » . فودعه وخرج .

ومكث ضرغام ساعة فى القصر ، ثم جاءه رسول المعتصم يدعوه اليه ،

فلبس سواده وذهب الى القصر فقيل له ان الخليفة فى خلوة مع قاضى القضاة احمد بن ابى دؤاد فى دار الخاصة

وكان ضرغام يعرف منزلة ابن ابى دؤاد عند الخليفة ، وانه لا يختلى به الا لأمر ذى بال ، فاستأذن ودخل فراى الخليفة جالسا على سريره فى صدر القاعة ، واحمد بن ابى دؤاد على كرسى بين يديه

وكان احمد هذا معروفا بالمروءة وبعصبيته العربية اذ كان ينتسب الى بنى اياد ، ولكن المعتصم وان أبعد العرب من مجلسه وقطع أعطياتهم وحط من اقدارهم واختص الأتراك ببطانته ، كان شديد الثقة به لا يمضى امرا الا بمشورته ولا يشاور وزراءه

وكانت نشأة ابن ابى دؤاد فى قرية من أعمال قنسرين ، ثم هاجر ابوه الى الشام للتجارة فأخذه معه اليها وهو غلام ، فنشأ فى طلب العلم ولا سيما الفقه والكلام حتى فاق معاصريه ، وأصبح معتزليا فصيحا قوى الحجة ، ونال عند المعتصم حظوة ودالة لم يسبقه اليهما أحد ، حتى صار يفتتح الكلام فى حضرته وكانت العادة عند الخلفاء الا يبدأهم أحد بالكلام . ومن أمثلة دالته هذه أن المعتصم غضب مرة على خالد بن يزيد الشيبانى واشخصه من ولايته لعجز لحقه فى مال طلب منه واسباب أخرى . فجلس المعتصم لعقوبته وكان قد طرح نفسه على القاضى احمد فشفع فيه فلم يجبه المعتصم . فلما جلس لعقوبته حضر القاضى احمد فجلس دون مجلسه الذى اعتاده فقال له المعتصم : « يا أبا عبد الله لم جلست فى غير مجلسك ؟ » . قال : « ما ينبغى لى أن اجلس الا دون مجلسى هذا ! » . فقال له : « وكيف ؟ » . قال : « لأن الناس يزعمون أن ليس موضعى موضع من يشفع فى رجل فيشفع » . قال : « فارجع الى مجلسك » . قال : « مشفعا أو غير مشفع ؟ » . قال : « بل مشفعا » . فارتفع الى مجلسه . ثم قال : « ان الناس لا يعلمون رضى أمير المؤمنين عنه ان لم يخلع عليه » . فأمر بالخلع عليه فقال : « يا أمير المؤمنين قد استحق هو وأصحابه رزق ستة أشهر لا بد أن ينالوها ، وان أمرت لهم بها فى هذا الوقت قامت مقام الصلة » . فقال : « قد أمرت بها » . فخرج خالد وعليه الخلع والمال بين يديه وكان الناس فى الطرق ينتظرون الايقاع به فصاح به رجل : « الحمد لله على خلاصك يا سيد العرب » . فقال له : « اسكت ، سيد العرب والله احمد بن ابى دؤاد »

ولم يكن نفوذ ابن ابى دؤاد خافيا على ضرغام ؛ فلما دخل على المعتصم وهو عنده علم أنه دعى لأمر ذى بال ، فلما اقبل على الخليفة حياه بتحية الخلافة قائلا : « السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته »

فهش له المعتصم وناداه وامره بالجلوس بجانب ابن أبى دؤاد وهو يقول :

« مرحبا بالصاحب » . ثم التفت الي القاضي وقال : « اظنك تستغرب تسميتي هذا القائد بغير اسمه فاعلم اني عملت بحسن رايك فيه فقد طالما اثنيت على شهامته واخلاصه وقد رأيت منه فوق ما وصفت حتى عرض نفسه للموت لأجلي . انه انقذني من براثن الأسد ببسالته فقربته وسميته الصاحب وأسكنته بعض قصوري »

وكان ابن ابي داؤد في نحو الستين من عمره قد وخط الشيب لحيته وعارضيه ، فازداد اجلالا ووقارا وهو يلبس زى القضاة : العمامة الطويلة ، والطيلسان الرقيق ، فلما سمع اطراء المعتصم وترحيبه بضرغام هش له وحياه ، والتفت الى المعتصم فقال : « الا يرى امير المؤمنين حسن ظني في تخله ؟ ... اني انزلته من نفسي منزلا رفيعا يوم رايته ، وتوقعت له مستقبلا مجيدا . اعانه الله على خدمة امير المؤمنين »

فقال المعتصم : « وبناء على ذلك ارى الا نخفى عنه ما يدور بيننا »

وكان ضرغام جالسا متأدبا ينتظر امر الخليفة فقال الخليفة : « اعلم يا صاحب اني كنت والقاضي نتشاور فيما بلغنا من اخبار ذلك المجوسى في ارمينيا »

فأدرك ضرغام انه يعني بابك الخرمى القائم على الدولة في أردبيل ، وكان عالما بانتقاضه وبوقائع جرت بينه وبين جند المسلمين ولم يظفروا منه بطائل حتى استفحل امره فقال : « وهل احدث هذا الرجل حادثا جديدا ؟ »

فقال القاضي : « لا يخفى عليك ان بابك الخرمى تمرد على امير المؤمنين بارمينيا ، فرماه بالافشين ورجاله مرة ، وبغيرهم مرة اخرى ، والشقه بيننا وبين ارمينيا واسعة فكانت الحرب سجالا ولا يزال الرجل معتصما هناك وامير المؤمنين .. » . وسكت ونظر الى المعتصم فأتم هذا كلامه قائلا : « قلت لك يا صاحب اني لا اثق بالأفشين هذا ولا اعلم كيف أستغني عنه وقد رايته انت في بلاده بين أهله وعشيرته فكيف وجدته ؟ »

قال : « ان لهذا الرجل سطوة عظيمة في تلك البقاع ، فهم يعدونه ملكا كبيرا ويسمونه ملك الملوك وبعضهم يخاطبه باله الآلهة كما كانوا يفعلون قبل اسلامه ، ولعله الآن يستنكف من هذا . وقد رأيت يا أمير المؤمنين من سلطانه شيئا عظيما حتى يجتمع لندائه الوف الالوف من الرجال . واذا راى امير المؤمنين ان يخلعه فانه فاعل ما يشاء ، واذا شاء أن يرمى بى في مكانه بذلت دمي وروحي في خدمته . ولا أزعم اني أقدر من ذلك الرجل ولكنني طوع أمر أمير المؤمنين والنصر من عند الله يؤتيه من يشاء »

فقال القاضي للمعتصم : « ان الصاحب يبدى اخلاصه وتفانيه في خدمة الدولة ، ولكنه لو سئل عن عاقبة هذا التبديل لما جهل الخطر الذى يترتب عليه . لا ارى ان يعلم الأفشين أو احد من رجاله بما يجول بأذهاننا عنهم ،

واذا اذن أمير المؤمنين أبديت رأيا لعل فيه نفعا »

فقال : « قل ما بدا لك » . والتفت الى ضرغام وقال : « ان القاضي احمد يحل لدينا محل الوزراء والمشيرين ، فعندنا من الوزراء والخاصة غير واحد ولكنني لا أثق بأحد منهم وثوقي به . قل ايها القاضي »

فقال : « ان الافشين ملك فى بلده وعنده الجند والاعوان ، وقد رضي ان يخدم امير المؤمنين طمعا فى المـال . ويتحدث بعض النـاس بانه لا يخدم المسلمين الا لذلك ولو ترك لشأنه لانضم الى بابك وحاربنا . وهو اذا صح اسلامه فانه لا يزال حديثا فيه ، فاذا جافيناه انقلب علينا ، واذا اتحد مع بابك اصبحا خطرا علينا مما لا يخفي على امير المؤمنين . والذى اراه ان نظهر له ثقتنا باخلاصه ونشتريه بالمـال هو ورجاله ونضرب بهم ذلك المجوسي المتمرد فى ارمينيا ، فاذا غلبوه كفونا شره ، واذا اتضح لأمير المؤمنين بعد ذلك ان الأفشين خائن ، سهل علينا الاقتصاص منه اذ يكون وحيدا . واذا اخلص حقا نال ما يستحقه »

فلما سمع ضرغام كلام القاضي ادرك ان الرجل ينطق عن تعقل ودهاء ، ولو ترك هو لرايه لم يصل الى هذا الحكم لأنه من اهل الشجاعة وليس من اهل الراى ، ويندر اجتماع الشجاعة والراى فى واحد . ثم قال الخليفة : « ارى قاضي القضاة يغالي بقوة هذا الفارسي او الاشروسني ويخشاه ، وفاته من فى جنـدنا من القواد العظام وكل منهم يدفع عن دولتنا برجاله وعدته »

قال : « صدق أمير المؤمنين ، فعنده اشناس التركي وايتاخ وبغا وسما وغيرهم ، ولكن هؤلاء نشأوا من العامة ليس لأحـد منهم ما للأفشين من النفوذ فى نفوس الجنـد ، وقد سمعنا الآن بما لهذا الرجل من السـطوة فى قومه وهم الوف الألوف ، فاذا اغضبناه لا يقوم هؤلاء مقامه . ولولا تمرد بابك هذا لم نكن نخشى بأس الأفشين ولا سواه . وانت يا أمير المؤمنين شجاع باسل ايدك الله بالخلافة فلا ترى الالتجاء الى الحيلة او الصبر على المكاره ، ولكنا نعلم من الحديث المأثور عن الرسول صلى الله عليه وسلم انه قال : (الحرب خدعة) . فهذا رايي والأمر من قبل ومن بعد لأمير المؤمنين ، وأنا وسائر رجال الدولة رهن ما يريد ، نبذل دماءنا وارواحنا فى طاعته »

فالتفت المعتصم الى ضرغام كأنه يستطلعه رايه ، فقـال ضرغام : « انى لا ارى ردا على قول قاضي القضاة ، ولم اكن لأفطن لما فطن هو له من حسن السياسة ، وقدسمع امير المؤمنين جوابي فانى رجل سيف اصدع بالأمر ، فاذا رميت بى آذربيجان او تركستان او ارمينيا ركبت اليها ودمى على كفي ، ولكن الصواب فيما قاله قاضي القضاة والرأى الأعلى لأمير المؤمنين »

فقال المعتصم : « قد استشرتكما فى هذا الأمر لسببين : الأول أن طلائع

الافشين جاءت تبشر بقرب وصوله ، والثانى أن قد جاءنا جاسوس من ارمينيا بأن بابك اللعون قد استفحل امره وربما تحرك نحونا فلا ينبغى ان نمكث هنا فى انتظاره »

قال القاضي : « لا اظنه يجسر على القـدوم وانما هو يقنع بأن نتركه وشأنه ، وعلى كل حال ارى ان نحتفل بقدوم الأفشين ونبالغ فى اكرامه حتى نفرغ من حاجتنا اليه »

□

وفيما هم فى ذلك سمعوا صوت الأذان لصلاة العصر ، فتحفز الخليفة للقيام وصفق فجاء الحاجب فامره بأن يخبر صاحب وضوئه انه سيصلى العصر فى المسجد الكبير

فلم يبق لضرغام والقاضي بد من الذهاب الى الصلاة معه فى ذلك المسجد ، وكان المعتصم قد بناه وبالغ فى اتقانه على شكل لم يسبق له مثيل فى الاسلام ، فجعل جدرانه ومحرابه من مرايا حتى اذا وقف الخليفة للصـلاة رأى من يدخل المسجد من خلفه . وبنى له منارة عظيمة على شكل لولبى مكشوف يصعد اليها على درج لولبى من ظاهرها . ولعل ابن طولون بنى منارة جامعه فى مصر على مثـال تلك . وكان المعتصم كثيرا ما يصلى فى ذلك المسـجد لقربه من قصره . فلما تحفز للنهوض استأذن احمد وضرغام فى الانصراف وذهب كل منهما الى منزله حيث توضأ ويمم المسجد

دخل الخليفة أولا والناس وقوف للتبرك برؤيته ، وفيهم القواد والوزراء حتى اذا دخل المقصورة الخاصـة به دخل رجال الخاصة فى اثره ، وفيهم القاضي احمد ، ومحمد بن عبد الملك الزيات وزيره ، وقواده الاتراك الذين ذكرناهم . اما ضرغام فدخل حتى وقف فى جملة الحاشية وكانت المرايا فى الجدران على شكل غريب يرى الناس صورهم فيها كأن أمامهم مسجداً آخر فيه أناس يصلون ووقف ضرغام فى جملة الواقفين للصلاة

وبينما ضرغام واقف يصلى وعيناه على المرايا فى المحراب يرى النـاس يدخلون من الباب وراءه ممن يعرفهم ولا يعرفهم ، وقع بصره على رجل لم يكد يتثبته حتى اجفل ولم يتمالك أن التفت الى الوراء ليتحقق ظنه فاذا هو مصيب فى تخيله . وكان قد رأى بالمرآة صـورة سامان أخى جهان ، فاحتال فى التقهقر رويدا رويدا حتى دنا من الباب ورآه سامان يتقهقر فسبقه الى صحن المسجد ، فخرج ضرغام فى اثره وهو يحدق فيه ويكاد ينكره لما رأى فى حاله من التغير . فقد فارقه فى فرغانة وعليه لباس أهل الوجاهة مما يعوض عن قبح صورته بعض الشىء ، ولكنه رآه هذه الساعة فى

حالة يرثى لها من الضعف ورثاثة الثوب وقد ربط زنده وعصب رأسه ووقف ذليلا كئيبا ، فاثر منظره فيه وأخذته عليه الشفقة وخشي أن يكون قد اصاب جهان سوء فصاح به : « سامان ؟ » . قال : « نعم أنا سامان ياسيدى »

فقال : « ما بالك ؟ ماذا جرى لك ؟ أين جهان ؟ »

قال : « اذا أذنت لى فى خلوة قصصت عليك كل شىء ، فقد تعبت من البحث عنك فى سامرا ، وأخيرا اتيت المسجد لعلى اراك »

فأشار اليه أن يمشي وراءه فى صحن الجامع وقال : « يظهر انك سألت عني باسمي القديم (ضرغام) وانا اليوم لا يعرفنى احد بهذا الاسم ، وانما اسمي الصاحب . أين جهان وما لى اراك رث السربال على هذه الحال ؟ » . وكانا قد انتهيا من الصحن الى بناء مربع علي هيئة الكعبة . فرأى الصاحب أن يدخل اليه ليختلى بسامان اذ لم يبق له صبر حتى يصل الى المنزل فدخل وأشار اليه أن يجلس على دكة هناك وهو يقول : « أخبرنى اين جهان وماذا جرى لكم ؟ »

فجلس يتنهد ويتمسكن وقال : « أحمل اليك خبرا لا يسرك »

فاضطرب ضرغام وقال : « هل اصاب جهان سوء ؟ »

قال : « لم يصبها سوء ولكن . . » . وبلع ريقه

قال : « ولكن ماذا ؟ أين هى ؟ قل »

قال : « لا ادرى اين هى يا سيدى .. فقد خطفها منى اللصوص » . قال ذلك وتظاهر بالبكاء

فزار ضرغام كزار الأسد وحلق عينيه وقف شعر شاربيه وأصبح منظره مخيفا وقال : « اختطفوها ؟ من تجاسر على ذلك ؟ »

قال : « لا اعلم يا سيدى من أولئك اللئام الذين اختطفوها . ولكن تمهل قليلا حتى أقص عليك الخبر كما وقع » .

قال : « قل وأوجز »

قال : « فارقتنا يا مولاى وظللنا فى فرغانة بعد سفرك بضعة أيام ذقنا فيها الأمرين » . قال ذلك وارسل بصره الى صحن الجامع وخفض صوته كأنه يحاذر أن يسمعه احد . فلما تحقق خلو المكان من السامعين قال : « ان مصيبتنا أتت من اقرب الناس الينا . أتت من الرجل الذى أوصاه أبى بنا . فالأفشين لم يكتف بانه حرمنى من ميراث أبى حتى مد يده الى أختى ! »

فاقشعر جسد ضرغام من هذا التعبير مع ظنه أنه يعنى تعديه على حصتها من الميراث كما تعدى على حصة سامان ولم يخطر له شىء وراء ذلك فقال : « أظنه طمع فى ميراثها أيضا ؟ »

فتشاغل سامان بحك ذقنه الاجرود وتنحنح وظل ساكتا ، فارتاب ضرغام فى أمره فقال : « اليس الأمر كما أقول ؟ »

قال : « لو انه اكتفى بالارث لكان خيرا ، ولكنه طمع فيها هى نفسها . ويحزنني أن اغضبك بهذا الخبر ولكنه الواقع وعلى ان أصدقك . فانه طلب الاقتران بأختى على علمه انها مخطوبة للبطل ضرغام وانها يستحيل أن تقبل سواه »

فقال ضرغام وهو يرتعد : « ثم ماذا ؟ »

قال : « تداركنا الامر بالفرار ، ففررت أنا وجهان فى قافلة بما خف حمله من المال والمتاع ، ولم نخبر أحدا من اهل القصر الا القهرمانة خيزران ، فأخذناها معنا وركبنا مسرعين نقصد الى سامرا قبل أن يعلم الأفشين بنا ، فقطعنا البرارى والقفار ، وقاسينا عذابا شديدا من الحر والبرد والتعب حتى دخلنا خراسان ودنونا من همذان . وهناك فارقتنا القافلة وحسبنا اننا صرنا فى أمان ، فاعترضنا قوم من قطاع الطريق على خيولهم فدافعنا عن انفسنا دفاعا حسنا جهد طاقتنا حتى كلت يدى وجرح رأسى ، وكنت أتمنى لو اقتل وتبقى جهان سالمة ولكن .. »

فصاح به : « ولكن ماذا ؟ هل أصابها سوء . أليست حية ؟ »

قال : « هى حية يا سيدى ولكنهم خطفوها وذهبوا بها وبقهرمانتها ، وآخر ما سمعته منها قولها : « سلم على ضرغام واخبره بما جرى »

فتعاظم غضب ضرغام حتى غلى دمه واحمرت عيناه وقال : « ومن هم اولئك اللصوص ؟ الم تعرف أحدا منهم ؟ »

قال : « كلا فقد كانوا ملثمين ولم يفوهوا بكلمة ولا سمعنا لهم صوتا خوفا من انكشاف أمرهم »

□

واطرق ضرغام برهة كان فيها كالضائع يحسب نفسه فى حلم أو كأنه انتقل الى عالم آخر ، ثم انتبه لجلبة الناس أثناء خروجهم من المسجد وتذكر ان الخليفة معهم ، فخاف ان يراه مختبئا فيشك فى أمره فخرج واختلط برجال الدولة واشار الى سامان أن ينتظره فظل واقفا فى مكانه . وبعد قليل انفرج الوقوف وشقوا طريقا للخليفة ووقفوا للتحية فمر بهم المعتصم يتفرس فى وجوههم حتى وقع بصره على ضرغام فأشار اليه ان يتبعه ، فاستعاذ بالله وخاف ان يكون فى تلك الدعوة ما يحول دون البحث عن جهان . وتفرق الناس عن الخليفة رويدا رويدا حتى وصل الى القصر ولم يبق معه غير ضرغام ، فدخل وأشار اليه ان يلحقه ففعل حتى وصلوا

الى غرفة خاصة فالتفت الخليفة اليه وقال : « رايتك خرجت من المسجد قبل الفراغ من الصلاة »

فخجل ضرغام من هذا الاستفهام وقد فاته ان الخليفة يرى الخارجين والداخلين بالمرايا كما رأى هو سامان ، ولـكن رؤية سامان فجأة انسته نفسه وموقفه . فلما سأله الخليفة عن سبب خروجه أعتذر بقوله : « خرجت لمشاهدة رجل لم اكن انتظر رؤيتـــــه ويهمني أمره ، وكان ينبغي ان اتم الصلاة لاكون في معية امير المؤمنين ، فعفوا لمولاي واني اعد ملاحظته التفاتا كبيرا الى صنيعته »

قال : « اني كثير الاهتمام بشؤونك لانك صاحبي ، فارجو الا يكون عليك بأس مما رأيته أو سمعته »

فرأى ضرغام الفرصة مناسبة للاستئذان في الذهاب الى همذان فقال : « لا بأس على ما دمت في ظل مولاي أمير المؤمنين ، ولكن قوما من اهلي كانوا قادمين من فرغانة الى العراق فاصـــــابهم ما اخر وصولهم فبعثوا يستعينون بي على ذلك ، فهل يأذن مولاي بذهابي بضعة أيام ؟ »

فاطرق المعتصم ثم قال : « سر ولا تطل الغياب ، واذا رايت أن تستعين بجند أو بريد فافعل »

فانحنى ضرغام شاكرا واستأذن وعاد الى المسجد حيث ترك سامان ، وقد سره اهتمام المعتصم بأمره ولكنه ظل مضطرب البال لما سمعه عن جهان والافشين ، ولم يكن الافشين قد وصل الى سامرا بعد ، فرأى ضرغام المبادرة الى همذان فأمر باعداد أفراس البريد ينتقل بها هو وسامان ، وذهب لوداع أمه وذكر لها انه ذاهب في مهمة يعود منها بعد بضعة ايام ، فقبلته وودعته . فركب في ذلك المساء وقلبه يكاد يسبقه من شدة القلق الى همذان ، وكلما وصل الى محطة من محطات البريد لتبديل الركائب يسأل الناس هل سمعوا بلصوص يلجأون الى بعض الأماكن في تلك الناحية . وكان يواصل السير نهارا وليلا ولا ينام الا قليلا حتى دنوا من همذان وبجانبها جبل وعر وطريق البريد بجانب ذلك الجبل وفيه محطة لخيل البريد ، فلما وصل الى هناك سأل سامان : « الا تذكر المكان الذي وقع فيه الحادث ؟ »

قال : « وراء هذا الجبل على ما اظن »

وكان وصولهم الى الجبل عند الغروب وقد اعد له اصحاب البريد منزلا يبيت فيه ، ولكنه لم يستطع صبرا الى الغد . وكان في تلك المحطة غير واحد من السعاة والكوهبانية وأصحاب الأخبار التقوا هناك صدفة وكل منهم سائر في طريق ، وعلم صاحب تلك المحطة ان الصاحب من خاصـــة الخليفة وقدجاء للبحث عن شيء يهمه ؛ وأنبا الآخرين بذلك فأصبحوا يتوقون الى خدمته ، وسأل ضرغام صاحب المحطة : « هل انت هنا من زمن طويل؟ »

فقال : « من بضعة اسابيع ونحن اصحاب البريد نتنقل دائما ، فهل يأمر مولاى بخدمة نقوم بها ؟ »

قال : « شكرا لك ، هل سمعت بلصوص او قطاع طريق يعتصمون فى بعض هذه الأودية او الجبال او يمرون من هذه الأمكنة ؟ »

قال : « قلما نسمع بشيء من هذا ، ولكنى علمت بالأمس ان جماعة من قطاع الطريق معتصمون وراء هذا الجبل ولم يصل خبرهم الى الحكومة بعد على ما اظن »

فلما سمع ضرغام كلامه قال له : « ارسل معى رجلا يهديني الى مكان اولئك اللصوص » . ومشى

فاعجب الرجل بشجاعته ومبادرته الى الذهاب وحده فقال : « الا ترى يا سيدى ان نرسل احدا للبحث عنهم وتمكث أنت هنا ؟

قال : « كلا ، يكفى أن ترسل معنا رجلا يدلنا على الطريق »... ومشى وسيفه الى جانبه وقد التف بعباءته والكوفية حول رأسه ، وتبعه سامان ورجل من حراس تلك المحطة ، ســـار امامهما فى شعاب وعرة وقد غابت الشمس واخذ الظلام يتكاثف ، وضرغام مطرق لا يلتفت ولا يتكلم ، حتى انتهوا الى منعطف فى ذلك الجبل فوقف الدليل واشار بيده الى نور ضعيف على اكمة امامهم وقال : « هذا مقر القوم يا سيدى ، واخاف ان يبطشوا بنا »

المعتصم والعرب

أظهر سامان أنه يود الذهاب مع ضرغام ، ولكن هـذا أبقاه هناك ومشى وحده يتعثر بالحصى ويسمع لوقوع نساله قرقعة كأن غضبه أعماه عن الخطر الذي يهدده بالسير وحده ، ولكنه كان شديد الاعتداد بقوته كثير الاعتماد على بسالته · حتى اذا صار على مرمى سهم من مقر اللصوص ، رأى أشباحا تتراوح بينه وبين المصباح وسمع هرير الكلاب فلم يبال·ورآه القوم قادما وحده فلم يخطر لهم أنه عدو لعلمهم أن العدو لا يجسر على القدوم وحيـدا فتصدر واحد منهم وصاح : « من هذا ؟ »

فقال ضرغام : « قادم يبحث عن ضائع ·· أين كبيركم ؟ »

ومضت لحظة رأى في أثنائها القوم في حركة وتهامس ، ثم تقدم واحـد منهم وبيده قبس وقد تلثم بكوفية والتف بعباءة ، فتفرس ضرغام فيه فلم يعرفه ولكنه جعل يده على قبضة سيفه وهو يتحفز للوثوب أو الدفاع ولم يكد صاحب القبس يصـل الى ضرغام حتى قال له : « أهلا بضرغام ، أهلا بالصاحب »

فلما سمعه يناديه باسمه خفق قلبه واستأنس به ولكنه لم يعرفه فقال: « من أنت ؟ » .

وكان قد وصل اليه فأزاح اللثام وأدنى القبس من وجهه وقال : « ألم تعرفني ؟ »

فتفرس ضرغام فيه ولما عرفه صاح : «حماد ؟ ما الذي أتى بك الى هنا ؟·»

قال : « أتى بي الى هنا ظلم صاحبك · تفضل »·قال ذلك وصفر صفيرا أبطل نباح الكلاب ، وفرق الرجال الذين كانوا مجتمعين ومشى وهو قابض على يد ضرغام يرشده الى الطريق ، وضرغام يعجب لما يراه لأنه يعرف حمادا من وجوه رجال الدولة في سامرا ، وقد رآه فيها منذ أسابيع .وكان صديقا حميما له ، فتبعه مطمئنا حتى وصلا الى بناء قديم حجارته ضخمة وجدرانه مهدمة · ولو تفرس القادم فيما بقي من أنقاضـه على ضـوء القبس لرأى عليها نقوشا وصـورا من آثار قدامى الفرس ، ولـكن ضرغاما لم ينتبه الى شيء من ذلك · واذا بصاحبه قد أوصله الى غرفة ليس فيها شيء من الأثاث أو الرياش ، ولكنه شاهد في أرضها أكياسـا من الحبوب وصناديق فيهـا الآنية والمتاع كأنها أخذت من أصحابها التجار في تلك الساعة · فأشـار

حماد الى ضرغام فجلس على صندوق وجلس هو على صـــندوق آخر وقال . « أظنك تعجب لما تراه ؟ »

فقال : « كيف لا أعجب وقد بلغني عن هـذا المكان أنه مأوى اللصوص وأراك فيه كواحد من أهله »

قال : « بل أنا زعيم أصحابه · ولم أكن لأكاشفك بذلك وأدخلك هـذا المكان لولا ثقتي بك ولتعلم مغبة ظلم صاحبك »

قال : « أتعنى أمير المؤمنين ؟ »

قال « بل أعنى أمير الأتراك والفراغنة ، واذا أحرجـــتني قلت انه أمير الكافرين مثل أخيه المأمون »

فشغل ضرغام بهذا الأمر الغريب عن الغرض الذى جاء من أجله فقال : « انى لا أرى مسوغا لهذه النقمة ، ولولا ما تعلمه من حبى لك ما صبرت على ما أسمعه منك ، ولكننى أذكر صداقتك وأحب أن تصرح لى بما يكنه ضميرك عساى أن أذهب ما فى نفسك من الغل على الخليفة ، ونحن فى حاجة الى رأيك وسيفك وأعداؤنا كثيرون فلا ينبغى أن نتفرق »

فاعتدل حماد فى مجلسه وبان الاهتمام فى وجهه وقال : « لا ألومك عـلى دفاعك عن المعتصم لأنه صديق الأتراك والفراغنة ، وقد عادى أهله وعشيرته من أجلهم · وأنت الآن صـــاحبه ومن أقرب المقربين اليه · لا أقول انك لا تستحق ذلك بل أنت أهل لأكثر منه ، ولكنك لو كنت فى مكاننا نحن العرب لما قبلت ما يأتيه هذا الرجل من المظالم · لم يكفه أنه صـــادرنا فى ديننا وجلد الامام أحمد بن حنبل الرجل التقى البار حتى غاب عن رشـــده وسال دمه وتقطع جلده ثم قيده وحبسه واضـــطهد كل من لم يقل بخلق القرآن ، لم يكفه ذلك حتى قطع العطاء عن العرب كافة ، ومنع المسلمين من رواتبهم ولم يفعل ذلك أحد قبله · ولا أذكرك بما كان للعرب من العز والسؤدد فى عهد الراشدين والأمويين يوم كان الفرس والترك وسائر الأعاجم يعدون من العبيد أو الموالى ، ولا يستنكفون ان يكون العرب ســـادتهم بل كانوا يتشرفون بالانتماء اليهم · وانما أذكرك بما كان لهم من الزعامة فى صدر الدولة العباسية مع أنها قامت بسيوف الفرس · حتى المأمون الذى حارب العرب وحاربوه لم ينقص شيئا من أعطياتهم كما فعل المعتصم هذا ، مع أن المأمون كان معتزليا مثله يقول بخلق القرآن ويضطهد الأئمة القائلين بقدمه ، ولكنه كان يعلم ان العرب مادة الاسلام وأصل هـذه الدولة وروح هـــذه الأمة · أما صاحبك فقد قطع العطاء عن كل عربى ، ولم يفعل ذلك عن فقر أو جدب فانه ينفق الأموال الطائلة فى اصطناع الأتراك والأشروســـنية والفراغنة وقد بنى لهم سامرا وأحضر لهم النساء والجوارى وأسال النضار فى خزائنهم · ولو كنت أنت اعرابيا ما صبرت على ذلك »

فلم ير ضرغام حجة يدفع بها قول حماد . لعلمه أنه بقول الحق ، ولكن غيرته على المعتصم واخلاصه في خدمته حملاه على انتحال الأعذار فقال : « لا أنكر عليك ما ذكرته من مواضع النقد على أمير المؤمنين . ولكنك حملت ذلك منه على سوء القصد فهو قطع العطاء عن بعض العرب بعد أن تحقق عداوتهم للدولة ، ومنهم من حاربه وجرد الجيش عليه . أما الذين يخلصون في خدمته فيبالغ في تقريبهم والانعام عليهم. هذا القاضي أحمد بن أبي داؤد لا أزيدك علما بمنزلته عند الخليفة وهو عربي . وأنت ؟ ألم تكن مقربا ولك منصب رفيع ؟ »

فهز حماد رأسه وقال : « أراك تحسن الدفاع عن صديقك الخليفة ، وقد أتيت بالقاضي أحمد شاهدا وهو عربي من بين ألوف قد لحقهم الذل والعار والفقر . أما أنا فقد كان لي منصب وبئس المنصب لو بقي . جعلني سادن الكعبة التي أنشأها في سامرا ليحول المسلمين عن كعبة مكة ويذهب بما بقي للعرب من مصادر الرزق حتى يميت عرب الحجاز لانهم يرتزقون من الحجاج فأنشأ الكعبة في سامرا ليغني المسلمين عن الحجاز .. »

فقطع ضرغام كلامه قائلا : « ولكنه ليس أول من فعل ذلك من الخلفاء أو الأمراء فقد حاول ذلك الحجاج والمنصور ولم يفلحا »

فقال : « وهذا لن يفلح أيضا لأن بيت الله في مكة فلا يقدر أن يجعله في سامرا »

ورأى ضرغام أن الحديث قد طال فيما لا يهمه بقدر ما يهمه الأمر الذي جاء لأجله ، فأراد أن يختصر الكلام فقال : «ومع ذلك لا أجد فيما ذكرته مسوغا يجيز لك اللصوصية »

فقال : « لا تقل اللصوصية . اننا لم نرتكب شيئا من ذلك على الاطلاق»

فتضاحك ضرغام وهز رأسه استخفافا بدفاع حماد . فابتدره هذا قائلا « لا تضحك يا صديقي . اننا لا نسرق وما نحن لصوص وانما نحن نستولى على حقوقنا بأيدينا ».

فاستغرب قوله ونظر اليه وتطاول بعنقه نحوه كأنه يستفهمه فقال حماد: « ان هذه الأموال التي تجدها ملقاة هنا انما هي حق الفقراء وأبناء السبيل بأمر الله تعالى في كتابه . وهي عشور الأموال أو أخماس الفيء ، فهذه كان الخلفاء في صدر الاسلام يأخذونها من أصحاب الأموال والتجار ويفرقونها صدقة أو عطاء . وقد قطع المعتصم هذه الأعطيات ، فهل يموت المسلمون جوعا لأنهم عرب ؟ . فنحن انما نستولى على حقوق الفقراء بالقوة لأن الامام أراد ضياعها ! »

فتعجب ضرغام لقوة تلك الحجة ولكنه أراد وقف الجدال فقال : « مالنا وذاك . فقد علمت انك كنت في ســامرا من عهد قريب ولم يقطع الخليفة عطاءك فما الذي حملك على الخروج ؟ »

فوقف حماد وتنهد وتغيرت سحنته من الغضب الى الكآبة ونظر الى ضرغام وقال : « ان ما حملني على هذا الخروج وأثار في هذه الضغائن أمر أصاب مني مقتلا . أصاب قلبي فأذهب رشدي فأنا ناقم على الرجل الظالم ما دمت حيا » . قال ذلك وقد تصبب العرق من جبينه . فازداد ضرغام رغبة في كشف خبره وتوسم من عبارته انه يشكو من حبيب فارقه فقال : « وما ذاك يا أخي ؟ . قل واوجز فاني أتيتك لأمر يهمني كثيرا فشغلتني بأمورك »

قال : « مهما يكن من أمرك فلست بالغا أمري . أحببت جارية لبعض البغداديين وأحبتني ، فلما أقدمت على الزواج بها ، تصــدى لي رجل من خاصة المعتصم اسمه الحارث السمرقندي أظنك تعرفه وطلبها لنفسه وأخذها مني عنوة . فشــكوت أمري الى الخليفة على يد القاضي احمد الذي دكرته فأجابني بقوله : (ابحث عن جارية أخرى فان هذه لا تكون لك) . مع علمه بأنها تحبني حبا شديدا » . ثم تنهد وقال : « آه يا ياقوتة »

فقال ضرغام : « هل اسمها ياقوتة ؟ »

قال : « نعم هـذا اسمها . فهب اني أغضيت عن كل السيئات التي ذكرتها فهل أقدر أن أغضي عن هذه ؟ اني والله ناقم على الخليفة ودولتـه ، وما خرجت لأكون لصا وانما خرجت لأنتقم من هذه الدولة ما وجـدت الى ذلك سبيلا ، وأعداؤها كثيرون »

فتأثر ضرغام من حكاية ياقوتة لأنه واقع في مثلهـا . والانســان انما يشارك الناس في المصائب التي أصيب بمثلها أو يخشى أن يصـاب بها . فالأعزب لا يشعر بمصاب الآباء بفقد أبنـائهم كما يشعر من تزوج وله ولد ، ولا يشارك المحب في شـعوره الا الذي جرب الهوى . فقال ضرغام لحماد : « هون عليك ولعلي أنفعك في شيء من شكواك . وقد آن لي أن أسألك عن الأمر الذي جئت في هذا الليل لأجله فأعرني سمعك واعلم أني أول من يشاركك احساسك لأني واقع في مثل ما أنت فيه »

فقال حماد : « قل أيها البطل فاني سامع »

قال : « لي خطيبة كانت في فرغانة وأنا في سامرا ، فركبت مـع أخيها وجاريتها ، فلما وصلوا الى همذان هجم عليهم اللصوص واختطفوا الفتـاة وجاريتها وجاء الى أخوها بالخبر فأسرعت للبحث عن الجناة فأنبأني صاحب البريد عن هذا المكان فأتيت فما قولك ؟ »

قال : « أما نحن فلا نختطف نساء وقد أخبرتك بما نفعله ، وأنا عـلى يقين انه ليس في هذا الجوار لصوص أو قاطعو طريق »

قال : « ولكن أخا الفتاة شهد الوقعة وهو الذى نجا من المعركةوأخبرني»

فهز رأسه هزة الانكار وقال : « نحن هنا منذ أسـابيع ، ولم نسـمع بحدوث شيء من ذلك وأظن الراوى كاذبا »

فانتبه ضرغام الى ما يعلمه من سوء نية ساماں من يوم عرفه فقال « ان الراوى واقف في مدخل هذه الشعب ، وسأستقدمه اليك لتسأله »

فأشار حماد الى بعض رجاله أن ينادى الرجل الواقف هناك فذهب وعاد يقول انه لم يجد أحدا · فذهب ضرغام بنفسـه فلم يجد سامان . وسأل الدليل عنه فقال انه مضى الى حيث لا يعلم · فبعث فى البحث عنه فلم يقف له على أثر ، فرجح لديه أن في الأمر سرا غامضا وأن الرجل قد يكون كاذبا فيما رواه حتى عن الافشين ، فقلت ثقته بما رواه عن جهان ، ولم ير بدا من الرجوع الى سامرا ، فاستأنف الكلام مع صديقه ونصح له أن يرجع معه فلم يرض وقال : « لا أرى في رجوعى فائدة ولو اقتصر ظلم صاحبك عـلى خسارة المال لتحملته ولكنه طعننى فيقلبى وأنت تقدر شعورى،فلا تلمنى »

فتذكر ضرغام مصيبته وتصـور نقمته على خاطف حبيبته فعذره وقال : « صدقت انى معك فيما ذكرت ، ولو علمت أن الخليفة صادرنى فى خطيبتى لنقمت عليه مثل نقمتك وأشد منها ، فافعل ما بدا لك·وعلى كل حال أرجو أن تذكرنى ولك منى مثل ذلك » · وأطرق قليـلا ثم قال : « واذا حـدث ما يدعو الى الاتصال بك أو المجىء اليك فهل أجدك هنا ؟ »

فأجاب : « لا أعلم أينيكون مقرى بعد الليلة ، وما قيامى هنا الا الى أجل موقوت · وأنا اذا وفقت الى أمر يسرك وأردت أن أراك فأين تكون ؟ »

قال : « في سامرا »

ودع ضرغام صاحبه وهو يفكر فيما سمعه ، وصـورة جهان لا تذهب من مخيلته ، لأنه في المكان الذى قيل له انها أخذت فيه والليل مظلم مثـل ظلام الليلة التى خطفت فيها ، فتصور حالها وهم يقبضـون عليها وتوهم انه يسمعها تستغيث به وتناديه باسمه فاقشعر بدنه وحرق أسـنانه ، وقضى فى تلك الهواجس مدة وهو يتلمس ذلك الطريق الوعر على هـدى الدليل يسير بين يديه حتى أدرك محطة البريد فركب وعاد الى سـامرا · وطريق البيت فى الرجـوع اليه أقصر منها فى الخروج منه ولـكن ضرغاما اسـتطال الطريق واستبطأ وصـوله لشدة رغبته فى ملاقاة وردان لكى يستشيره فى الأمر وقد تعود ذكاءه وصدق فراسته.

وأشرف ضرغام أو الصـاحب على سـامرا نحو الغروب والشمس تقابله

وقد صعف نورها وتبددت أشعتها واحمر لونها وتكور شكلها وتعاظم حرمها فظهرت كأنها كرة من نار سابحة في ضباب من دم · ونظر الى أبنية سامرا وأعظمها قصر الخليفة والمسجد الأعظم ومنارته تناطح السحاب · ويخترق المدينة من الشمال الى الجنوب نهر دجلة وعلى ضفافه أشجار النخيل واقفة وقوف الجند يحملون سهامهم في عمائمهم · فشغله منظر الطبيعة عما في نفسه فأحس بارتياح فوقف هنيهة والبريدي على بغلته الى جانبه لم يدهشه ذلك المنظر لأنه تعوده والنفس يختلف تأثرها بمناظر الطبيعة باختلاف حالها · والمحبون أكثر الناس مشاركة للطبيعة في أحوالها

وأحس ضرغام بميل الى الانفراد هناك ، فأشار الى البريدي أن يسبقه الى سامرا فأطاع ، وبقي ضرغام وحده يراقب الشمس ساعة الغروب وهي تتراءى لعينيه من وراء جذوع النخل عن بعد ، بألوانها القزحية وان غلب عليها لون الأرجوان · حتى اذا أدركت حافتها الأفق استطالت تلك الحافة الى شبه خرطوم نزل وراء الأفق وهبطت في أثره الهويناء وقد أخذت الظلال تستطيل وتنتشر حتى توارت الشمس وخلفت مكانها أفقا أخذ احمراره في الاكفهرار شيئا فشيئا ، من الدموي الى الارجواني فالبنفسجي فالأزرق على اختلاف ألوانه ، حتى استحالت الظلال الى ظلام · فأحس ضرغام بانقباض نبهه الى المسير فوخز الفرس وخزا خفيفا فمشى مشيا بطيئا حتى تخلل مغارس المدينة من طرفها الأسفل ، وتراءى له دجلة في مكان لا يغشاه النخيل فيممه على أن يسير على ضفته الى الجوسق

وكان الجو هادئا فلما دنا من دجلة عاد الى تخيله فلج في تيار فكره والجواد يسير على ضفة النهر من تلقاء نفسه · وقد هب النسيم عليلا وسكنت الطبيعة فلم يعد يسمع الا حفيف الورق ووقع حوافر الفرس · ولم يكن ضرغام يسمع شيئا لذهوله ، واذا بجلبة فاجأته من ورائه وسمع صوتا وقع وقوع السهم في قلبه وأجفله لأنه صوت امرأة تستغيث قائلة : «خافوا من الله ·· اتركوني ·· يا ناس ·· اتركوني ·· » · ثم اختنق الصوت · فارتعدت فرائص ضرغام لأن الصوت كثير الشبه بصوت جهان ، وتذكر ما أصابها من اللصوص ، وتصور أنها استغاثت بمثل هذا الكلام ولم ينجدها أحد فصمم على نجدة هذه المستغيثة لعل الله يوفق جهان الى منجد ينقذها · وسرعان ما ترجل عن جواده وركض الى جهة الصوت شاهرا في يده حسامه وهو يقول : « لبيك لبيك · اتركوها أيها اللئام »

قال ذلك وهو لا يرى أحدا لشدة الظلام فخاف أن تكون قد خدعته أوهامه وأن ما سمعه هاتف يمثل له جهان · لكنه ما عتم أن سمع الصوت يقترب منه ورأى شبح امرأة تعدو من ضفة النهر باسطة يديها اليه وتصيح: « بالله اغثني أشفق على حياتي » · ورأى رجلين يجريان في أثرها وقد شهر أحدهما السيف ويقول : « الى أين تهربين يا خائنة · سأقتلك لا محالة »

فصاح ضرغام : « دعها يا رجل والا ضربت عنقك ».

فلم يبال الرجل وظل مسرعا حتى كاد يدرك المرأة وكانت قد وصلت الى ضرغام وترامت على قدميه . فلما رآه ضرغام هاجما والسيف بيده تناوله بضربة أطارت رأسه فوقع مجندلا بدمه ، وهجم على رفيقه وهم بأن يضربه فرآه أعزل فأمسك وصاح فيه : « من أنتم ؟ ». فقال : « مالك ولنا ؟ ليس هذا من شأنك . دع الجارية وامض في سبيلك وسترى عاقبة أمرك »

قال : « قف حيث أنت والا قتلتك . أو قل لى من أنت وما خبر هـذه الفتاة ؟ »

قال : « انها جارية هربت من بيت مولاها فبعثنا للبحث عنها فأدركناها هنا وأبت الرجوع فهددها رفيقي تخويفا لها ، ولولاك لرجعت صـاغرة ولكنها سببت قتل رفيقي . وسوف تعلم مصيرك »

فلما سمعت الجارية كلامه وكانت مستلقية على العشب من التعب نهضت وصاحت : « كذبتم أيها الغادرون ليس الأمر كذلك »

فلما سمع كلامها شبه له صوت جهان واختلج قلبه في صدره واستبعد أن تكون هى نفسها اذ لو كانت هي لعرفت صوته فقال للرجل : « قل الحق ولا تخوفني بأحد والا ألحقتك برفيقك »

قال : « لا تغتر بما سمعته ، ان هذه الجارية هاربة من بيت الخليفة فمن يجسر على حمايتها ؟ »

قال : « أنا أجسر ، دعها وسر في طريقك »

فصاح الرجل : « من أنت حتى تجسر على ذلك ؟ »

فحول ضرغام وجهه عنه وأمسك الفتاة بيدها ومشي وهو يقول : « قل للخليفة أو لسواه ممن يدعى السيادة على هذه الفتاة انها في حماية الصاحب»

فلما سمع الرجـل اسـمه تراجع وبهت كأنه صعق ثم قال : « عفوك يا مولاى عن جرأتي اذ لم أكن أعلم أن مولانا الصـاحب يخاطبنى » . قال ذلك وقفل راجعا

أما ضرغام فترك يد الفتاة ومشى الى جواده وكان لا يزال واقفا فى مكانه فقاده بلجامه وسار وقال للجارية : « امشى يا بنية لا تخافى . وأخبرينى عن حقيقة أمرك فقد سلمت الآن من الخطر »

فقالت وصوتها يختنق : « أشكر الله اذ أرسلك لانقاذى ، ولولاك لذهبت ضحية الظلم »

فأطربه صوتها وأحب أن ينظر الى وجهها وقلقه على جهان يوهمه أنها قد تكون هي بعينها ولكن الظـلام كان يحـول دون ذلك فقال لها : « قولى ما خبرك ؟ »

قالت : « كنت جارية لبعض الناس وأعتقني سيدي لوجه الله ، فطلبني شاب عرفني وعرفته وتحاببنا وتواعدنا على الزواج ، ثم رآني رجل من بطانة أمير المؤمنين يقال له الحارث السمرقندي . فتقرب الى وخطبني لنفسه فأبيت عليه ذلك »

لما سمع ضرغام اسم الحارث ذكر ما سمعه من حماد فقال : « وما اسم خطيبك ؟ » . قالت : « حماد »

قال : « فأنت اذن ياقوتة ؟! »

فلما سمعته يذكر اسمها دهشت وتلعثم لسانها وقالت : « كيف عرفت ذلك يا مولاى ؟ هل تعرف حمادا . أين هو ؟ »

قال : « عرفته ولكن لا سبيل اليه الآن . وسأقص عليك خبره فيما بعد ، فأتمي حديثك »

فلم تعد تعرف كيف تتكلم لشدة فرحها فقالت : « فلما أبيت على الحارث ما أراد وسط القاضي أحمد لدى أمير المؤمنين ، فطلب الخليفة أن يراني ، فلما مثلت بين يديه نظر الى طويلا ثم أودع أذن القاضي كلاما وأمرني أن أبقى عند الحارث بلا زواج حتى يبدي رأيه في . فأخذني الحارث الى منزله وحبسني وأخذ يحاول اقناعي بأن أقترن به ، تارة بالحسني وطورا بالتهديد ، حتى جاءني منذ بضعة أسابيع وهو يهزأ بي ويقول : (ان خطيبك غادر سامرا) فلم أصدقه وعزمت على الفرار الى حماد وهو على مقربة من قصر الخليفة ، فأدركني هذان الرجلان وهما من أعوان الحارث وأرادا ارجاعي ، ولما رفضت الرجوع هدداني فصحت الصيحة التي سمعتها وجئت لانقاذي جزاك الله عني خيرا »

فلما فرغت من حديثها سره أنه أنقذها اكراما لصديقه ، ولكنه تذكر أن حمادا برح همذان في الليلة التي فارقه فيها ولا يعرف مقره فظل ساكتا وهو يفكر في ذلك وصورة جهان أمام عينيه وهو يناجي نفسه : « هل يتاح لجهان من ينقذها يا ترى كما أنقذت أنا هذه الفتاة ؟ » . ظل برهة يفكر في ذلك وياقوتة ماشية الى جانبه وقلبها يخفق سرورا وقلقا وهي تتوقع أن تسمع منه ما يعلمه عن حبيبها ، فلما استبطأته قالت : « وعدتني يا مولاى أن تخبرني عن حماد . هل خرج من سامرا ؟ »

قال : « نعم خرج منها كما قال لك الحارث »

قالت : « وأين هو ؟ » . قال : « لا أدرى . وقد لقيته منذ بضعة أيام في مكان خارج بغداد وأخبرني أنه مسافر الى حيث لا يعلم ، وقد قص على غضبه من الحارث والخليفة من أجلك . كوني على ثقة أنه شديد المحافظة على ودك »

فلطمت خـــدها بكفها وقالت : « ويلاه وأين أذهب وأين أبيت وكيف أعرف مقره ؟ »

فقال : «لا بأس عليك، انك تمكثين في منزلى مع أمي حتى يأتى الله بالفرج، فاني على موعد مع حماد أن يكتب الى عند الحاجة لأنه صديقى »

فقالت : « جزاك الله خيرا يا سيدى ولكن .. »

قال : « لا تخافي يا أخية انما تكونين مع أمي فى خير وأمان لا يمسك أحد بسـوء ، ان أمي وحيـدة فى البيت ولا ريب انها تتخذك ابنة لها وتستأنس بك كثيرا »

وانتبهت ياقوتة في تلك اللحظة الى أنها عـلى مقربة من الجوسق فوقفت وقالت : « أراني بجانب قصر الخليفة ؟ »

قال : « انى أقيم بقصر داخل هذا الجوسق »

فتراجعت وقالت : « أكون اذن في خطر اذا عرف الخليفة بأمرى ؟ »

قال : « كوني مطمئنة . انك في مأمن عندي » . وكانا قد وصلا الى باب الجوسق فلما رأى الحراس ضرغاما وسعوا له وتقدم أحـدهم فأخذ الجواد الى الاسطبل ، وسار ضرغام مع ياقوتة حتى أتى منزله ، فلما رآه الخـدم أسرع بعضهم الى أمه فبشروها وأناروا الشموع ، فدخـل والفتاة في أثره حتى توسط الدار وأول شيء فعله أنه تفرس في الفتـاة على نور الشموع وحالما وقع بصره عليها خفق قلبه وبدت البغتة في وجهه لشدة المشـابهة بينها وبين جهان ، فقال في نفسه : « سبحان الخالق ما هذه الصـدفة ؟ وأحس بارتياح الى الفتاة ، وأعجبه ما قرأه في محيـاها من الهيبة والجمال رغم ما كان يغشاها من الاضطراب . ويكفي لارتياحه اليها مشابهتها حبيبته بالوجه والصوت . وزاده استئناسا بها ما قاساه في سبيل انقاذها . والمرء بفطرته يحب الذين يشقى في سـبيل راحتهم ، ولذلك كان الرجل أكثر انعطافا الى أشد أولاده حاجة اليه . وكلما تعب الوالد في سبيل ابنه ازداد تعلقا به . ولو لم يكن قلب ضرغام مشتغلا بجهان لتعلق بياقوته

أما آفتاب فكانت قد تهيأت لاسـتقبال ابنها فلما سمعت وقع خطواته اسرعت اليه وقبلته . ثم شعرت بحركة في الدار فقالت : « من رفيقك ؟ »

قال : « بل هى رفيقة لك »

فظنت أنه جاءها بجهان فتوجهت ببصرها نحو الحركة التى كانت تسمعها كأنها تستقبل الضيفة وصاحت : « هل هي جهان ؟ »

فوقع قولها وقعا شديدا على قلب ضرغام فتح جراحه فتنهد وقال : «كلا يا أماه ولكنها عزيزة على لأنها خطيبة بعض أصدقائى »

ودنت الفتاة من آفتاب وهمت بتقبيل يدها فضمتها ورحبت بها وقالت: « ما اسمك يا حبيبتى »

قالت : « اسمي ياقوتة يا سيدتي »

فلما سمعت صوتها دهشت وبان الاستغراب حول مبسمها وفي اختلاج عينيها البيضاوين وقالت : « سبحان الله كأني أعرف هذا الصوت ! »

فقال ضرغام : « أظنك تعنين صوت جهان فانه كثير الشبه به وقد لحظت ذلك منذ سمعتها تتكلم للمرة الأولى »

فسكتت آفتاب ولم تجبه ، وأخذت الفتاة بيدها وأجلستها الى جانبها وجعلت تضمها وترحب بها والتفتت الى ضرغام وقالت : « كيف لقيت هذه الياقوتة ، وأين كانت ؟ »

فقال : «اتفق لي وأنا عائد من المهمة التي أخبرتك عنها أني مررت بأسفل المدينة ، فسمعت الفتاة تستغيث من رجلين كانا يحاولان أخذها الى رجل يريد أن يتزوجها رغم ارادتها ، فأنقذتها منهما وجئت بها »

قالت : « ومن هو ذلك الرجل ؟ »

قال : « يقال له الحارث السمرقندي من أعوان أمير المؤمنين »

قالت : « ولماذا لم تقبله فانه ذو جاه ومال »

قال : « لأنها أحبت رجلا اسمه حماد العربي ، ألا تعرفينه ؟ »

قالت : « أظنني سمعت صوته مرة وقد جاء معك · أين هو الآن ؟ »

قال : « غائب ، وستبقى ياقوتة هنا حتى يعود · هل يسرك ذلك ؟ »

قالت : « يسرني كثيرا لأنها تكون تسليتي اذا خرجت أنت في مهمة · ولقد شعرت من هذه اللحظة كأني أعرفها منذ أعوام ، أهلا وسهلا بك يا حبيبتي »

□

وأمرت مسعودة فأخذتها لتبدل ثيابها وتصلح من شأنها ثم جيء لهم بالطعام فقال ضرغام لأمه : « ألم يأت وردان ؟ »

قالت : «جاء منذ بضعة أيام وسألني عنك فلم أقدر أن أخبره عن مكانك»

قال : « هل أخبرك بشيء عن الافشين ؟ »

قالت : « أخبرني أنه جاء وعسكر خارج سامرا على أن ينتقل بعد بضعة أيام الينا . وأظن أن وردان قد عاد اليه أو لعله يريد الذهاب اليه غدا أو بعد غد »

ولم يطيلوا السهرة التماسا للراحة · وأصبح ضرغام في اليوم التالي وقد عادت اليه هواجسه وأصبح شديد الاهتمام بلقاء وردان ليسأله عما سمعه من أصحاب الافشين عن جهان

وفي أصيل ذلك اليوم جاءه رسول الخليفة يطلب حضوره فلبس سواده

وقلنسوته وذهب اليه فى دار العامة ، فاستأذن ودخل فوجد القاضى أحمد فسلم ووقف فاستدناه اليه وأمره بالجلوس فجلس . فقال له الخليفة وهو يبش فى وجهه : « متى عدت من السفر ؟ »

قال : « أتيت مساء البارحة يا مولاى وكنت عازما على المثول بين يدى أمير المؤمنين قبل أن يأتينى رسوله »

قال : « من لقيت فى طريقك ؟ »

ففطن الى أنه يشير الى ياقوتة ، لعلمه ان الحارث لابد من أن يشكوه فقال: « لقيت فتاة بين يدى رجلين يعذبانها »

قال : « وهل أنقذتها كعهدك ؟ بارك الله فيك »

فعلم ان الخليفة يشير الى فضله عليه فى انقاذه من مخالب الأسد ، فخجل وتجاهل وقال : « لم أتمالك يا أمير المؤمنين عن انقاذها ، ثم علمت انها تنتمى الى بعض رجال الدولة فحملت تبعة عملى طمعا فى حلم أمير المؤمنين وهو ذنب أستغفر له »

فضحك المعتصم وقال : « لقد اصطدت حلالا أنت أولى الناس باحرازه ، كيف رأيت الفتاة أهى جميلة ؟ »

قال : « لا بأس بها يا مولاى » . قال : « قد وجب عليك اقرارك »

فلم يفهم ضرغام قصده فابتدره القاضى : « أتذكر أن أمير المؤمنين خطب لك جارية ؟ » . قال : « نعم »

قال : «هذه هى الفتاة بعينها ». فاستغرب ضرغام ذلك الاتفاق الغريب، وتحير فى الجواب فقال القاضى : « ان أمير المؤمنين رأى هذه الفتاة للمرة الأولى منذ أسابيع وقد جاء بها الحارث يخطبها لنفسه ، وكان رجل آخر يدعى أنها له ، وكنت حاضرا فقال لى أمير المؤمنين : (انها تصلح للصاحب). وأمر الحارث أن يحتفظ بها حتى يطلبها . وفى هذا الصباح جاء الحارث يشكوك لأنك خطفت ياقوتة منه فقال له : (انها للصاحب ولا سبيل لك اليها) . فخرج مفحما ، ولذلك قال مولانا انك اصطدت صيدا حلالا ووجب اقرارك عليك »

فلم يسع ضرغام الا الدعاء للمعتصم على التفاته اليه وقال : « ان أمير المؤمنين يتصرف بعبيده ومواليه كما يشاء »

فقال المعتصم : « أحرزت أجمل نساء سامرا بارك الله لك فيها »

ثم صفق فجاء الحاجب فأشار اليه اشارة فهمها وخرج ثم عاد غلام يحمل طبقا عليه عقد من الجوهر يتلألأ كالشمس فأشار الخليفة الى الغلام أن يقدمه الى الصاحب فقدمه فبهر ضرغام من لمعان ذلك العقد ووقف احتراما فابتدره المعتصم قائلا : « هذا عقد تلبسه ياقوتة وتتحلى به »

فانحنى ضرغام احتراما وامتنانا وقال : «قد غمرني أمير المؤمنين بانعامه» قال : « انك أهل لأكثر من ذلك »

فتناول ضرغام العقد ولفه بمنديله وكرر الدعاء · ثم استأذن وخرج فقصد الى منزله والهواجس تتقاذفه . على أن أمر الزواج بياقوتة لم يزده قلقا لأنه رأى استبقاءها في بيته حتى يجد خطيبها فيجمعه بها دون أن يعلم الخليفة هل تزوجها أم لا · فوصل الى المنزل ولقي أمه فسألته وياقوتة جالسة عن سبب ذهابه الى الخليفة فقال : « دعاني لأمر يتعلق بياقوتة »

فأجفلت ياقوتة لأنها كانت تخاف وشاية الحارث ، لكنها اطمأنت لما رأته يبتسم ونظرت اليه مستعطفة ، ثم سألته أمه عما جرى فقال : «شكانا السمرقندى الى أمير المؤمنين فأرجعه خائبا ، وأوصاني بياقوتة خيرا »

فانشرح صدر الفتاة وازدادت اعجابا بضرغام وسمو منزلته عند الخليفة ونفوذ كلمته في الدولة وأعجبت بهيبته وجلال طلعته·والاعجاب اذا اقترن بالألفة وبالعادة تحول الى غرام ، ولكن ياقوتة كانت مشتغلة القلب بحماد ورأت ضرغاما فوق ما ترجوه لنفسها · ولما سمعت قوله عن الخليفة توردت وجنتاها حياء ولم يمنعها الحياء عن الكلام لأنها كانت عاقلة رابطة الجأش فقالت : « أشكر لمولاى الصاحب فضله فقد أنقذنى من العار والموت ، ورفع منزلتي اذ جعلني تحت حمايته »

فمد ضرغام يده الى جيبه وأخرج العقد وقدمه اليها وقال : « هذه هدية أمير المؤمنين اليك »

فأصبحت ياقوتة لا تدرى كيف تعبر عن احساسها فتناولت العقد ودفعته الى آفتاب فأخذته وتلمست حباته وقالت : « يظهر انه عقد جدير بك » · وتقدمت نحوها وقلدتها اياه

كل ذلك لم يشغل ضرغاما عن قلقه وكل ما حدث في مساء الأمس وصباح اليوم يذكره بحبيبته وخاصة العقد لما لبسته ياقوتة فقال في نفسه : « لماذا لا تكون جهان هنا وتلبسه » · فلما تخيل ذلك اضطرب وترك الغرفة وخرج ليسأل الخدم عن وردان فلقيه داخلا وفي وجهه ذعر · ولما رأى ضرغاما حياه فقال ضرغام : « قد طال غيابك فما الذى أعاقك ؟ » · ثم مضى الى حجرة منعزلة جلسا فيها ، فقال وردان : « قد عاقنى تأخر الافشين عن الحضور لأنه لم يصل الى سامرا الا منذ بضعة أيام ، ولم أتمكن من اتمام مهمتي الا اليوم »

فقال : « وما الذى عرفته عن جهان ؟ »

فتوقف وردان لحظة ثم قال : « عرفت من صديق لى في حاشية الافشين لا تخفى عليه من أحواله خافية أن جهان خرجت من فرغانة قبل خروجهم منها »

قال ضرغام : « عرفت ذلك أثناء غيابك من سامان أخيها »

فتغير وجه وردان عند سماع اسم سامان وقال : « سامان هنا ؟ أين هو؟ أين هو ؟ . لأقبض روحه .. لعنه الله من منافق »

فاستغرب ضرغام غضبه وقال : « ولماذا تريد قتله ، ماذا فعل ؟ »

قال : « سأقص عليك فعله وانما أرجو أن تخبرني عما قصه هو عليك »

قال : « أخبرني أنه خرج من فرغانة مع أخته فراراً من الافشين ، فلقيهم اللصوص في همذان فأسروا جهان وقهرمانتها ونجا هو ليخبرنا »

قال : « فأنت عالم بما فعل اللصوص . بقي علي أن أخبرك عما فعله هذا اللعين اليوم . سرت أمس لاتمم مهمتي في البحث كما أمرتني ، فلم أستطع الا صباح اليوم اذ لقيت صديقي فقص علي الخبر . وبينما هو يكلمني لمحت سامان مارا على فرسه يطلب عرض البر ولم أتحققه ، فسألت صاحبي في شأنه فأخبرني بأنه هو بعينه وأنه جاء البارحة في أواخر الليل واجتمع بالافشين وقص عليه خبر اختطاف جهان ولكنه جعل الذنب في ذلك لك ، وأساء القول فيك ، ولم أعلم ذلك الا بعد أن غاب عن بصري ولم يبق سبيل اليه ، ولولا فراره لضربت عنقه ، أو قتلته خنقا ، قبحه الله من أجرود لئيم»

وكان ضرغام قد لمس من قبل نفاق سامان وسوء نيته فأصبح لا يصدق شيئا من أقواله ، ولكنه لم يستطع تكذيبه في اختطاف جهان فقال : « قد عرفت نفاق هذا الشاب من قبل ، ولكن هل تظنه كاذبا فيما رواه عن اختطاف جهان ؟ »

وجاءت الاخبار أثناء ذلك بقيام بابك واستفحال أمره فأصدر الخليفة أمره الى الافشين بالسفر مع جنده الى اردبيل ، ولم يتسن لضرغام الاجتماع به



فراق فرغانة

كانت جهان حين عزمت على الفرار من فرغانة مع أخيهـا وقهرمانتها قد أعدت كل ما تحتاج اليه مما خف وزنه وغلا ثمنه ، وعولت على أخيهـا فى تدبير قافلة يسيرون فى ظلها تجنبا لخطر البوادى التى لابد من قطعها قبـل الوصول الى العراق ، فجاءها سامان وذكر أنه هيأ كل شىء ، فأخـذوا فى نقل الأحمال محتجين بالسفر الى مصيف قريب. ولما دنا وقت الرحيل وعلمت أنها لن تعود الى بلدها بعد ذاك عظم عليها فراق مسقط رأسها وهجر قصر أبيها وقد ألفت هواءه وماءه وظلاله وعاشت بين أهله ومنازله وأسـواقه ، فقضت أيامها الأخـيرة منقبصة الصـــدر ، وقد ذهبت بشاشتها وأخوها يسـهل عليها الخروج وقهرمانتها ترى فى خروجهـا شططا . وأما هى فلم تتردد فى الأمر لحظة واحدة رغم ما أحست به من الوحشة

وفى الليلة التى قضوها على أهبة الرحيل اســـتدعت قيم الدار اليها وأوصته بالقصر وأهله خـيرا وأسرت اليه أن قد يطول غيابها فليكن أمينا نشيطا . فأسف لسفرها وان لم يعرف حقيقة غرضها ولو علم لبكى بكاء مرا على فراقها لأنه كان يجلها حتى العبادة ، وكذلك كان احساس كل من عرفها أو عاشرها لما فطرت عليه من اللطف والذكاء والهيبة والجمال

وفى الصباح التالى خرجت على جوادها الأدهم كأنها ذاهبة الى متنزه أو مصيف ، وركب معها أخوها وقهرمانتها ولم تتمالك عند خروجها من باب المدينة أن التفتت ودمعت عيناها حزنا على ما خلفته هناك من ثمار شبابها وجنى أبيها ، لكنها تماسكت واسترجعت رشدها وعزت نفسها بما ستلقاه من أسباب السعادة بقرب حبيبها

وكانت القافلة التى سافروا فيها قادمة من بلاد الهند بأحمال العطريات والبهارات والأنسجة قاصدة الى خراسان ، فضموا أحمالهم الى أحمالها ،وقد اعتمدت جهان فى ذلك على أخيها ولبست ثياب السـفر وأقلعت القافلة فى مساء ذلك اليوم وهى مؤلفة من قطارين مسلسلين من الجمال والبغال عـلى بعضها الأحمال وعـلى البعض الآخر الرجال . غير المشـــاة من المـكارين والسياس على أقدامهم ومعهم الكلاب وأدوات الطبـخ والنوم ، فان القافلة كالبلد يمشى بأهله ودوابه وأثاثه . تمشى ساعات من النهار وساعات من الليـل تختلف مقاديرها باختلاف فصـــول السنة ، حسب أوجه القمر ،

يحـــدق بها حراس من الرجال تعودوا الاســـفار والاخطار اشـــداء الأبدان يعرفون الطرق ولهم صداقة ورهبة عند قبائل التركمان بدو الترك المتفرقين فى البادية بين تهر جيحون ونهر الشاش . والمسافة بين النهرين تقطع في أسابيع وقد تستغرق الشهرين ، ناهيك بما فيهـا من اللصوص وقطاع الطرق · ولذلك لا يجسر على السفر هنـــاك غير القوافل الكبيرة · وتحتذى القافلة أثناء السير نظام الجند للحرب ، وفى ساعات الراحة تضرب الخيام وتوقد النيران وتذبح الأغنام أو الأبقار وتنصب القدور على النـــار ويشتغل القوم بالأكل والنوم

ولم تكن جهان جربت هذا السفر ولا ذاقت مثله ولا سمعت به في حياتها، فكانت تحمل ثقله متجملة بالصبر ، وتعزى نفسها بلقاء الحبيب · كل ذلك من معجزات الحب وان أمره لعجيب

ولو أردنا تفصيل ما لقوه فى سفرهم الطويل من حر النهار وبرد الليل وخوف قطاع السابلة وأهل الغزو وما أصـابهم من عطش أو جوع لفراغ مؤونتهم من الماء أو الطعام قبـل بلوغ المكان الذى يتزودون منه لضاق بنا المقام . فنقول موجزين انه لما بلغت القافلة (الرى) أشار سامان على أخته بالتخلى عنها ليسيرا وحدهما لأن القافلة تمشى متثاقلة وليس طريقها طريقهم الى العراق اذ تتوجه شمالا · فأذعنت جهان لرأى أخيها وانفردوا بأحمالهم ودوابهم عن القافلة · وفى مســـاء ذلك اليوم بغتهم جماعة من الرجال على الخيول فى مكان بعيد عن همذان،وكانت جهان على فرسها فدافعت عن نفسها دفاع الرجال . وأظهر سامان دفاعا حاميا ، ولكنهم غلبوا على أمرهم فقبضوا على جهان وقهرمانتها وشـــدوا وثاقهما وفر سامان بحجة ايصال الخبر الى ضرغام

فلما رأت جهان نفسها في الأسر صاحت بكبير القوم وهم جميعا ملثمون وقالت له : « ما الذى حملكم على هذا العمل ·؟ اذا كنتم تطلبون المال فهـذه أحمالنا خذوها وأطلقوا سراحنا ولن نطالبكم بشىء منها »

فأجابها الفارس وهى أول مرة ســـمعت كلامه وقال : « لسنا لصوصا يا سيدتى ، ولا حاجة بنا الى المال وانما أمرنا أن نحمل عروس فرغانة الى أعظم رجل فى الأرض لم ترض به طوعا فعساها أن ترضى به كرها »

فلما سـمعت كـلامه أدركت أن فخا نصب لها . وكانت تؤثر أن يكون القوم لصوصا يبغون المال على أن تكون هى بغيتهم . ليس لأنها تخاف أن تغلب على أمرها فانها كانت من رباطة الجأش وثبات الجنان على ما علمت · ولكن شق عليها فراق حبيبها ، فأرادت أن تزداد بيـانا فقالت : « ولـكن ما تأتونه يا صاح لا يشبه أعمال العظماء »·

قال : « وماذا يعمل الرجـــل اذا اضطر ولم ير مركبا يركبه الا هـذه

الوسيلة ؟ ماذا يفعل اذا تقــدم خاطبا فرد خائبا • وهو كبير القدر تأبى نفسه الفشل ؟ »

قالت : « يترك الخطبة والخطيبة »

قال : « واذا كان مفتونا قد غلب على أمره »

قالت : « دعنا من ذلك فاني لا أراكم الا لصوصا تطلبون المال فهــذه الأموال لديكم وأنا الكفيلة باضعافها اذا أطلقتم سراحنا »

قال : « أما اذا أعطيتنا المال فتشكرك كثيرا ، ولكننا لا نستطيع أن نطلق سراحك • ولا ينبغي يا سيدتي أن تحزني على شيء أضعته بهــذا الانتقال فانت ذاهبة الى أعظم رجل في العالم فاذا أحسنت معاملته ملكت الرقاب »

فأشكل عليها فهم حقيقة ما يعنيه فقالت : « لم أفهم مرادك ، من هو ذلك الذي تعنيه ؟ »

قال : « ستعلمين كل شيء بعد بضعة أيام • فاطمئني وســتكونين معنا معززة مكرمة ، ثم متى وصلنا الى المكان المقصودكنت في أرغد عيش وأسعد حال »

قضت عدة أيام مع قهرمانتها وأولئك القوم على أتم ما يرام من الاعزاز والاكرام ، وكانوا قد حلوا وثاقهما في صباح اليوم التالي وقاموا بخدمتهما أحسن قيام من الطعام والشراب والمبيت

وقد أتيح لجهان الفرار لو أطاعتها نفسها عليه ، ولــكنها أكبرته وخافت مغبته • وكبير النفس لا يطاوعه وجدانه على الفرار حتى من الموت

مرت في أثناء هذه الرحلة بمدن وقرى وجبال وأودية وسهول وحزون ، ورأت أقواما من أمم شــتى فعلمت من القرائن أنهــا مرت بأذربيجان وجاء العريف ذات يوم وأخبرها أنها صارت في ارمينيا وأنها لا تلبث أن تدخل أردبيل • فعلمت أنهم سائرون بها الى بابك الخرمي ، فتذكرت أنه كان قد طلبها من أبيها ولم تقبله ، فتحققت أنهــا محمولة اليه فأخذت تتأهب لدفعه وعلمت أنها مكيدة من أخيها فندمت على الركون اليه

وقد أصاب ظنها بسامان فانه طبع على اللؤم وزاده فعل أبيه نقمة عليه وعلى أخته ، وكان صاحب أطماع لم يستطع تحقيقها بعلو الهمة والبسالة مثل كبار الرجال فالتمسها بالحيلة والخداع • وليس أشأم على الأمة من أن يعجز رجال المطامع فيهــا عن نيلها بأعمال تتفق ومصلحتها ، لانهم حينئذ يضحون بمصلحتها في سبيل مطامعهم • فانتظم سامان في سلك الخرمية ، وهي جمعية سرية قامت على مقاومة أصحاب الســيادة ، وزعيمها في ذلك العصر بابك الخرمي صاحب أردبيل • وكان الخرمية يسعون في تأييد سلطته سرا ، وكان شديد البطش يبالغ في اقتناء النساء لا يسمع بامرأة جميلة الا سعى في اســتجلابها فاذا لم يستطع ذلك بالجاه طلبها بالمال فاذا أعجــزه

احضارها بالمال حملها بالقوة. فشاع خبره فى الآفاق ، وسمع بجهان فبعث يخطبها على يد سامان فلم يرض أبوها فدس الى سامان أنه اذا أتاه بها رفع قدره وأغناه وقلده منصبا عاليا . ولم يكن سامان قادرا على شىء فى حياة أبيه فلما توفى أبوه وقد حرمه من الارث ازداد رغبة فى الانتقام ، ولقى الاصبهبذ نائب بابك فى فرغانة أيام النيروز فى بعض جلسات الخرمية التى كان يحضرها سرا فيغيب عن البيت أياما وأبوه لا يعلم وانما كان يقضيها فى الكيد والتواطؤ . فتواطأ معه على أن يحتال فى حمل جهان الى أردبيل وهو لا يبالى عواطف المحبين لدناءة طبعه وهو ناقص الرجولة . وعزم على ذلك خاصة بعد مقابلته للافشين واطلاعه على وصية أبيه ، فأصبح همه الانتقام من الافشين فوجد فى تنفيذ المؤامرة مع الاصبهبذ سبيلا لنيل ما يتمناه من الثروة والنفوذ والانتقام من عدوه ، فاتفق مع الاصبهبذ على أن يهيىء رجالا يكمنون فى الطريق بين الرى وهمذان ليأسروا جهان أثناء سفرها الى العراق ليظهر للملأ أنهم أخذوها منه قهرا . وبعد أن أخذوها لم يكن غرضه من الذهاب الى العراق الا القاء الفتنة بين ضرغام والافشين ، وهو يعلم بسالة ضرغام وتفانيه فى سبيل جهان فان علم ان الافشين أسرها أسرع الى قتله. وكان سامان ضعيف العزم قليل الدهاء ، فلم يحسن سبك حيلته ، فلم ينطل أمر اختفائها على ضرغام ، فرجع من العراق وهو يعتقد أنه أتم مهمته وفاز بمرامه

أما جهان فلما علمت انها على مقربة من أردبيل قصبة ارمينيا فى ذلك الحين أخذت تتهيأ لدفع ما يهددها . وكانت تسمع ببابك وتعرف انغماسه وتهتكه وتعلم انه مقيم بأردبيل . وما عتم الركب أن وصلوا الى غيضة كثيرة الادغال والاشجار اذا دهم أهل أردبيل أمر لجأوا اليها فتمنعهم وتعصمهم ممن يريد أذاهم فهى معقلهم ومنها يقطعون الخشب الذى يصنعون منه الصوانى والقصاع، واستغرقت جهان فى تفكيرها وهى تنظر الى تلك الغيضة فيما تخاطب به بابك لتدفع أذاه، وذكرت ضرغاما وقالت فى نفسها : « ماذا هو فاعل اذا بلغه ما أنا فيه ؟ »

وفيما هى فى ذلك رأت الركب يتحول عن الطريق المؤدى الى أردبيل ويدخلون الغيضة . وأتاها رجل منهم أومأ اليها أن تحول شكيمة جوادها الادهم نحو الغيضة ففعلت وهى لا تعرف السبب . وساروا فى طريق وعر يخترقون الاشجار المشتبكة وجهان تلتفت يمينا وشمالا لعلها تعرف سبب هذا السير ، واذا بعريف الركب جاءها وزاملها بجواده وخاطبها قائلا : « أراك تستغربين اتجاهنا الى هذا الطريق أو لعلك تخافين ؟ »

قالت : « انى لا أخاف شيئا ، ولكننى أستغرب دخولكم هذا الطريق الوعر بعد أن كنا على مقربة من أردبيل »

فأكبر العريف جرأتها وكبر نفسها وقال : « أظنك لم تشاهدي الراية المنصوبة على مقربة من الطريق »

قالت : « كلا وأين هي ؟ »

فأومأ اليها أن تنظر وصعد بها الى أكمة هناك فلما صعدا قال لها : « ألا ترين هذه الراية ؟ »

فلما وقع نظرها عليها خفق قلبها لأنها راية الأفشين فقالت : « انها راية المسلمين »

قال : « نعم وقد جاءنا أحد الكوهبانية (وهم أصحاب الاخبار عند قدامى الفرس يشبهون قلم المخابرات في هذه الايام) وأخبرنا أن مولانا قد غادر أردبيل واحتلها المسلمون بعده »

قالت « أظنك تعني بابك . والى أين ذهب ؟ »

قال : « أخبرنا الكوهباني أنه أوغل في ارمينيا وتحصن في بلد منيع يقال له « البذ » عند نهر (ارس) ونحن ذاهبون اليه » .

وآنست من الرجل لطفا واكراما كثيرا فطمعت في أن يطلق سراحها بعد أن شغل القوم بالحرب فقالت : « فأنتم اذن ذاهبون بنا الى البذ ؟ »

قال : « نعم يا سيدتي وهي على بعد أيام من هنا »

قالت : « وهل حتم أن أذهب معكم ؟ »

فأدرك الرجل أنها تشير الى امكان تسريحها فقال : « ان أمر مولانا قضاء لا سبيل الى نقضه ، هذا ولو أننا أخلينا سبيلك هنا لكنت في خطر شديد، ان لم يكن من اللصوص فمن الوحوش »

وكانت خيزران على فرس وراء فرس جهان ، فالتفتت جهان اليها فابتدرتها خيزران قائلة : « وما الذي تخافينه عند (بابك) ومثلك لا يخشى عليه ؟ »

فتشجعت جهان بكلام خيزران وأدركت أنها لم تقل ذلك اعتباطا ، ثم عادوا الى المسير صعدا وجهان تلتفت الى ما حولها تتأمل وحشة ذلك المكان وسعة تلك الغيضة . فوقع بصرها من بعد على مدينة أردبيل ، ورأت ساحتها الكبرى غاصة بالجند وبالرايات الاسلامية ، وهي تعلم ان الافشين نفسه ليس هناك لأنها تركته في فرغانة ، وان النازلين باردبيل فرقة من جنده

وكان الوقت ظهرا فحث الركب خيولهم للخروج من الغيضة قبل دخول الليل خوفا من المبيت فيها . ولما اجتازوها وواصلوا السير بعدها مروا بمدن كثيرة منها ارشق وخش وبرزند . ورأت جهان رايات المسلمين على أسوار هذه المدن التي ليست الا محطات لاختزان مؤونة الجند أثناء انتقاله لمحاربة بابك . فكانت كلما تقدمت أحست ببرد الطقس حتى أشرفوا على البذ ،

فرأتها أشبه بالمعقل أو القلعة منها بالمدينة لأنهـا مؤلفة من قصـــور عدة كالقلاع يحيط بها كلها سور هائل عليــه الأبراج والأبواب وفوقها أعلام الحرمية ، والأرض في تلك الجهات جبلية وعرة يصعب مرور الجنـــد فيهـا بأثقاله وأحماله · فعلمت أن بابك التجأ الى ذلك المعقل لمناعتـــه حتى يكاد يستحيل على المسلمين أخذه

وسبق واحد من الركب الى البذ يستأذن في الدخول ويسأل أين ينزلون جهان ، ثم عاد وأشار بالدخول من باب غير الذي كانوا عازمين على الدخول منه · ولما صارت جهان داخل السور شعرت كأنها في قفص فاستوحشت، وأحست خيزران بوحشتها فساقت فرسها الى جانبها وسألت كبير القوم : « أين أنتم ذاهبون ؟ » · فقال : « ان مولانا الآن في خارج البـذ وقد أمر أن نأخذ عروسه الجميلة الى قصر النساء هنا فتمكث فيه مكرمة معززة حتى يأتي »

فأجفلت جهان عند سماعها قوله : « عروســه » · ولكنها تجلدت وظلت ساكتة حتى أقبلوا على القصر ، وله سور خاص ورحبة وحـديقة ، وكأنه حصن قائم بنفسه ، فوقف لهم الحراس ووسعوا·فدخلت جهان وقهرمانتها على فرسيهما من الباب الكبير ، حتى اذا دنت من الباب الصغير المؤدي الى المساكن ترجلت وترجلت خيزران معها،وأسرع بعض الخدم لتناول الفرسين وقد أدهشهم ما رأوه في تلك القادمة من الجمال والهيبة لأنها لا تتحجب

وأسرع عريف الركب الى الوقوف بين يدي جهان باحترام وقال : « أرجو أن تكون سيدتي قد أغضت عن جرأتي في حملها على غير ما تريد فاني مكره على هذا بأمر سيدنا ومولانا ، ولكنني بذلت جهدي في راحتها ، وأرجو أن تذكرني بالخير لدى الأمير ، فلا شك في انها ستكون الآمرة الناهية ! »

قالت : « ما اسمك ؟ » · فقال : « بهزاد يا سيدتي »

قالت : « والى أين تذهب بي الآن ؟ » · قال : « الى قهرمانة القصر وهي تقوم بما تحتاجين اليه من أسباب الراحة »

وكانت خيزران واقفة تسمع ما دار بينهما فقالت للرجل : « ألا تعرف من أهل هذا القصر امرأة صديقة ؟ »

فقال : « أعرف أكثرهن،وهن من أمم شتى ولكنني أظن مولاتنا تستأنس بالسيدة هيلانة فانها من بيت الأمراء ، وقد عرفت بيت زوجها بأرمينيـا قبل أن أمر مولانا بابك بضمها الى أهله ، وكنت ممن حملوها اليه وتعارفنا في أثناء الطريق ، فرأيتها عاقلة لطيفة وأظن مولاتنا تستأنس بها · والآن أستأذن في الانصراف فقد أقبلت القهرمانة·وأنا اسمي بهزاد ياسيدتي··!» وانصرف

ظلت جهان واقفة هادئة رزينة وقوف الملكة بباب قصرها ، حتى وصلت

القهرمانة اليها ، وهي عجوز طويلة القامة ، تدل ملامحها على ما كانت عليه من الجمال في شبابها ، وقد لبست ثوبا يتلألأ بالوشي والتطريز ، وحول جيدها العقود وفي يدها الأساور وفي أذنيها الأقراط

فلما وقع نظرها على جهان أكبرت ما هي عليه من المهابة والجمال رغم آثار السفر الطويل ، ورأت في عينيها معاني لم تعهد مثلها في واحدة من عشرات النساء اللاتي عندها · واستغربت رباطة جأشها مع أنهـا جاءت مكرهة ، وكانت تعلم علو منزلتها وكيف طلبها بابك من أبيها فلم ترض به ، فتوقعت أن تراها منكسرة القلب باكية حزينة · فلما رأتها رابطة الجأش هادئة ظنتها راضية بما قسم لها · ولما دنت منها رحبت بهـا وقالت : « مرحبا بعروس فرغانة · يشق على أن تحملي الينا قسرا وأرجو أن تكوني قد غيرت رأيك »

فلم تجبها جهان ، ولكنها ابتسمت ومشت معها في دهليز القصر مطرقة · ولو تلفتت لرأت نساء القصر يتسـابقن ويتزاحمن للنظر الى ضرتهن فلما شاهدن جمالها وهيئتها حسدنها لانها سيكون لها المقـام الاول عند بابك · أما هي فما زالت سائرة لا تبالي حتى أدخلتها القهرمانة الى حجرة مفروشة بالطنافس فرشا حسنا وقالت لها : « هذه غرفتك يا حبيبتي فاستريحي فيها »

قالت : « وأين ثيابي ؟ · فقد أخذوها في جملة الأحمال »

قالت « ستكون عندك بعد قليل » · وخرجت وأرسلت اليها صناديقها

ولما خلت جهان الى خيزران في تلك الغرفة ، أيقنت أنها وقعت في الفخ فانقبضت نفسـها ولم تتمالك عن البكاء برغم تجلدها ، فوقفت خيزران بجانبها تواسيها متجلدة ، ولكنها لما رأت دموعها تنحدر على خديها انفطر قلبها وترامت على قدميها وأخذت تقبل طرف ثوبها وتقول : « آه يا سيدتي ما الذي أصابنا ؟ · كيف جئنا وكيف أخـذنا ؟ وأين نحن ؟ · أين ضرغام الآن ؟ » · واسترسلت في النحيب ، وجهان تبكي ولا تتكلم · ثم شعرت خيزران بأنها أخطأت باظهار ذلك الضعف بين يدي سـيدتها فتماسكت وقالت : « ولكنني واثقة بتعقلك وقوة جنانك ، وأنا رهينة اشارتك »

قالت : « سمعت بهزاد يثني على امرأة من نساء هذا القصر اسمها هيلانة ، فلعلها تؤنسنا اذا عرفناها · هل لك أن تبحثي عنها وتأتيني بها ؟ وقبـل ذهابك هيئي لي ثيابي »

فأعدت لها ما تحتاج اليه ومضت ، وكانت الشمس قد آذنت بالزوال وأخـذ الخدم في انارة القصر بالشموع ، فبدلت جهان ثيابها واسـتلقت والتفتت الى ما حولها ، فلما رأت نفسها في تلك الحيرة وبينها وبين فرغانة سير بضعة أشهر ، وكذلك بينها وبين سامرا ، فكرت في ضرغام وساءلت نفسها : ترى هل علم بما أصابها ؟ · أو هل من سـبيل الى انبائه بمكانها

وما هي فيه فلعله يستطيع انقاذها . ثم تذكرت أخاها سامان وساءلت نفسها ما دهاه ؟ وهل قتل في المعركة أم فر الى مكان آخر ؟

وفيما هي في ذلك قرع الباب ودخلت خيزران تقول : « قد جئتك بالسيدة هيلانة يا مولاتي »

فهمت جهان بالوقوف لملاقاتها ، فأسرعت هيلانة وأجلستها وجلست الى جانبها وهي تهش لها وترحب بها كأنها تعرفها من قبل . واستأنست جهان بها وأحست كأنها في قصر أبيها بفرغانة بين أهلها لأنها آنست في وجه تلك المرأة لطفا ومودة واخلاصا ، فضلا عن الجمال . وكانت هيلانة شقراء الشعر زرقاء العينين بيضاء البشرة لا يبارح الابتسام فمها ، فابتسمت جهان لها وشكرت تلطفها ، فقالت هيلانة وهي تبتسم تشجيعا وايناسا : « مرحبا بعروس فرغانة ، لقد طالما سمعت بجمالك وتعقلك ، وقد مضى وقت ونحن في انتظارك »

فقالت : « ما زلت أحسبني ذاهبة الى الجحيم حتى رأيتك فخفت المصيبة عني »

فأحست هيلانة عند سماع صوتها بلذة ، وشعرت بجاذب نحوها وكأنها تذكرت بلواها هي فانقبضت نفسها وقالت : « هكذا أراد المولى يا حبيبتي ، ولو أنك قست بليتك ببلية سواك لهان عليك أمرك . لو عرفت ما فعلوا بي لرأيت أنهم رحموك »

فسألتها جهان أن تقص حديثها عليها عسى أن يخفف ما بها ، فتنهدت هيلانة وقالت : « لابد أنك عرفت من وجهي وضعف لغتي الفارسية أني غير فارسية ، وما أنا تركية ولا أرمنية وان كنت أخذت من أرمينيا ، ولكنني يونانية نشأت في بيت أبي في عمورية ، وخطبني بطريق من بطارقة ارمينيا وتزوجني وحملني الى بلده . ولم أكد أقيم معه عامين حتى بلغ هذا الخرمي خبري (وخفضت صوتها) فبعث يطلبني من زوجي فلما أباني عليه بعث قوة من رجاله اغتنموا غياب زوجي وحملوني اليه بالقوة فحبسني هنا منذ بضعة أعوام فلا أنا أعرف أين زوجي . ولا ما فعله بعدي . وهو يعرف مقري طبعا ولكنه لا يجد سبيلا الى . هذا اذا كان لا يزال حيا » . قالت ذلك وشرقت بريقها ثم مسحت دموعها وابتسمت وقالت : « ما قصدت أن أكدرك بهذا الحديث ، ولكنني أردت أن أخفف مصابك »

أما جهان فأعظمت مصاب هيلانة وهمت بأن تقص عليها حديثها فأرجعها الحياء . فتنهدت وأحبت تغيير الحديث فقالت : « أين هو بابك هذا ، وكيف تعيشون هنا ؟ »

قالت : « ان الرجل يقيم بقصر غير هذا قريب من أسوار هذا البلد ، وذلك

ليراقب تحصيناته ، وهو ينقل من يشاء من نساء هذا القصر اليه لتقيم عنده يوما أو بضعة أيام على ما يتراءى له »

قالت : « بلغني انه اليوم في شاغل عن هذا القصر وأهله بأمر ذي بال »

قالت : « نعم انه يتأهب لحرب شديدة »

قالت : « مع من ؟ » . قالت : « جاء جواسيسه بالأمس ، وكان قد أرسلهم ليتجسسوا أحوال المسلمين في العراق ، فأخبروه أن المسلمين يتأهبون لارسال حملة عظيمة عليه ، يقودها الافشين صاحب أشروسنة بنفسه »

فلما سمعت اسم الافشين ارتجفت وتذكرت أنه علة بلواها ، ولو انتبهت هيلانة لرأت أثر ذلك التغير في عينيها ، ولكنها لم تكن تعرف عن جهان الا أنها بنت مرزبان في فرغانة طلبها بابك ولم ترض به فاختطفها قسرا . فقالت جهان : « وهل جاء الافشين نفسه ؟ »

قالت . « لا أدري ولكنه آت لا شك في ذلك ، وقد خرج بابك من البذ في جماعة من رجاله ليقيم العراقيل وينصب الأرصاد في الطريق ، وقد لا يعود الينا قبل بضعة أيام »

ففرحت للخبر ونبهها ذكر الجواسيس الذين عادوا من العراق فسألت : « هل تعرفين أحدا من الجواسيس الذين عادوا من العراق ؟ »

قالت : « خادمتي تعرف واحدا منهم »

وكانت خيزران قد ذهبت وعادت بالعشاء الى سيدتها ووقفت تسمع الحديث ، فلما سمعت هيلانة تقول ان خادمتها تعرف أحد الجواسيس ابتدرتها قائلة : « أي خادمة يا سيدتي ؟ »

قالت : « التي دلتك علي »

قالت : « عرفتها ، حقا انها لطيفة كأنها اقتبست من سيدتها »

فقالت هيلانة وهي تضحك : « لذا وقع الجاسوس في هواها ولا يزال يحمل اليها الهدايا ويأتمر بأمرها ويريد أن يتزوجها »

فسري عن جهان عند سماعها ذلك ، ونظرت الى خيزران فرأتها تنظر اليها فتفاهمتا فقالت خيزران : « أريد أن أقترح عليها أمرا تكلف خطيبها به في طريقه الى العراق . هل تساعدينني في ذلك ؟ »

قالت : « حبا وكرامة ، أعدي ما تريدين اعداده »

فتهلل وجه خيزران فرحا لعلمها أنها تستطيع ارسال خبر سيدتها الى ضرغام . ثم وضعت المائدة فتناولن العشاء معا ، وتذكرت هيلانة أن جهان في حاجة الى الراحة من تعب السفر فاستأذنت في الذهاب على أن تعود في الصباح فتأخذها الى غرفتها

بين بابك وجهان

باتت جهان ليلتها تتقاذفها الهموم من كل جانب ، فأرادت أن تكتب الى ضرغام كتابا ولكنها خافت أن يقع الكتاب عمدا أو سهوا فى يد غريبة فتكون العاقبة وخيمة . فصممت أخيرا أن تبعث الرسالة شفاها . فلما نهضت فى الصباح أخبرت خيزران بما استقر عليه رأيها ، فاستحسنته وقالت : « يكفى ان تخبر سيدى ضرغام بأن جهان فى البذ عند بابك » . قالت : « هذا الذى أراه »

فقالت : « ألا تزورين هيلانة ؟ . ومتى كنا عندها أقابل الخادمة وأفهمها ما تصنعه ؟ »

قالت : « حسنا » . واخذت فى اصلاح شأنها وهمت بالخروج واذا بأحد الخصيان قد دخل وقال : « أين السيدة جهان ؟ »

فلما سمعت جهان اسمها أجفلت وظنت بابك اتى او أنه بعث يطلبها ، فسكتت وتصدت خيزران للرسول وسألته عما يريد فقال : « ان اخاها يريد مقابلتها ! »

وما سمعت جهان ذكرأخيها حتى تنازعها عاملا الفرح والغضب — فرحت لعلها تسمع منه خبرا عن ضرغام ، وغضبت لأنه خدعها ، فقالت للرسول : « أين هو ؟ .. فليدخل »

فدخل سامان وعيناه تذرفان الدموع وقد احمرتا من البكاء ، ولما أقبل عليها ترامى بين يديها وهو يبكى ، فشغلها بذلكعن تعنيفه . ولم تفهم سبب بكائه فابتدرته قائلة : « ما بالك ، ما الذى يبكيك ؟ »

قال وصوته مختنق من البكاء : « لا أدرى .. »

قالت : « كيف لاتدرى .. قل .. قل »

فلم يجبها وسكت وجعل يمسح دموعه بكمه وهو مطرق ، فقالت : « من أين اتيت ؟ » . قال : « من سامرا »

فقالت : « وكيف ضرغام ؟ هل لقيته ؟ » . فلما ذكرت ضرغاما عاد الى البكاء فاختلج قلبها فى صدرها ووقفت فجأة وصاحت فيه : « قل ما بالك ؟ كيف ضرغام .. أين هو ؟ »

فتراجع وامسك بيـــدها كأنه يستمهلها حتى يسكن روعه ثم قال :

« لا أعلم أين هو »

قالت: « ألم تقل انك كنت في سامرا ؟ »

قال: « نعم كنت فيها . ولكنه ليس هناك »

فقالت: « ضرغام ليس في سامرا ؟ »

قال: « نعم يا أختي ليس هناك ، وقد سألت الناس كافة فلم أجد بينهم من يعلم أين هو »

فأخذتها الدهشة ، وبقيت تنظر اليه متسائلة ، فعاد الى الكلام فقال: « ماذا أقول ؟. ان ضرغاما ليس في سامرا ، ولم يره أحد رجع اليها بعد ذهابه الى فرغانة » .

فلما سمعت قوله غلى الدم في عروقها ، وكاد الغضب يغلب على رشدها ، لكنها تجلدت وامسكت نفسها ، فتقدمت خيزران وأخذته بيده نحوها وقالت: « صرح . ما الذي سمعته ؟ »

فقال وهو يخفض صوته محاذرا ان تسمعه اخته وهي واقفة تسمع: « لما سطا علينا اللصوص وقبضوا على حبيبتي جهان وعليك رايت حتما على أن ابلغ الأمر الى البطل ضرغام . فأسرعت الى سامرا وقصدت الى بيته فيها فوجدته خاليا خاويا ، فسألت عنه كثيرين فلم أقف له على خبر . وأخبرني احدهم ... » . قال ذلك وبلع ريقه وسكت مطرقا . فلما توقف عند هذا اصغت اليه جهان وتطاولت بعنقها واشارت اليه خيزران أن يصرح بما سمعه فقال: « أخبرني ان عدونا الاكبر سبب مصائبنا جميعا قد بعث اليه جماعة من رجاله كمنوا له في منحنى الطريق وغدروا به » . قال ذلك وبكى

فلما سمعت جهان قوله وراته يبكي أمسكت نفسها حتى كف عن البكاء ، ثم تفرست في وجهه تفرس ناقد وهو مطرق لايستطيع النظر اليها كأن أشعة نارية تنبعث من عينيها فتبهر بصره — والمنافق لايستطيع تثبيت بصره في عيني احد ولا سيما اذا كان في غضون نفاقه — فلما لاحظت ذلك تنبه ذهنها الى احتمال كذب سامان ، وبدلا من أن يقيمها الخبر ويقعدها حتى يخرجها عن الصواب ، كما توقع ، أخذت تراجع أعمال أخيها السابقة ، فرجحت انه يكذب عليها لحاجة في نفسه فقالت: « هل تقول الحق يا سامان ؟ »

قال: « وهل أختلق الاخبار من عندي ؟ لقد قصصت عليك ما رأيته وسمعته ، وأتمنى من صميم فؤادي أن يكون كذبا »

فأطرقت هنيهة ثم قالت: « من الذي انبأك اني هنا ، ومن أدخلك القصر؟ »

فلما سمع سؤالها ارتج عليه وأخذ على غرة ، لأن معرفته مكانها تدل على علاقة بينه وبين اللصوص . فتوقف حينا . ولكنها لم تمهله حتى يهيىء الجواب فقالت: « لا أطلب منك جوابا ، ويكفي ما فهمته فاذهب الآن الى أصحابك

الحرمية لعلهم يكافئونك على صنيعك . اذهب » . قالت ذلك وخرجت من الغرفة وكانت قد تهيأت للذهاب الى هيلانة ؛ فخرج سامان وهو يهز رأسه ويتظاهر بتعجبه من تصرف أخته وانكارها ما يقول

فلما خلت خيزران الى جهان قالت : « ارى ياسيدتى الا نستخف بما ذكره سامان وأن نرسل من يأتينا بحقيقة حال ضرغام »

قالت : « لاريب عندى فى كذب سامان ، ولكننى أرى أن تكلفى الجاسوس أن يذهب الى سامرا ويسأل عن ضرغام رئيس حرس الخليفة »

وذهبتا معا الى زيارة هيلانة فرحبت بهما ، وجلست السيدتان للحديث وأتمت خيزران مهمتها مع الجاسوس

□

كانت قهرمانة بابك سيدة قصره الآمرة الناهية فيه ، وكان جميع من يضمهم من النساء والخصيان يخشون بأسها ويخفون لخدمتها لانها الوسيلة بينهم وبين بابك . الا جهان فانها بقيت على سليقتها متلطفة متحفظة ، ومع هذا كانت القهرمانة تجل قدرها وتبالغ فى اكرامها . وبعد أيام جاءت الى جهان ووجهها يتهلل بشرا فحيتها وقالت : « أبشرى ان العريس قد جاء ! »

فأجفلت جهان ولم تجب ، فحملت القهرمانة ذلك منها على محمل الحياء فقالت : « جئتك من قبل مولانا بابك ، فانه رجع من سفره ولما علم بمجيئك سر سرورا عظيما وامرنى أن أدعوك اليه »

فأجابتها جهان بهدوء وسكينة : « الى أين ؟ » . قالت : « الى قصره »

قالت : « أليس هذا الذى نحن فيه قصره كذلك ؟ »

قالت : « بلى ولكنه ألف أن تنتقل نساؤه للاقامة معه هناك »

فهزت جهان رأسها انكارا واباء وقالت : « لا » . ولم تزد

فعجبت القهرمانة لجوابها وهى فى الاسر بين مخالب الاسد ، وقالت لها : « ان بين هذا القصر وقصر بابك دهليزا مسقوفا تسير فيه المرأة مكشوفة كأنها فى غرفتها ولا يراها أحد . فهيا ولا تخشى شيئا »

فظلت جهان جالسة لاتبدى حراكا ، فغضبت القهرمانة لهذا الاستخفاف وقالت بصوت عال : « أنصح لك يا بنية بأن تنهضى ولا تستخفى بهذا الرجل فانه فتاك لايبالى أحدا اذا غضب» . ثم خفضت صوتها ودنت منها ووضعت يدها على كتفها تتحبب اليها وقالت : « اننى شديدة الحرص عليك لأنى أحببتك منذ رأيتك ــ قومى ياحبيبتى قومى » . فرفعت جهان بصرها اليها وقالت : « أشكر لك شعورك ، ولكننى لست بخارجة من هذه الغرفة »

فنفرت القهرمانة من الجواب وتحولت نحو الباب وخرجت ، وكانت خيزران

واقفة تسمع ما دار بينهما ، وساءها ما أبدته سيدتها من الانفة والشده وهمت بلومها بعد خروج القهرمانة ، فسبقتها جهان قائلة : « لا تقولى شيئا يا أماه ، فاني لا ابالي ما يكون من هذا الجلف العاتي . انه يريد أن اذهب اليه مختارة . ولكنى لن اذهب وما قدر يكون . على انى رغم وحدتى وأسرى هنا اشعر بأنى لى قوة وسلطانا ، كما لو كنت فى قصر أبى بين أهلى واعوانى . ذريه يفعل ما يشاء فان عروس فرغانة وخطيبة ضرغام لاتذل لانسان ! »

ونهضت فالتفت فوق ثوبها بمطرف من الخز ، وتخمرت بشال مزركش التماسا للدفء لأنها فى اقليم بارد . ومشت فى أرض الغرفة مطرقة تفكر فيما عسى أن يفعل بابك اذا بلغه اباؤها ، وعزمت على الدفاع والثبات لآخر لحظة فى حياتها

وفيما هي فى ذلك وخيزران واقفة لاتبدى حراكا ، سمعت سعالا قويا لم تسمعه فى القصر من قبل ، فعلمت انه سعال بابك ، وآنست فى القصر حركة وجلبة لأن أهله لم يألفوا دخول بابك عليهم ، ثم سمعت صوت القهرمانة تخاطب بابك ونظرت من نافذة صغيرة تطل على الرواق فرأت بابك قادما ، والخدم على كل من الجانبين يخرون سجدا ، والنساء يحنين رؤوسهن احتراما ، والجميع يحيونه كما يحيون معبودهم ، وأكثرهم من المجوس ، وهو يمشى مشية المختال الفخور

فلما وقع نظرها عليه ارتجفت غضبا ، وكانت قد الفت منظر سجود الناس فى قصر أبيها فلم تستغربه ولكنها أبت أن تكون هى أيضا فى جملة الساجدين . بل غالت فى الترفع شأن الانسان اذا كان فى رفعة وانحطت منزلته بعض الشيء فانه يصبح أكثر محافظة على مقامه

وكان بابك ضخم الجثة ، عظيم الهامة كبير الوجه ، جاحظ العينين ضخم الشفتين ، كبير الكتفين بارز الصدر اذا مشى ترنح فى مشيته ترنح الخيلاء والكبرياء . وقد اعتاد الصدارة فى موقفه أو مجلسه حتى لو أراد الانثناء لتناول شيء وقع منه لم تطاوعه أعضاؤه ، ولا غرابة فى ان يكون هذا شأن من لايفتح عينيه الا على المسبحين باسمه ، المتفانين فى طاعته ، مثل بابك رئيس الخرمية وقائدهم فى حروبهم . فضلا عن انه كان شجاعا شديد البطش قوى العضل أبى النفس . ولولا انغماسه فى الملذات والشهوات لكان من اعاظم الرجال . ولكنه أدمن الخمر وأسرف فى احتسائها ولاسيما فى أيام السلم . وكان فى هذا اليوم قد أعد مائدة الشراب فى قصره وبعث فى طلب جهان وجلس فى انتظارها يشرب ، فلما جاءته القهرمانة بخبر رفضها كانت الخمر قد لعبت برأسه فأكبر اباءها وجاء غاضبا ليعاقبها

فلما دنا من غرفتها تقدمت القهرمانة وفتحت الباب وقالت : « هى هنا يامولاى » . ورجعت واشارت الى خيزران ان تخرج معها فخرجت وتباعدت

وكانت جهان واقفة فلما رأته داخلا قعدت فاستنكر استخفافها به ، ولكنه لم يكد يرى جمالها الرائع ومهابتها وما يتجلى في عينيها من الذكاء والسحر حتى دهش . وعلى كثرة من رأى من جميلات النساء ، الفارسيات منهن والكرجيات والشركسيات والروميات ، وبعضهن أجمل من جهان تكوينا وأصفى لونا . شعر بأن عينه لم تقع على فتاة في مثل جاذبيتها فخف غضبه ، وان أخذته العزة بالاثم ، لتعوده خضوع الناس له على طول الخط فقال : « وتقعدين ايضا في حضرتي ؟ »

أما جهان فانتفضت كالعصفور بلله القطر ، لفرط تأثرها رغم رباطة جأشها . ثم تشاغلت باصلاح شعرها ورفعت بصرها اليه وحدقت وهو ينظر في عينيها . فأحس بسهم اخترق صدره وكأن الغضب تسرب من صدره حتى خرج من أطراف أنامله وسرى عنه . وقالت : « هل ينفعك وقوفي ان لم تملك فؤادي ؟ »

فتوسم من جوابها فرجا فقعد على وسادة بجانبها وقال : « ارجو ان يكون لي نصيب من ذلك الفؤاد . فلا أظن أحدا أجدر به مني ، وأنت تعلمين من هو بابك صاحب الحول والطول زعيم الخرمية قاهر جنود المسلمين . وأنه ليحزنني أن حملتك الي قهرا ولكني لم أقدم على ذلك الا بعد أن فشلت في نيلك بالحسنى . فكيف ترينني ؟ »

فلما رأت تلطفه وتقربه قالت : « أراك بطلا باسلا قاهرا ، وما أنت الا أسير »

فأجفل وقال : « اسير ؟ ! ماذا تقولين ؟ »

قالت : « نعم انك اسير . أسير شهواتك . فمن كان ملكا عظيما قاهرا لايليق به أن يكون عبدا لشهواته . . اني أشتم رائحة الخمر منبعثة منك »

قال : « يلوح لي انك من أولئك اليهود الذين يسمون انفسهم مسلمين فيحرمون الخمر . وهل في ملذات العالم أشهى منها بل هي أم الملذات لأنها تشحذ القوى وتستحث مطالب الجسد فتضرم الرغبة فيما تشتهيه النفوس من الطيبات »

فقالت : « كيف تكون صاحب السلطان وقاهر المسلمين ، ثم ترى هذه الشهوات زينة الحياة ؟ . ان هدف البطل هو أن يكون سيدا جليلا نافذ الكلمة يهابه البعيد ويحبه القريب »

فقطع كلامها قائلا : « ألست كذلك ؟ »

قالت : « كلا . فقد يخافك البعيد ولكن القريب لايحبك . والذين حولك يسبحون باسمك ويعظمونك تملقا ، فاذا غبت قالوا فيك كل قبيح لأنك لم تفعل ما يحببك اليهم »

فمل بابك الجدل في أمر هو مغلوب فيه . ورأى من الجهة الاخرى انه بالغ

فى التزلف لتلك الفتاة ، واكبر أن تكون منه بمنزلة الواعظ او المرشد فقال : « ما لنا ولهذا الجدال الآن ؟ هيا بنا يا جهان » . ووقف وهو يمد يده ليمسك بيدها ويعينها على النهوض ، فجذبت يدها منه وظلت قاعدة

فمد يده ثانية ليمسكها فوقفت ويدها وراء ظهرها وقالت : « قف عند حدك يا بابك ، انك بهذا العمل تؤيد قولا انت تنكره على الناس . لاتدن‌منى»

فقال : « ومن يدنو منك اذن غيري ؟ انت عروسي وقد بعثت فأتيت بك من اقصى بلاد الترك لأجعلك سعيدة ، فلا تجعليني شقيا ! »

قالت : « من كانت مطالبه جسدية وكان ذا سلطان نافذ لايشقى . لأن يده تنال ما يريده أن لم يكن بالمال فبالسيف ، فكيف تشقى لأني لم ارضخ لك وفى قصورك مئات من النساء الجميلات ، فافرض انى لست هنا واتركنى وشأنى »

قال : « لو لم اكن اتوقع السعادة بقربك ، أو لوكان لى غنى عنك ماتكبدت المشقة فى استقدامك ، ولم أكن لأنال ذلك لولا حبيبنا سامان »

فتحققت عند ذلك ان أخاها هو الذى اسـلمها ، فتحولت نقمتهـا اليه واصبحت لاتدرى ممن تنتقم ولا كيف تنتقم ، فتجاهلت ما فهمته عن سامان وقالت : « تكبدت كل ذلك من اجلى لتجعلنى مثل نساء قصرك ؟ »

قال : « بل أبالغ فى اكرامك واهدى اليك الجواهر والبسك احسن الملابس واختصك بالتقرب والمحبة ، واجعلك سيدة هذه المدينة ، ولا امنعك شيئا تطلبينه »

قالت : « تلبسنى الجواهر ؟ ما الجواهر عنـدى الا حجارة لامعة لا ترفع نفسا ولا تعلى مقاما ، وهذا صندوقى مملوء من الجواهر، وقد تركت قصرى وعقارى فى فرغانة . ولو بقيت هناك لكنت ملكة من الملكات ولكنى رأيت هذه الاموال من أسباب شقائى فتركتها ! »

فقطع كلامها قائلا : « بلغنى ان اباك المرزبان اقام عليك الافشين صاحب اشروسنة وصيا . ما لنا ولكل ذلك تعالى نتناول الطعام معا » . ودنا منها فتراجعت مغضبة فنظر اليها شزرا وقال : « اذا كنت لاتاتين طوعا اخذتك كرها ، وانت تعلمين انى اذا قلت فعلت . فقد كنت فى فرغانة وأتيت بك الى أرمينيا . فهل يشق على أن انقلك من قصر الى قصر وبينهما مائة خطوة ؟ »

قالت : « اظنك تحسبنى وانا على مراى منك اقرب اليك منى يوم كنت فى فرغانة . اعلم اننى لا ازال بعيدة عنك كانى فى فرغانة أو ابعد منها ! »

قال : « تقولين ذلك وأنت بين يدى ، ولو شئت لقبضت عليك بيـد من حديد أو امرت رجالى فحملوك الى موثقة ؟ ولـكننى لا ازال ارجو رجوعك الى رشدك »

ونظرت اليه نظره حادة ملؤها التوبيخ والترفع وقالت : « قد تقبض على عنقى ، وربما استعنت برجالك فأوثقتنى أو قتلتنى . ولكنك تنال كل ذلك قبل أن تستطيع لمسة أو نظرة مما كنت ترجوه منى . اقتلنى اذا شئت ، واذا جبنت عن قتلى فأنا لا اجبن عن قتل نفسى فلا تحتقرنى أو تهددنى ، واعلم انك تخاطب فتاة اكبر منك نفسا واربط جأشا واقوى جنانا ، واذا كنت تحسبها كسائر من فى قصرك من اللقيطات أو المسبيات أو الرقيقات فقد اخطأت . انك تكلم ابنة مرزبان فرغانة . وقد قادتها المقادير اليك فاكسب صداقتها ودع غيرذلك ، أوفامض فى سبيلك وأرحنى وأرح نفسك»

وكانت تتكلم كمن له سلطان ، وبابك يشعر بأنه يكاد يغلب على أمره بين يديها وكلما أرسلت اليه نظرة حلت من عزائمه عقدة فقال : « والآن . . ماذا تريدين ؟ »

قالت : « أريد أن تتركنى وشأنى »

قال : « أتركك أياما تفكرين فى أمرك لعلك ترجعين الى صوابك وتعلمين انك اذا أطعتنى نلت السعادة » . قال ذلك وتحول حتى خرج من الغرفة وقد امتقع لونه . وكانت القهرمانة وخيزران واقفتين تسمعان شيئا من الحديث وكلتاهما معجبة ببسالة جهان وانفتها . وبعد أن كانت القهرمانة ضدها اصبحت معها ولم تتظاهر بذلك لكنها صارت تلاطفها وتراعيها من ذلك الحين

اما جهان فلم تقل ما قالته لبابك تهديدا ؛ ولكنها كانت قد أخذت عدتها للدفاع أو الانتحار عند اليأس . وقد فتحت باب الاستمهال قصدا ريثما يعود الجاسوس وتعلم ماذا جرى لضرغام ثم تنظر فيما يكون

ولم ينقض ذلك اليوم حتى شاع حديث جهان فى القصر ولم تبق واحدة من النساء الا اعجبت بها . وأصبحن ينظرن اليها نظر الصغير الى الكبير أو نظر الجاهل الى العاقل ، ولاسيما صديقتها هيلانة فانها حينما علمت بخروج بابك من القصر هرولت الى جهان وأخذت تسألها عما جرى وجهان تتواضع فى التفسير وتتلمس الاعذار لبابك على جرأته ، فلم يكن ذلك الا ليزيد هيلانة احتراما لها وتقديرا .

وهكذا أصبحت جهان حديث أهل البذ ومضرب أمثالهم ، وهى لا تعبأ بشىء من ذلك وكل همها ضرغام وابلاغ خبرها اليه ولم تعد ترى سامان

مكثت حينا فى انتظار رجوع الجاسوس وكانت قد بادلت هيلانة ودا بود ، فقصت عليها متاعبها ، فشاركتها هذه آلامها وأصبحت شديدة الاهتمام بأمرها . ولم تكن أقل شوقا لرجوع الجاسوس من جهان نفسها . وعاد الجاسوس واتفق يوم رجوعه أن كانت جهان عند هيلانة فى غرفتها وخادمتها قائمة على الخدمة وخيزران غائبة . فلاحظت جهان فى وجه الخادمة تغيرا فقالت لهيلانة : « اسأليها ماذا قال لها خطيبها ؟ »

دهشت هيلانة لتلك المفاجأة وقالت : « وهل تظنينه جاء ؟ »

قالت : « نعم جاء ، ويظهر انه لم يأتنا بخبر مفرح »

فاستغربت تكهنها وأشارت الى خادمتها فأتت فقالت لها : « هل عاد صاحبنا من سامرا ؟ ومتى ؟ »

قالت : « نعم ياسيدتي أتى منذ ساعتين »

فقالت : « ولماذا لم تخبرينا »

وكانت جهان تسمع ذلك ، فاضطربت فصعد الدم الى وجنتيها وقالت : « ماذا قص عليك ؟ »

قالت : « قال لي انه سأل عن الرجل الذى طلبتِ منه البحث عنه في سامرا كلها فلم يقف له على خبر »

قالت : « هل يمكن أن نراه ونسأله »

قالت : « لا أدري هل تأذن القهرمانة في ذلك أم لا ؟ »

فقالت هيلانة : « هي تأذن بكل ما تريده جهان عروس فرغانة لأنها سحرتها . فاذكري للقهرمانة انها تطلب مقابلة صاحبك لتسأله في أمر »

فذهبت الخادمة وعادت به ، فسألته جهان عما علمه فقال : « سألت عن ضرغام ياسيدتي فلم أجد أحدا يعرفه »

قالت : « الم تسأل عنه في قصر الخليفة ؟ »

قال : « سألت عنه فلم اقف على خبره »

قالت : « اظنك لو سألت عن رئيس الحرس لوصلت اليه »

قال : « سألت عن رئيس الحرس فقيل لي ان اسمه الصاحب »

قالت : « هل أنت واثق مما تقول ؟ »

قال : « نعم ياسيدتي وقد دققت البحث عن رئيس الحرس نظرا الى ما رأيت من اهتمام الناس به ، فقيل لي انه رجل شجاع باسل وان الخليفة يحبه حبا جما وقد زوجه فتاة جميلة من بنات قصره وأهداه هدايا ثمينة »

فثبت عندها انه صادق فيما يقول ، وقد كان من الجائز ان يتبادر الى ذهنها ان الصاحب هو ضرغام نفسه لولا حديث زواجه وهي لا تتخيل ان ضرغاما يتزوج ويتركها ، فتأكد عندها ما قصه عليها أخوها من ان الافشين سعى في قتله ، فازدادت ميلا للنقمة وغلب اليأس عليها ونسيت موقفها ، ولم تنتبه الا وخيزران تدعوها فخجلت ونهضت تقصد الى غرفتها للاختلاء فيها . ونسيت ان خيزران نادتها ، فلما خرجت من عند هيلانة لقيتها خيزران فقالت : « الى اين ياسيدتي ؟ »

قالت : « اظنك دعوتني وقد نسيت . ماذا تريدين ؟ »

قالت : « كنت فى حديقة القصر فرأيت بابك خارجا من قصره فظننته خارجا الى الحصون والمعاقل ، واذا به دخل هذا القصر وذكر للقهرمانة انه يريد أن يراك الآن ، فأوعزت الى ان أبلغك ذلك »

فأجفلت وقالت : « بابك يطلب أن يرانى ؟ »

قالت : « نعم وهو فى غرفتك »

قالت : « وفى غرفتى أيضا ؟. ما العمل يا أورمزد ساعدنى . انى أرانى فى ورطة يصعب التخلص منها . أعلمت الخبر الذى جاء به الجاسوس ؟ »

قالت : « نعم ياسيدتى علمته »

قالت : « وما رأيك ؟ » . قالت : يظهر أن مولاى ضرغاما ليس فى سامرا »

قالت : « لايخيفنى غيابه عنها ، وانما يخيفنى ان تصدق رواية أخى سامان ألم تسمعيها ؟ »

قالت : « سمعتها ولكن من يعلم الصحيح ؟ »

كانت جهان وخيزران تتكلمان وهما تمشيان على مهل ، حتى أشرفتا على الغرفة فتراجعت جهان وقالت : « والآن لا بد من مقابلة بابك ؟ ماذا أقول له ؟ . لعل عنده خبرا جديدا »

وسمعت صوت بابك ينادى من داخل غرفتها : « جهان . جهان » . فأسرعت وركبتاها تصطكان ولكنها تتجلد ، حتى اقبلت على باب الغرفة فأطلت على بابك ، وكان جالسا فوقف لها واستقبلها وهو يبش ويبتسم ، فلما رأت ابتسامه اطمأن قلبها ولا سيما عندما وقف لها ورحب بها . وابتدرها قائلا : « انى أقف لعروس فرغانة وان كانت هى تحتقر بابك ولا تقف له »

قالت : « أن جهان لم تحتقر بابك وانما احتقرت خصالا فيه ذكرتها »

قال وهو يجلس ويدعوها الى الجلوس : « واذا نزع تلك الخصال منه هل تحبينه ؟ »

ولاح لها من خلال كلامه انه جاد فيما يقول ، فأظهرت ارتيابها قائلة : « أراك تسخر من فتاة أغضبتك فأحببت التشفى منها ، ولكننى أخلصت لك النصيحة وعرضت نفسى للخطر »

قال والاهتمام باد فى محياه : « لا يا جهان . انى لا أسخر منك ، ولكننى أعملت الفكرة فيما قلته لى فقضيت مدة غيابى عنك وانا أفكر فى أقوالك وحقيقتها تتجلى لى رويدا رويدا . وكلما انجلت شعرت بالخجل من نفسى وندمت على ما فرط منى . كنت منغمسا فى الملذات والاكثار من النساء لانى لم أجد واحدة تملأ عينى وتملك قلبى . ولا أدرى ما الذى غيرته انت من وجدانى . . أرانى قد حدث لى انقلاب لم أعهد مثله من قبل ، كأنك

روح مرسلة الي من عند أورمزد . وانما أربى الآن أن تقــولى لى انك تحبيننى .. » . قال ذلك والعرق يتلألأ على جبينه

فاستغربت انقلابه ولم تخف مداجاته أو خداعه لأنها قرأت الاخلاص فى عينيه وأكبرت ان ترى ذلك الرجل الفظ يتقرب اليها بمثل هذا الكلام

قالت : « هل تعني حقا ما تقول ؟ »

قال : « نعم . وأنت تفهمين أنى لا اداجى . وقد عملت بنصيحتك بعد ان نزلت منزلة الدم من قلبى والسواد من عينى ، فهجرت الخمر وسأترك النساء من أجلك . صدقت يا جهان ان العيشة الهنيئة فى الحب المتبادل . وها أنذا احبك فهل تحبيننى ؟.. لا عذر لك فى الرفض الآن »

فأطرقت ، وفكرت فيما سمعته من أمر فقد ضرغام ويأسها من وجوده. ورأت أن هذا الجبار يخطب ودها ويعاهدها على الانقطاع لخدمتها وهجر الخمر والنساء لأجلها . فحدثتها نفسها بأن تجيبه بالايجاب ، فاعترضها خيال حبيبها فتصورت أنه كان ضالا فوجد فكيف تقابله وبأى عين تنظر اليه . فظلت حينا تتردد وبابك صابر ينظر اليها ويراقب حركة عينيها ، فلما استبطأ جوابها قال : « اظنك تفكرين فى الأفشين »

فلما سمعته يذكر الأفشين ظنته يعلم شيئا عنه فقالت : « وكيف عرفت انى أفكر فيه وما علاقته بى ؟ »

قال : « أليس هو الوصى عليك ؟ » . قالت : « وماذا فى هذا ؟ »

قال : « لا أخفى عليك ما سمعته وان كنت تحاولين اخفاءه . علمت أن الافشين بعد أن جعله أبوك وصيا عليك طمع فى زواجك فرفضت ، أليس كذلك ؟ »

فأطرقت وبدا الحياء فى محياها ولاح الغضب فى عينيها ولم تجب ، فقال بابك : « وان فتاة ترفض الأفشين ملك اشروسنة ، ثم ترفض بابك صاحب أرمينيا عفافا ورغبة فى الفضيلة لجديرة بالعبادة . وقد بلغت أن الأفشين انتقم منك انتقاما جارحا . ولسوف انتقم لك منه أشد الانتقام »

فلما سمعته يلوح بالانتقام من الأفشين مالت الى القبول ، ولكنها بقيت فى قلبها ترجو لقاء ضرغام فقالت : « اذا كنت تعنى ما تقول وانك تنتقم لى من الأفشين فاسمح لى أن انبهك الى أمر . انت تعلم أنى فارسية مثلك وأن ابى مرزبان كبير لم تكن تخفى عليه خافيــة من نوايا الفــرس على العرب . فأنت متآمر مع الأفشين والمازيار صاحب طبرستان على قلب دولة المسلمين . أليس كذلك ؟ أصدقنى »

قال : « صدقت هذا هو الواقع »

قالت : « فما معنى أن يحاربك الأفشين بجيش من المسلمين ؟ »

قال : « انه يتظاهر بنصرته للمسلمين ليجمع أموالهم ويرسلها الى بلده ومتى توافر المال اتحدنا جميعا وقلبنا هذه الدولة »

فنظرت اليه نظرا نافذا والارتياب باد فى عينيها وقالت : « أتكون قائد هذا الجند وزعيم العصبة الخرمية والناس يجلون قدرك ويسجدون لك ، ثم تنطلى عليك هذه الحيلة ؟ »

قال : « ولماذا تعدينها حيلة ؟ . انى أعرف الأفشين من قبل . وقد اجمعنا وأقسمنا على هـذا الأمر منذ بضع عشرة سنة ومعنا صاحب طبرستان ، وما زلنا نجدد العهد كل عام فأى نفع له فى خداعنا ؟ »

فتفرست فى عينيه وقالت : « ان الأفشين يخدعك ليكسب المال ، لانك ان لم تقم لحرب المسلمين لا يبقى له باب للارتزاق ، أما المازيار صاحب طبرستان فقد يكون اخلص طوية ولكنه لا شأن له فى عملك . فاذا شئت أن اجيبك الى ما طلبته منى فلا أريد لك أن تكون مخدوعا تحارب برجالك فاذا فزت طالبك الأفشين بحق الشركة واذا هزمت استفاد من هزيمتك »

فانتبه بابك كأنه هب من رقاد ، ورآها قد ازالت غشاوة عن عينيه ، وشعر بسلطانها عليه فقال : « بورك فيك . نعم الرأى رأيك . لا شك أن الأفشين مداج »

قالت : « فمثلك يجب أن يكون صاحب الأمر واليه المرجع لا شريك له يقاسمه ولا منازع ينازعه . فاذا رايت ذلك كنت انا عونك فى سراء السلم وضراء الحرب ، على الا يتم زواج بينـنــا الا بعد الفراغ من هذه الحرب ، وعند ذلك افخر بأنى حظيت بأكبر رجل فى فارس »

فتوقدت حماسة بابك وقال : « ولكن قولى قبل كل شىء . هل تحبيننى منذ الآن ؟ »

قالت وفى شفتيها ابتسامة الظفر : « ومتى كان الحب يهمك ؟ »

قال : « عندما وجدت المرأة التى تستحق محبتى ، فأرجو أن أستحق محبتها . فهل تحبينني ؟

فأمسكت نفسها لحظة ثم قالت : « نعم .. لا .. » . ولم يطاوعها لسانها فقالت : « احبك محبة الأخ حتى تفرغ من هذه الحرب »

قال : « يكفينى ذلك يا جهان »

فاستدركت وقالت : « وارجو الا يعرفنى الناس بهذا الاسم لأنى قد أخطب فى الجند وربما شاع ذكرى ، فلا أحب أن يعرفنى الافشين أو غيره . فليكن اسمى منذ الآن جلنار »

قال : « اتفقنا ياجلنار » . وشعر لساعته براحة ولذة فكأنه انتقل من مرة الأشرار الفاسقين الى صحبة الأبرار المحبين . وليس من حافز على هذا الانقلاب الخير الا نعمة الحب الصادق ، فانه لم يكن يعرف من اللذة

الا الانغماس فى شهوات الجسد ، ولم يذق طعم الحب العذري المتبادل بينه وبين فتاة تملك قلبه وتملأ عينيه .. فتبدلت حاله وعادت اليه أريحيته وأصبح منقادا لجهان لا يقطع امرا الا برأيها ولم يعرفها أهل البذ الا باسم « جلنار » لأنهم لم يكونوا قد عرفوها من قبل

وتحفز بابك للذهاب وهو يقول : « اليوم بدء أيام سعادتي يا جلنار ، فاني لم اكن اسعد حالا مني فى هذه الساعة » . ووقف وأتم حديثه فقال : « انما لي رجاء لا اظنك تخالفينني فيه ، ذلك ان خاصتي تعودوا مجلس الشراب ؛ وفيهم المولعون بالخمر ، ولم يوفقوا الى من يهديهم الصراط المستقيم بعد ، واخشى ان فاجأتهم بابطال هذه العادة ان يغضبوا . وأنا فى حاجة اليهم فى هذه الحرب ، فأرى أن أسايرهم وأجالسهم وأوهمهم أني أشرب معهم حتى نرى ما يكون »

قالت : « لا بأس ، على ان تتلطف فى جعلهم يقلعون عما ألفوا بالتدريج »

فأشار مطيعا ، وتمت المعجزة اذ انقلب مثال الاستبداد والعنف الى مثال لين العريكة . وفى هذا ما يدل على قوة سلطان المرأة العاقلة اذا هي أحسنت الأسلوب فى رد الرجل عن النقائص . ولن تستطيع شيئا من ذلك الا بأن تجعله يحبها فمتى ملكت قلبه ملكت زمامه . أما اذا أرادت اصلاحه بالانتقاد فقد تزيده تمسكا بزلاته

ولا تسل عن فرح جهان بما حدث لبابك وقبوله ما اشترطته ، لما فيه من صيانة نفسها حتى تتحقق أمر حبيبها والانتقام من الأفشين . وتذكرت فى تلك اللحظة أخاها سامان فاستوقفت بابك وقالت : « لي طلبة أرجو أن تقضيها »

قال : « لك ما تريدين »

قالت : « سامان . أخي . أنت تعرفه وتعرف أنه خانني وغدر بي . لا أطلب الانتقام منه ولكنني اريد ابعاده عن هذه المدينة ، لأن فى وجوده خطرا على الجيش . لا أطلب قتله أو سجنه بل أكتفي بابعاده لنأمن شره »

قال : « هذا ماكنت عازما عليه ، وان كنت قد أفدت من خيانته .. اذ لولاه لم أحظ بعروس فرغانة ، وقد يخونني كما خان أخته ، وسأنفيه من هذه الديار . والآن الا تريدين الاقامة معي بقصري ؟ »

قالت : « دعني فى هذا القصر كما أنا ، فاني مستأنسة بأهله ، وان أردتني لمشورة أو تدبير فانا نلتقي على موعد »

فأذعن وهو يبتسم وينظر فى وجهها نظر المحب المتهيب . فوقفت وهشت له فودعها وهو يقول : « نحن على وفاق منذ الآن . فهل أنت تحبينني ؟ »

قالت : « اننا اخوان. انت أخي بابك احبك محبة الأخ لأخيه وأرعاك رعاية الأخت لأخيها ، وسترى اني أبذل نفسي فى سبيل راحتك »

يأس ضرغام

كان ضرغام قد بث العيـــون والجواسـيس يبحثون عن جهان فى أنحاء المشرق،وفيهم من سافروا الى فرغانة ، فلبث حقبة من الدهر ينتظر رجوعهم فعادوا وما فيهم من سمع خبرا أو عرف شيئا يهديه الى مكانها فضـــاقت الدنيا في عينيه بما رحبت وغلب عليه اليأس وأخـذ يفكر فى المجرم الذى سبب فقدها ، فلم يجد غير الافشين ، ثم تذكر ما عرفه عن سامان ونفاقه وغدره فارتاب فى أمره · وكان يقضي أيامه وحيـدا في منزله الا اذا خرج المعتصم واصطحبه للصيد أو الرياضة أو الصلاة ، وكان يستأنس بياقوتة استئناسا كثيرا لكمالها ومشابهتها لجهان . وكلما نظر اليها تذكر صاحبه حمادا وود من صميم فؤاده أن يجمعها به لعله يوفق الى من يجمعه بحبيبته

ولما طال انتظاره وانقطعت أخبار جهان عنه ويئس من وجودها ، استولت عليه السويداء ولم يعد يرى للحياة معنى ، وود لو أنه يشغل نفسه بحرب أو نكبة أو مرض ، أو أن يموت ويتخلص من عذاب الشوق والقلق · وسبيل الموت الانتحار وهو يعده جبنا لا يقدم عليه غير الضعفاء اذا غلبوا على أمرهم أو خولطوا فى عقولهم · ومع هذا فان في نفسه بقية أمل فى العثور على جهان · وكبر عليه أيضا أن يموت ولا يثأر لها فوقع فى حيرة وظهرت حـــيرته في وجهه فلم يكن يراه أحد الا تبين فى محياه القلق رغم ما يحاوله من التكتم ، ولاسيما أمام أمه لئلا يحزنها ، ولم تكن هى لتخفى حاله عليها · فكان اذا سألته عن جهان وأخبارها قال : « انهم لم يقفوا لها على خبر وقد أرسـلت آخرين لجهات أخرى ، فلعلهم أن يعثروا عليها » · وكانت أمه توهمه انهــا صدقت قوله وتزيده أملا بلقائها فأصبح ولا تعزية له غير وردان ، وأصبح على طول العشرة أقرب الناس اليه · فكان اذا سئم أو قلق شكا اليه حاله واستشاره فى أمره ، فيخفف وردان عنه · فسمعه مرة يتذمر ويسأم الحياة وهو يتمشى فى حديقة القصر معه فقال له : « مثلك لا يجوز أن يضعف الى هذا الحد يا مولاى »

قال : « لا تقل مولاى ، لأنك صديقي يا وردان · ولذا ترانى أشكو اليك همى وأكشف لك نفسى ، انى لا أرى معنى للحياة مع اليأس من لقاء جهان»

قال : « لكل نفس أجلها لا تؤخر ساعة ولا تقدم ساعة ، فاصبر ان الله مع الصابرين »

قال : « لقد مللت الصبر ، ولا أرى راحة الا في الموت . ولـكنني أحتقر المنتحرين »

فأحب وردان أن يبدى رأيا يرتاح اليه ضرغام ويصادف هوى في نفسه هو منذ جاء العراق فقال : « أمثلك يكره الحياة ويعجزه السبيل الى الموت وهو من خاصة المعتصم وكبار قواد المسلمين والحرب قائمة لا يخمد سعيرها بينهم وبين جيرانهم من الفرس أو الروم أو العرب ؟ »

فنبه كلامه ضرغاما ، وكان ينبغي أن ينتبه من قبل فقال : « صدقت ان الموت في ساحة الوغى ميسور لمثلى ، ولكن أمير المؤمنين يلزمنى صحبته ، فقد جعلني صاحبه ومنعني من السفر »

فقال : « لا أظنه يمنعك بعد الآن » . قال : « ولماذا ؟ »

قال : «لأن الأخبار تتوالى باستفحال أمر الحرمية في أرمينيا حتى ضاق الافشين ذرعا ببابك وحصونه »

قال : من أنبأك بهذا ؟ . كنت أحسب الأمر على عكس ما تقول والخليفة لا يخفى على شيئا »

قال : « ان الخليفة لا يخفى عليك أمرا يعرفه ، ولكنه لا يعرف ذلك ! »

قال : « هل تعرف شيئا عن هذه الحرب لا يعرفه الخليفة ؟ »

قال : « نعم يا سيدى ، لأن الوزراء ورجال الخاصـــة يرون من حسن السياسة كتمان بعض الأخبار عن الخليفة »

قال : « صدقت ولكنني من الخاصة ولم يبلغني شيء مما تشير اليه »

قال : « ولا أظنه يبلغك من سواى لأني سـمعته من مصدر لا علاقة له برجال البريد الذين يحملون الأخبار الى الخليفة »

فاستغرب ضرغام ذلك وقال : « ماذا سمعت ؟ »

قال : « سمعت ان بابك الحرمى تضاعفت قوته بعد أن انتقل من اردبيل الى البذ واتخذها حصنا له »

فقطع ضرغام كلامه قائلا : « هذا سمعناه بالأمس »

قال : « وهل عرفت سبب قوته بعد أن كاد يعمد الى الفرار »

قال : « نعم . انه اســـتقوى بمن انضم اليـه من الاقوام الناقمين على المسلمين »

فابتسم وردان وقال : « هـذا هو السبب الفرعى ، ولعله يبلغ الخليفة اليوم على يد صاحب البريد . أما السبب الأصلى فهو غير ذلك »

قال : « وما هو ؟ » . قال : « أخبرني بعض القادمين من ارمينيا خبرا كدت أنكره لولا ثقتى بالناقل ، ذلك ان بابك المشهور بالتهتك والانغماس بالمسكر والفحشاء قد تاب وأناب وأصبح اذا جالس رجاله لا يشرب معهم ،

وقد انقطع الى تدبير أمور جنده واستجماع قواه واستنهاض النـــاس على المسلمين - أخبرني بذلك رجل يعرف دخائل البذ . وهم يتسببون هـــذا التغيير الى امرأة من نسـائه ذات عقل وتدبير اســـمها جلنار ملكت قياده وتصرفت في أموره »

فأطرق ضرغام لحظة وقد ساءه رجوع بابك عن رذائله لأنه كان يرجـو أن تكون عونا لهم عليه - وكان يفكر في ذلك وهو واقف بجانب شجرة من التفاح يتلهى بضرب ثمارها المتـدانية بخيزرانة في يده ووردان واقف بجانبه - واذا بغلام من غلمان الخليفة جاء مسرعا - فلما رآه ضرغام علم انه قادم من عند الخليفة يدعوه ، فالتفت الى وردان وقال : « أظن الخليفة يدعوني لاطلاعي على أخبار الحرب »

قال : « اذا رأى مولاى أن يكون في هذه الحرب فليأمر أن أكون في خدمته، لأني أعلم أحوال تلك البلاد وطرقها وقد أنفعه »

قال : « حسنا » · واتجه الى المنزل ولبس قلنسوته وسواده ، وقصد الى دار الخاصة في قصر الخليفة ، فوسع له الحاجب وأدخـله بلا استئذان ، فلم يجد عند الخليفة الا القاضي أحمد ، ولكنه قرأ في محياه القلق والغضب · فلما أقبل وحيى بش له الخليفة وأمره بالجلوس فجلس ، فقال له الخليفة « أرى الصاحب قد مل القعود في هذا القصر وشبعت نفسه ترفا فاشتاق الى ميدان الوغى وخوض المعامع »

فأدرك ضرغام أن الخليفة يمهد له طلب السفر الى القتال ، وأنه لم يفعل الا وهو يرى الحاجة ماسة الى نجدته فقال : « ان البقاء الى جوار أمير المؤمنين نعمة وبركة ، ولكن الضرب بسيفه فرض مقدس · وقد طالما حدثتني نفسي أن ألتمس من أمير المؤمنين أن يرمي بي في هـــذه الحرب القائمة بأرمينيا ، فاذا أذن لي في ذلك فانه يغمرني بفضله وأنا في كل حال صنيعته وربيب نعمته »

فاستحسن الخليفة ذكاءه ونظر الى القاضي احمد فالتفت القاضي الى ضرغام وقال : « ان أمير المؤمنين ضنين بك حريص على قربك ، ولكنني لحظت منك في هذه الايام انقباضا حسبته ناتجا عن هذا الانحباس ، فان القائدالشجاع لا يسر الا بخوض المعامع والظفر في الحرب،ونحن الآن في حرب بأرمينية، وقد صبرنا على ذلك المتمرد لاعتصامه في حصونه · فأشرت على أميرالمؤمنين بأن يوجهك اليه فيأتي النصر على يدك »

فقال : « اني على ما يريد أمير المؤمنين وأنا على أهبة السفر هذه الساعة»

فقال الخليفة : « أنت تعلم أن جند المسلمين في أرمينية بقيادة الافشين ، فهل يشق عليك أن تكون من قواده »

قال : « انما أنا سيف من سـيوف أمير المؤمنين ، فليستلني رئيسا أو مرؤوسا »

فهش له الخليفة وقال : « بورك فيك . وسأبعث الى الافشين ان يعرف قدر الصاحب قبل سائر القواد »

فوقف ضرغام وقال : « يأذن لى مولاى في أن أسافر مصحوبا بدعائه وبركته . وأرجو ألا أعود اليه الا وقد فتح البذ وقتل بابك الطاغية »

فابتسم له الخليفة وأمر أن يخلع عليه ، فخرج وقد زال قلقه

وكان وردان فى انتظاره بباب القصر ، فأخبره بما تم ، وقال له : «كنت أحب أن تبقى قريبا من أمى هنا »

فقال : « لا بأس عليها فهى فى قصر الخليفة وبين يديها الخدم والموالى »

ومضى الى أمه فأخبرها بأن الخليفة أشخصه الى ميدان القتال، فاستحسنت الأمر وشجعته وقالت : « أطلب الى الله أن يعيدك ظافرا »

ثم تقدم الى ياقوتة وحياها ، فلما علمت بأنه يتأهب للسفر دمعت عيناها فقال : « ادعى لى بالتوفيق لعلى أرى حمادا فى طريقى · لا تحسبينى غافلا عن أمره » · قال ذلك وتنهد تنهدا خفيا وتذكر مصيبته بفقد حبيبته

فأجابته ياقوتة بدمعتين أرسلتهما على خديها وهى مطرقة لا تتكلم ، فتركها وخرج فأمر وردان بالاستعداد للسفر، وبعد أيام ودع أمه وأوصاها بياقوتة خيرا ، وسافر فى فرقة من خاصة رجال الفراغنة الأشداء

جرت بين جند المسلمين والخرمية مواقع عديدة فى أردبيل وغيرها انتهت بتخلى الخرمية عن أردبيل ، واستقروا فى البذ مدينة بابك وهى مدينة حصينة أو قلعة كبيرة مؤلفة من قصور وقلاع حولها سور ضخم له الابواب الكبيرة وعليه الابراج الكثيرة والطريق اليها وعر بين الجبال والأودية · واقتفى جند المسلمين أثر بابك عندما فر الى البذ · وبين البذ وأردبيل محطات عدة جعلها المسلمون نقطا عسكرية تحفظ لهم خط الرجعة ، وتضمن الاتصال مع سامرا مقر الخليفة · فكانت الميرة القادمة من العراق اذا دخلت أرمينية أنزلوها فى أردبيل ، ومن هناك ينقلونها الى نقطة عسكرية اسمها « حصن النهر » ثم يعود حراسها الى أردبيل ويتولى حراستها جند آخرون من « حصن النهر » الى أرشق وهكذا الى خش فبرزند الى « روذ الروذ » وهى آخر محطة قبل البذ وبينهما بضعة فراسخ

وكان الافشين قد كلف جواسيسه أن يختاروا مكانا حصينا يعسكر فيه، فاختاروا فى « روذ الروذ » ثلاثة جبال عليها أنقاض أبنية قديمة ، فأقام عسكره عليها وسد الطرق الموصلة بينها وبين البذ بالأحجار الضخمة حتى صارت كالحصون ، ثم حفر خندقا وراء الحجارة عند كل طريق ما عدا طريقا

واحدا يخرج منه رجاله اذا أراد الهجوم ، وقد بذل في هـذا العمل جهدا شديدا فكان الرجال ينقلون الحجارة ويحفرون الخنادق، والعساكر يحرسونها ليلا ونهارا

وكان « روذ الروذ » واد بين آكام وعـرة ، فعبى رجاله وعهـد الى كل قائد من قواده ، بفرقة منهم ، وهم ثلاثة : جعفر الخياط ، وأبو سـعيد ، واحمد بن الخليل . أقامهم في محطات بينه وبين البذ قبل الوادى الفاصل بينهما ، فأصبح معسكر الافشين كبيرا جدا اذا أراد النهوض أو السير به جعل الاشارة ضرب الطبول لبعد المسافات واحتجاب الفرق بعضها عن بعض بالجبال والأودية . فاذا سار ضرب الطبول ، واذا وقف أمسك . فيقف الجند جميعا أو يسيرون جميعا في مصـافهم وعلى ترتيبهم . وكان للأفشين معسكر أقامه على آكمة يشرف منه على « البذ » ويرى قصر بابك وغيره من قصور المدينة

وكان بابك كثير الاعتماد في حروبه عـلى طوائف من رجاله يرسـلهم ليكمنوا في الأودية وراء التلال ليفاجئوا جند المسلمين ويغدروا بهم . وكان الأفشين يهتم كثيرا بقطع دابرهم فيرسل الجواسيس أو الكوهبانية للبحث عن الكمين

قضى في ذلك الحصار مدة طويلة وهو يشاغل الخرمية فيأمر قواده فيقطع الواحد منهم الوادى الى الجانب الآخر ازاء البذ في كردوس من رجاله فيقف بهم هناك فيخرج بابك فرقة من جنده تحمي باب السور وتمنع الأعداء منه، فاذا انقضى النهار أمر الافشين رجاله بالعودة الى معسـكرهم وراء الخندق ويبيتوا هناك ، فتضايق الخرمية من هذه المنـاورات فعزموا على الفتك بهم فراقبوا رجوع كراديس الافشين من جانب الوادى ذات يوم كالعادة حتى لم يبق منهم الا جعفر الخياط بكردوسه فخرجوا عليه وارتفعت الضـجة فرجع جعفر ورد الخرمية بنفسـه الى باب البذ وتصـايح الجند حتى بلغت الضجة الافشين فرأى جعفرا وأصحابه يقاتلون فخاف أن يفسدوا عليـه خططه

أما جعفر فجاءته نجدة من المتطوعة وهي فرقة تنصر المحـاربين رغبة في الغنائم والسبي فاشتد أزره وهجموا على السور وتعلقوا به وكادوا يصعدونه ويدخلون المدينة فبعث اليه الافشين يقول : « انك أفسـدت على تدبيرى فتخلص قليلا قليلا وخلص أصـحابك وانصرف » . ثم تحركت كمناء بابك فاضطر جعفر الى الرجوع أسفا لضياع الفرصة

وبقي المتطوعة بعد ذلك أياما يقاتلون وحدهم حتى قلت علوفتهم ومؤونتهم وهم يتذمرون ويقولون : « لو أنجدنا الافشين لدخلنا البذ » . وضج سائر الجند وطلبوا أن يبادروا بالقتال فكأن يماطل خشية الفشل . أو لعله كان يطاول رغبة منه في جمع المال . لان المعتصم كان قد جـعل له على كل يوم

يركب فيه عشرة آلاف درهم ، وعن كل يوم لا يركب فيه خمسة آلاف درهم، ما عدا العدة والمؤونة . فجمع من ذلك مالا كثيرا كان يرسله الى أشروسنة

وكان الافشين جالسا ذات يوم في فسطاطه المطل على البذ ، فوقع نظره على جماعة من رجاله يقودون رجلا عليه لباس أهل تلك المنطقة ، وما وصلوا به إليه حتى عرف أنه سامان أخو جهان ، فأجفل ولكنه توقع أن ينتفع به فصاح بالرجال أن يتركوه ، فتقدم سامان مطأطىء الرأس وجثا بين يدى الافشين ، فأمره هذا أن يقف وبش له وقال : « من أين أتيت ؟ »

قال : « من البذ يا سيدى »

فأشار اليه أن يقعد فقعد متأدبا ، ثم سأله : « ما الذى أدخلك هذه المدينة ؟ »

فهز رأسه وقال : « أتيت اليها في خدمة مولاى الافشين »

قال : « وكيف ذلك ؟ » . قال : « ما زلت منذ تشرفت بلقيا مولاى في سامرا أبحث عن جهان عملا بأمره حتى علمت أنها عند بابك ! »

فدهش الافشين لقوله وصاح به : « جهان هنا الآن ؟ . هنا في البذ ؟». قال : « نعم يا سيدى »

قال : « وما الذى جاء بها الى هذا البلد البعيد ؟ »

قال : « أخبرتك يا مولاى أن اللصوص خطفوها مني بقرب همذان ، وما زلت أجد في البحث عنها حتى علمت أن بابك هذا هو الذى بعث رجاله لاختطافها لأنه سمع بجمالها ، وكان قد خطبها من أبي فرده خائبا . وكأنه أقام الكمناء يترقبون خروجها حتى تمكن من غرضه »

فقال : « ثم ماذا ؟. ألا تزال هنا ؟ »

قال : « ان أمر أختي يحيرني ، فهي لا تستقر على حال فبعد أن رفضت نعمة صاحب اشروسنة ، رضيت ببعض رجاله ، ثم عادت فرضيت ببابك وأصبحت أقرب نسائه اليه وتتفانى في نصرته . وكم نصحت لها أن ترجع عن غيها وحسنت اليها المجيء الى الافشين لأنه ولى نعمتها فأبت . فلما رأيتها مصرة على عنادها تركتها وجئت اليك »

قال : « بورك فيك ، لكني علمت من بعض الجواسيس أن أعز نساء بابك اليه امرأة اسمها جلنار يقولون انها حازمة حسنة التدبير ، وانها أعانته وشدت أزره كثيرا »

فقال : « هي جهان نفسها يا سيدى وقد غيرت اسمها تمويها . ووعدت صديقها الجديد أن تنصره على جند المسلمين فهى تتفانى في نصرته، ولولاها لقضى عليه من زمن مديد »

وكان الافشين يعلم خبث طوية سامان ولكنه جاراه رغبة في الاستعانة به على أمر لا يصلح له غير الخبثاء ، ولم يفته ان سامان يكرهه ولو استطاع قتله لقتله،فعمد الى المداجاة وهز رأسه وحك ذقنه وأصلح قلنسوته وتحرك في مقعده وقال : « بئس ما كافأتنا به هذه الفتاة على احساننا فقدأغضبناك لأجلها فعقتنا ، وعسى يا سامان أن تكره شيئا وهو خير لك »

ثم سكت عن الكلام قليلا وعاد فقال : « ألم يعلم ضرغام ان جهان هنا ؟ »

قال : « كلا ، ولا هي تعلم بأنه على قيد الحياة »

فلم يصدق قوله وسأله : « وكيف هذا وضرغام لا يدخر وسعا فيالبحث عنها »

قال : « قد ساعدني على هذا تغيير الأسماء . كن على يقين أنها تؤمن بما قلته لها من أنه قتل ، وهو ما يزال يعتقد أنها خطفت الى مكان مجهول . وقد فعلت أنا ذلك حسبة لوجه مولاي الافشين رغم ما قاسيته من اعراضه وحرماني » . قال ذلك ونظر الى الافشين وعيناه ترقصان حولا

فقال الافشين : « لقد وثقت الآن باخلاصك ، فاذا زدتني يقينا باكمال سعيك كنت من الغانمين »

قال : « اني طوع الاشارة ، سل ما تشاء أبذل نفسي في خدمتك »

قال : « ذكرت أنك كنت في البذ فما الذي تعرفه عن أهله وحصونه وجنده ؟ »

قال : « ان المدينة منيعة كما ترى وفيها الجند والأسلحة ، والخرمية متضامنون في أموالهم وأنفسهم ، يتفانون في خدمة زعيمهم ، ولكنني أرجو أن يغلبوا على أمرهم »

قال : « بماذا ترجو ذلك ؟ »

قال : « أرجوه مما أعلمه من دخائل هذا البلد . فأنا أعرف أن فيها من الأسرى المسلمين وغيرهم عددا كبيرا ، منهم سبعة آلاف وستمائة منالنساء والأطفال ، ويقدر عدد الذين قتلهم بابك بنحو ٢٥٥ ألف نفس . وأعرف أن الناس قد ملوا سيادته حتى المقيمين ببلده،فاذا تمكن عشرون رجلا منكم أن يدخلوا المدينة ويراهم الناس فأهلها جميعا يستسلمون »

قال : «ما رأيك في الجهة التينهاجم البلد منها حتى نضمنالدخول اليها»

فوقف سامان وأشار بيده الى جبل في طرف البذ وقال : « من هنا يا سيدي . أرأيت هذا الجبل ؟ . ان بابك يقيم الكمناء في سفحه لعلمه أن العدو اذا تجاوزه سهل عليه دخول المدينة ، فاذا احتال مولاي في الاتيان من ورائه ظفر »

فسر الافشين من قدوم سامان،وهم بأن يستزيده ايضاحا فاذا بالحاجب دخل يقول : « ان بريد أمير المؤمنين بالباب » - قال : « يدخل »

فدخل البريدى وعلى وجهه أمارات السفر والتعب وعلى صدره صفيحة البريد النحاسية وعليها علامة خاصة - ووقف فناداه الأفشين : « تقدم · ما وراءك ؟ »

فتقدم البريدى ودفع اليــه لفافة حريرية عليها خاتم الخلافة ، فتناولها وقبلها ثم فض خاتمها فاذا داخلها أنبوبة من فضة مختومة ففتحها وأخــرج منها كاغدا ملفوفا نشره وأخذ يقرؤه وسامان يراعي حركاته وملامح وجهه فرآها تغيرت ، حتى اذا فرغ من تلاوته أشار الى البريدى فانصرف،والتفت الى سامان وابتسم ليزيده استئناسا وترغيبا فى خدمته ، وكان ســـامان واقفا فأمره بالجلوس وقال : « أتعلم ما فى هذا الكتاب ؟ »

قال : « من أين لى علم الغيب ؟ »

قال : « انه كتاب المعتصم يخشنى فيه على الثبات ، ويبشرنى بأنه أرسل الى نجدة بقيادة صاحبه ضرغام »

فقال سامان : « أترى صاحب أشروسنة فى حاجة الى النجدة وهو الملك والقائد ، وجنده يملأ السهل والجبل ؟ »

قال : « كلا · وأمير المؤمنين يعلم ذلك · وأخشى أن يكون الرجل قادما لغير الحرب · أخشى أن يكون قد عرف أمر جهان ·· وسواء على أعلم أم لم يعلم فجهان لا يمسها أحد سواى ، ان لم يكن حبا لها وافتتانا بها فانتقاما من كبريائها وقحتها · انى لا أنسى ذلك اليوم فى فرغانة »

فقال سامان : « أما ضرغام فلا شك أنه لم يعلم بأن أختى هنا ، بل هو لا يعتقد أنها على قيد الحيــاة - وقد يكون كره الحياة بعدها لكلفه بها فأتى الى ساحة القتــال رغبة فى الموت ، فانى أرى فى الناس جنونا لم أجربه · أراهم اذا أحب أحدهم فعل فعل المجانين حتى يجازف بحياته غراما بحبيبه، واذا توفى الله أحدهم أراد الآخر أن يتبعه »

فضحك الافشين حتى بانت نواجذه وقال : « ان كان قد جاء يطلب الموت فأهلا به ومرحبا · له علينا ذلك حبا وكرامة · أما ما تراه من جنون المحبين وهيامهم فأنت معذور لأنك أجرود لا تشعر شعورهم » · ثم أطرق هنيهة وقال : « اذا هجمنا غدا على البلد ودخلناه فأين تكون أختك ؟ »

فوقف سامان والتفت الى البذ وأشار بيده وقال : « أرأيت هذا القصر الفخم عند الباب الشرقى ؟ هذا قصر النســـاء وبه تقيم جهان - ومن أراد الوصول اليه حالا فليأته من ذلك البـــاب » - ثم أشـــار بيده الى قصر فى

الغرب وقال : « وهذا القصر عند الباب الغربي قصر بابك نفسه ، وهوأمنع القصور ولا يهاجمه أحد الا قتل . فاختر لنفسك »

وتحرك الافشين في مقعده ، فنهض سامان واستأذن ، فقال له الافشين: « تمكث عندنا لنستأنس بك ولا تخرج من هذا المعسكر الا للضرورة ».

ففهم سامان قصده فقال : « أحب أن أكون أسيرا عندك حتى تتحقق من اخلاصي وأتقدم اليك أن تبقى خبري مكتوما عن ضرغام وغيره والا فسد تدبيرنا »

فأشار الافشين برأسه موافقا ، ثم نادى غلامه وأمره أن يكرم سامان ويحتفظ به ، فخرج سامان من حضرته وقد سره أن الافشين أحسن لقياه ووعده بارث أبيه انتقاما من أخته . واستبشر بقرب الانتقام من أخته متى جاء ضرغام فيكيد له ويسعى في هلاكه . ونسي أنه كان ناقما على الافشين وقد استعان بضرغام عليه وأن أخته صاحبة الفضل الأكبر عليه . ولكنه يجري في أعماله على هوى منافعه فهو لا يغضب من الافشين لأنه تعدى حدود الوصاية أو لأنه أراد السوء باخته ، وانما أبغضه لأنه حرمه من الارث . ولم يحب ضرغاما لشهامته وأريحيته أو نسبه وانما أظهر حبه له ليستعين به في نيل مرامه . ثم انه لم ينقلب هذا الانقلاب في الحالين الا جريا وراء ما يفيده فلم يكن له قلب يحب ولا وجه يخجل . ولكنه ملتفت بكل جوارحه الى حب المال ، وزاده حبا فيه يأسه من احترام الناس له لسجاياه أو مناقبه فأراد أن يكسب احترامهم بالمال ظنا منه أنه متى صار غنيا احترموه وأجلوا قدره . وسيان عنده أحبوه أم أبغضوه !

سقوط البذ

لما خلا الافشين الى نفسه بعد خروج سامان فكر مليا فيما سمعه منه فصادف هوى في نفسه ، وسيان عنده فعل سامان ذلك حبا له أو خوفا منه أو طمعا في تغيير الوصية ، وأعاد ما سمعه عن جهان وتذكر جمالها وكبرياءها فسره أنه ظفر بها ، وأنها متى وقعت في يده هذه المرة فلا مفر لها منه ، ثم تذكر ان ضرغام هو العقبة الوحيدة في سبيله ، وفكر فيما لمح اليه سامان من الاحتيال لايقاعه ، فاعتزم ذلك

وقضى أياما في مثل هذا المنى حتى جاءه صاحب الخبر منبئا بقدوم الصاحب مع رجاله · وفي صباح اليوم التالي جاء ضرغام فرحب به الافشين وأثنى على رغبته في نصر الدولة · فأجابه الصاحب شاكرا ، ولحظ الافشين في وجهه تغيرا مما أحدثه يأسه من جهان ، فلم يبال وجعل يبالغ في اطراء بسالته وعلو همته فقال ضرغام : « لا فضل لنا في خدمة الدولة ونصرة الدين الحنيف »

قال : « صدقت وقد جئتنا في ابان الحاجة اليك فاني لا أرى بين قوادي من يركن اليه في المهمات غيرك ، وقد خبرتك وعلمت شجاعتك وصبرك »

فقال ضرغام : « كنت قد استطلت الحرب واستبطأت الفتح فلما رأيت هذه الحصون ووعورة الأرض أيقنت ان الافشين قد أتى بما لا يستطيعه الا الابطال وما أنا من يزيد في اقدامه أو يسهل فتحه ، ولكنني مللت القعود وأحببت أن يكون لي في هذه الحرب نصيب · فارم بي حيث تشاء »

فتأكد الافشين من يأس ضرغام ، وأحب تغيير الحديث ليهيىء له مهلكا فقال : « بورك فيك · لابد أن تستريح أولا من عناء السفر ·· اخبرني عن أهل سامرا كيف هم وكيف أمير المؤمنين »

قال : « كلهم في قلق من أمر بابك هذا ولكنهم يثنون على ثبات الافشين وحسن تدبيره ··· وقد آنست من الخليفة رغبة في انهاء هذه الحرب فجئت لألقي نفسي في أقرب السبل الى ذلك عسى أن أتعجل الشهادة »· قال ذلك وأبرقت عيناه بريقا حادا قرأ الافشين خلاله حديثا طويلا فقال : «غدا ننظر في ذلك . وأما الآن فاخرج بنا نطلعك على معسكرنا ومواقع القواد ونظام الخنادق والحصون والمكامن » · ونهض وأمر أن تهيأ الأفراس

فنهض ضرغام وهو يقول : « قد رأيت بعض هذه المعاقل فعلمت أن مولانا

الافشين قد آتى فى تنظيمها بالمعجزات »

وقضى الرجلان بقية اليوم فى التجول بين الحصون والاستحكامات. فرأى ضرغام جندا كبيرا وتدبيرا حسينا ، وسره اهتمام الافشين باطلاعه على ذلك من تلقاء نفسه فقال له : « ان مثل هـذا الجند لا ينبغى أن يصبر على فتح البلد طويلا »

قال : « غدا أقص عليك سبب الابطاء » . وافترقا

فذهب ضرغام الى فسطاطه وكان وردان فى انتظاره وقد أصبحا صديقين حميمين . فلما اجتمعا قص ضرغام عليـه ما لقيه عند الافشين الى أن قال : « وقد وعدنى الافشين أن يسرع فى القتال ، وألححت عليه أن يرمى بى فى أخطر المواقع فاذا لم أرجع فانى أعهـد اليك منذ الآن فى العنـاية بأمى المسكينة » . قال ذلك واختنق صوته فتنحنح حتى يخفى اختناقه وعاد الى اتمام الكلام فقال : « وأنت تعلم ما قاسته فى محبتى . أما ياقوتة فاحتفظ بها ريثما يمن الله عليها برجوع خطيبها . وأظنك تعرفه . وأما جهان فاذا كانت على قيد الحياة ولقيتها بعد موتى فبلغها ما تعلمه من وجدى ! »

فقطع وردان الحـديث وقال : « لا توصنى فانى لن أبقى بعـدك ، وما صحبتك الا لأكون معك حيثما ذهبت »

قال : « انى ألقى بنفسى الى الهلاك فرارا من حيـاة لم يعد لى لذة فيها ، فما خطبك أنت ؟ »

فتنهد وردان وأطرق وذرفت عينـاه دمعتين تقطرتا من مآقيه ، وكأنه خجل فرفع بصره ، وقال : « ان نصيبى من اليأس كبير جـدا ، ولو علمته لطلبت لى أن أسير الى الهلاك أمامك واذا بقيت حيا قصصته عليك . ومهما يكن من شىء فمصيرى رهن بمصيرك »

فأعجب ضرغام بأريحيته ، وكان قد شعر بشىء مما يجول بذهنه ، ولم يشأ أن يستطلعه الا اذا هم هو بنفسه بأن يكشف عما به ، فقال : « لك ما تريد يا وردان ، وغدا نرى ما أعده لنا الافشين من المهام »

أما الافشين فقضى تلك الليلة مع سـامان يكيدان لضرغام . وفى صباح اليوم التالى زار ضرغام الافشين ومعه وردان . فوجداه وحـده ، وسأله ضرغام عما استقر عليه رأيه فقال : « لا أزال أرى التريث فى الحصار برهة أخرى »

فأجفل ضرغام لهذا التغيير وساءه تأجيل الهجوم فقال : « ولماذا ؟ »

قال : « انى أرى هجومنا اليوم مجازفة لا تحمد عقبـاها . فقد قضيت البارحة وأنا أقلب الأمر على وجوهه فلم أوفق الى تعبئة تضمن لنا النصر »

قال : « هل لك أن تطلعنى على ما نخشاه ؟ »

فنهض الافشين ومشى حتى وقف بباب الفسطاط وأطل على البذ وحصونها ثم قال : « أرأيت هذه المدينة ، أنها أمنع من عقاب الجو ولاسيما من جهة الغرب حيث هذا القصر الفخم فانه قصر بابك الذى يقيم به ، فاذا وصلنا الى باب السور الذى يليه أخذنا المدينة »

ثم قال : « ألا ترى هذا التل الشاهق المشرف على المدينة من غربيها ؟ ٠ لا سبيل الى القصر الا من ورائه ، والطريق هناك وعر لا يسلكه الجند الكثير ولا يجسر الجند القليل على سلوكه لما يلقاه من نبال الخرمية ومجانيقهم ٠ وبابك كثير الاعتماد على الكمناء فنخاف أن يكون له كمين أو أكثر وراء ذلك التل أو فى واديه »

فقال ضرغام : « أنا أذهب الى ذلك التل مع رجالى الفراغنة »

قال : « اذا فعلت ذلك فانى أعبىء الجند حول الأسوار من جميع جهاتها فنضمن الفتح باذن الله »

فقال ضرغام : « ومتى الهجوم ؟ »

قال : « متى شئت »

قال : « الليلة ٠ دعنى أدهم القوم ليلا فاذا أصبح الصباح ودخلت البذ حيا ، فاهجموا أنتم على سائر جهات البلدة فيكون فتحها أمرا مقضيا »

قال الافشين : « بل أرى أن نتهيأ جميعا للهجوم ليلا ، على أن تذهب أنت برجالك من وراء التل وتمكث تجاه المدينة حتى ترى نارا أوقدها هنا بعد نصف الليل ، وعلامتها أنها مثلثة أى تكون ثلاث نيران متحاذية فاذا رأيتها علمت أن الجند كله مهاجم المدينة من كل جهاتها فاهجم أنت برجالك من ناحيتك ، ولا يخفى عليك يا ولدى أنك فى أشد المواقع خطرا »

قال : « لا أبالى بالخطر ٠٠ أنا ذاهب الآن لأعد رجالى وأرجو أن نلتقى جميعا فى قصر بابك غدا »٠قال ذلك وتضاحك مكشرا عن أسنانه كما يكشر الأسد اذا هم بالوثوب ٠ وكان الغضب واليأس قد زادا وجهه هيبة وقوة فازداد شارباه وقوفا وحاجباه خشونة وعيناه بريقا وحدة حتى تهيب الافشين النظر اليه والتفرس فى عينيه فقال له : « لو كان لنا عشرة مثلك لفتحنا البذ من زمن بعيد » ٠ أراد بذلك أن يثبته فى عزمه وهو على يقين أنه لا يستطيع تجاوز التل الى السور لما وضعه بابك هناك من آلات الدفاع الخطرة فضلا عن الكمناء ٠ وأغرب من هذا أن ضرغاما ودع الافشين ليذهب ويتهيأ للهجوم وهو لا يعرف شيئا عن الطريق ولم يسأل عنه ٠ وقد فرح الافشين لذلك لأن جهله الطريق يؤكد فشله

فخرج ضرغام وهو يقول للافشين : « غدا نلتقى هناك »٠وأشار بيده الى قصر بابك ، والافشين يهش له حتى اذا توارى عن الخيمة لقيه وردان فماشاه وسأله : « ما الذى استقر الرأى عليه ؟ »

قال : « الليلة نهاجم البذ » • قال : « من أين ؟ »

قال : « نأتيه أنا والفراغنة من وراء ذلك التل حتى ندخـــل من الباب الغربي وبجانبه قصربابك ، فنكون أول من يدخله أو نموت تحت الأسوار»

فوقف وردان والتفت اليه وقال : « هل تعرف الطريق الى التل ؟ »

قال : « لا •• لا أعرفه •• ولكن •• »

قال : « ولكن ماذا ؟• انه طريق طويل ينبغي لسالكه أن يسير من وراء التل مسافة تستغرق ساعات حتى يأتي الى سفحه تجاه السور »•وكأنه نبه ضرغاما فقال له : « وهل تعرف الطريق أنت يا وردان ؟ » • قال : « نعم أعرفه »

قال : « اذن أنت دليلنا بل أنت قائدنا،هلم الى رجالنا ليتأهبوا من الآن، ثم ننتقل بهم أصيل اليوم الى الطريق الذى تعرفه حتى نصل في العشاء الى تجاه المدينة » • قال : « حسنا » • ومشيا وكلاهما ساكت يفكر ، يريان الخطر الذى يهددهما واليأس يعزيهما عنه حتى وصلا الى معسكر الفراغنة ، وكانوا قليلين لا يتجاوز عددهم بضع مئات لكنهم أشداء منتخبون يتفانون فى طاعة ضرغام لو قال لهم ادخلوا النار لتسابقوا اليها

أما الافشين فجاءه سامان بعد خروج ضرغام فقص عليه ما فعله وقال : « والباقي عندك يا سامان » • فقال : « سمعا وطاعة » • وخرج

وعبأ الافشين جنده للهجوم في ذلك الليل ليأخذوا القوم على غرة،وجعل فرقته بحيث تهاجم المدينة من جهة الباب المؤدى الى قصر النساء الذى تقيم به جهان أو جلنار ، حتى اذا فتح البلد ودخل الناس للنهب استولى هو على قصر النساء وأعطى جهان الى من يحتفظ بها وانصرف الى قيادة الجند

أما ضرغام فجهز رجاله ومشى بهم ووردان دليـلهم ، وداروا حول التل حتى وصلوا الى مكان فيه يشرف على البذ من الغرب ، فمكثوا هناك حتى اظلمت الدنيا فأمرهم ضرغام أن يتربصوا ويكونوا على أهبة الهجوم ، وخلا الى وردان على آكمة ونظر الى البذ فرأيا فيه أنوارا متفرقة كما يطل القادم على بلد فى الليل فانه لا يرى الا أنوارا ويندر أن يتبين شيئا من أبنيتها أو قلاعها • فقال وردان • « ان أقرب هذه الانوار الى السور وأكثرها اشعاعا أنوار قصر بابك ، وهو الذى سنفتحه أو نموت دونه ، وترى أنوارا بعيدة في الجانب الآخر من البلد فهناك قصر النساء ، ولا أظنك تجهل اســتكثار هذا الرجل من النساء وانغماسه فى الملذات »

قال « وقد رويت لى ما طرأ عليه من التغيير من عهد بعيد بفعل امرأة من نسائه ذات عقل وتدبير • ما أكبر عقل تلك المرأة ! »

فقال : « انها عاقلة ولذلك تسلطت عليه،فأصبح لا يقطع بأمر الا برأيها»

فتنهد ضرغام وقال : « مالنا ولهــذا الآن ، دعنا ننظر في الطريق الذى نسلكه في الهجوم · ما الذى يحول بيننا وبين المدينــة الآن ؟ · قال : « بيننا وبينها واد »

قال : « وكيف نقطعه ؟ » · قال : « نقطعه من مكان فوقه قائم كالجسر ، ومتى صرنا في الجانب الآخر أصبحنا قريبين من السور فنهجم ونتسلقه· ولا أظننا نجد عليه حامية لأن الحرمية لا يخطر لهم أن عدوهم يأتيهم من هذا الطريق الوعر أو يجسر على النزول هنا »

قال : « اذن هلم بنا ننزل »

قال : « تمهل يا مولاى حتى تطمئن القلوب ويهجع الناس فلا يجدر بنا ان نزحف قبل نصف الليل وبعد أن نرى نيران الافشين »

قال : « حسنا » · وتحول الى رجاله وأوصاهم بالسكون والتربص وبألا يوقدوا نارا ولا يسمعوا صوتا حتى يأمرهم بالتقدم ثم تركهم وأشــار الى وردان فلحقه فقال له : « تعال نتجسس الممر الذى قلت عنه لنرى هل هو سالم أو لعل فيه عقبة »

ومشيا مسافة طويلة في أرض صـــخرية كثيرة الحجارة يتلمس المــاشى أرضها ، تلمسا وكان الظلام مخيما لا يكاد الناظر يرى ما بين يديه·وقد ساد السكون فلم يكن يسمع هنــاك أى صوت سوى حفيف الثعابين والحيــات المنسابة بين الصخور أو رفرفة طائر يحلق بجناحيه في الجو · فكان لوقع أقدامهما صوت بذلا الجهد في اخفائه لئلا ينم عن مكانهما · ولما اقتربا من الوادى رأيا فوقه شبه جسر من الصخور يمر عليه الاثنان والثلاثة معا · فقال ضرغام : « تحدثنى نفسى أن أسير توا الى السور فأصعد عليه والناس في غفلة ومتى صرت داخله يشتد أزر المسلمين بى فيكون هجومهم أدعى الى الظفر »

فقال : « أخاف عليك كمينا ، وأرى أن نعود معا أو أعود أنا وحدى فأدعو الرجال ونتعاون على العمل »

قال : « اذهب أنت واتركنى هنا حتى تعود بهم »

فقال : « احذر يا مولاى أن تبرح مكانك أو تظهر أى حركة » · ثم عاد وردان الى الفراغنة . وظل ضرغام وحده · فلما خلا الى نفسه نظر الى السور فوجده على بعد مائتى خطوة منه فسولت له نفسه أن يتمشى الهوينا حتى يصل الى الســور فينظر ما وراءه ثم يعود · فمشى وهو لا يعــرف الطريق وانما جعل وجهته السور · وكان ينقل قدميه محاذرا سماع وقعهما ، ويرفع السيف بيده حتى لا يقعقع·ولما دنا من السور وجده عاليا وعليه الأبراج ، ولم يسمع هناك صوتا ولا رأى نورا الا في برج كبير فوق الباب رأى فيــه ضوءا ضعيفا · ولما ازداد قربا من السور ســـمع حركة فوقف ويداه على

قبضة حسامه ، واذا بعشرات من الرجال خرجوا من وراء الصخور وأحدقوا به وسيوفهم مشرعة كأنهم كانوا ينتظرونه فأدرك أنه وقع في كمين ، فاستل حسامه وصاح فيهم صيحة أجفلتهم ووثب وثوب الأسد يضرب ذات اليمين وذات اليسار ضرب رجل شديد البأس قوى القلب لا يهاب الموت ، وكانوا يفرون أمامه فرار الظباء من الأسد ، وهو وراءهم لا يحترس ، فما درى الا وهو يهوى في حفرة فانقلب وسقط السيف من يده ، وشدت الحبال حول قدميه وكتفيه وأخذوا في اخراجه من الحفرة • وسمع جلبة وقرقعة ودبدبة وصوت وردان ينادي لبيك يا سيدى • فتحول الكمين نحو الصوت وتركوا عند ضرغام من يخفره • وفهم ضرغام أن رجاله أتوا لنجدته من بعيد فزأر زئير الأسد ونادي : « وردان اقطع هذه الحبال ».

فما كان الا كلمح البصر حتي قفز وردان اليه وقطع الحبال • فلما أفلت ضرغام أخذ سيفه وهجم على الحرمية وأعمل فيهم سيفه فقتل من قتل وفر الباقون ولم تمض ساعة حتى خلت الساحة منهم فصاح ضرغام في رجاله : « هلم الى السور » • وما أتم كلامه حتى سمع صوتا هائلا كأنه دبدبة جبل يتدحرج ، ثم ناداه وردان : « تنح يا سيدى انهم يرمون بعجلات من أعلى الجبل عليها صخور كبار لا تلبث أن تدحرج علينا ولا تغني الشجاعة في دفعها »

فتنحى ضرغام وقد كلت ذراعه من الضرب والطعن ، ولو لم ينبهه وردان لهرسته واحدة منها اذ لم يمض الا يسير من الوقت حتي وصلت كالسيل الجارف أو كالرجم المتساقطة أو هي كجلمود صخر حطه السيل من عل

ولما استقرت العجلات في آخر انحدارها التصق بعضها بالسور بحيث يمكن التسلق عليها الى سطحه • وشاهد ضرغام ذلك فصاح برجاله : « الى السور » • وركض أمامهم وسيفه مشرع ولم يكد يفعل حتى رأى ظهر السور قد امتلأ بالرجال وفى أيديهم النبال فأخذوا يرمون الهاجين بها وهؤلاء لا يبالون وفى مقدمتهم ضرغام وقد وقعت قلنسوته وتمزق قباؤه وتقطعت سراويله • ورآه وردان يصعد احدى العجلات بقرب الباب وبهم بتسلق السور ففعل فعله واذا بباب السور انفتح وخرجت منه فرقة من الحرمية أحاطت بالعجلة ومن عليها والقوا الحبال على ضرغام ووردان فتحولا وأعملا السيف في الحبال فتقطعت وصاح ضرغام : « ما بالكم تحاربوننا بالحبال أين سيوفكم أيها الأنذال ؟ »

فلم يجبه أحد وهو واقف على العجلة يعمل السيف فيهم فزلت قدمه فجأة عن خشب العجلة فوقع وارتطم رأسه بحجر • فلما رآه وردان شغل به عن نفسه فتكاثر عليهما الرجال فشدوا وثاقهما وحملوهما الى داخل السور وصعدوا بهما الى البرج فوق الباب وألقوهما بين يدى رئيس الحامية ، فأمر

بالماء فرش به ضرغام ، فلما صحا تحفز ليقبض على سيفه ويهم بالوثوب فاذا هو موثق بين يدى صاحب الحامية ، والتفت فرأى وردان الى جانبه في مثل حاله ، فعظم عليه الأسر فصاح في القوم قائلا : « عار عليكم أن تلجأوا في قتالكم الى الحبال فان كنتم رجالا فحكموا السيف • اقتلوا ولا تأسروا » •

والتفت فرأى قائد الحامية جالسا وعليه القلنسوة والسراويل من لباس الخرمية ، وشاهد بين يديه جماعة من رجال الحامية الذين نجوا من المعركة وعليهم آثار القتال وسمعهم يتكلمون الفارسية وهو يعرفها فخاطب الرئيس بمثل ما قال بالعربية فلم يجبه ، وأشار الى رجاله فخرجوا وأغلق الباب وتقدم الى ضرغام فحل وثاقه ثم وثاق وردان وقال بالعربية : «قم يا ضرغام• قم واجلس »

فلما سمع ضرغام الصوت أجفل والتفت الى الرجل وتفرس في وجهه فعرفه فصاح : « حماد ؟ » • قال : « نعم حماد » • فنظر اليه والدهشة بادية في وجهه وقال : « ما الذى جاء بك الى هنا ؟ »

قال : « جئت بعد أن تركتني قرب همذان لسبب لا تجهله ، وقد جندت في جيش هذا المجوسى للانتقام من صاحبك الظالم ، أما كان الأجدر به أن يدخر هذه السيوف للدفاع عنه بدلا من أن تكون عليه ؟ »

فابتسم ضرغام رغم ما هو فيه من القنوط وقال : « ليس صاحبى ظالما»• ثم تذكر ما وعده به من البحث عن جهان فقال : «خفف عنك انى حامل اليك نبأ يسرك فعسى أن تكون حاملا مثله لى »

فاضطرب حماد وبدت الدهشة في عينيه وقال : « ماذا ؟ هل وجدت ياقوتة ؟ وأين هى ؟ » •

قال : « نعم وجدتها وهى الآن بسامرا عند أمى معززة مكرمة »

فظن حماد نفسه في حلم ، ولم يتمالك عن النهوض وقال : « ياقوتة في منزلك الآن ؟ » • وأكب عليه وقبل رأسه ووجهه وهو يقول : « هل هى في خير وصحة • ؟ أنى أشكر لك فضلك ، ثم تراجع وتغيرت سحنته كأنه تذكر أمرا أزعجه وقال : « ولكنى لسوء الحظ لم أوفق الى خدمتك مثل توفيقك في خدمتى • على أنى لم أدخر وسعا في السعى والاستفهام ، ماذا فعلت أنت هل وقفت على خبر جهان ؟ »

قال : « لم أجد وسيلة من الوسائل لم أتبعها وذهب سعيى عبثا » • ثم تنهد وقال : « ليتك تركت رجالك يجهزون على ، اذن لأحسنت الى ، لأنى لم آت هذه البلاد التماسا للفخر بالفتح أو الكسب بالغزو وانما أتيت لألقى حتفى وأتخلص من هذه الحياة » • قال ذلك وهو يحرق أسنانه ويتململ

فشاركه حماد شعوره وأخذ يخفف عنه فقال : « لا تيأس يا صديقى من الفرج فانه يأتيك وان حسبته مستحيلا • فقد تعلم ما كان من أمرى مع

ياقوتة وكيف تركت وطني وأهلي يأسا من العثور عليها ، وهذا أنت تحمل الى نبأ سلامتها ، فأتاني الفرج من حيث لا أتوقع · ولا أخفي عليك أني عممت بأن أفعل مثلك وعرضت نفسي للقتل ، ولكنني وفقت الى أمر هدأ روعي وساعدني على الصبر ، فلو وفقت الى مثله لصبرت صبري · لقد وفقت الى فتاة تشبه ياقوتة فتعزيت برؤيتها وخفف ذلك كثيرا من لوعة البعد »

فتذكر ضرغام مشابهة ياقوتة لجهان فقال : « لكنني وفقت الى من تشبه جهان ولكنني لم أشعر بما يخفف اللوعة ، بل زاد ذلك في أشجاني ! » فاستغرب حماد وقال : « أما أنا فاني أستأنس بشبه ياقوتة استئناسا يكاد يذهب بقنوطي ، وان لم يكن لي سبيل اليها · فقد رأيت لياقوتة شبيها في هذه المدينة هي أعز نسائها جانبا وأسماهن حسنا وأمنعهن مقاما ، وهي لا تحتجب فتخرج سافرة لا تبالي أن يراها الناس ، وكنت كلما نظرتها تيمنت بطلعتها وارتويت برؤيتها »

وكان وردان جالسا يسمع ولا يشترك في الحديث ، فلما سمع حمادا يذكر فتاة تشبه ياقوتة تذكر شبه ياقوتة لجهان ، وهم بأن يستوضح حمادا فرأى ضرغام قد سبقه الى ذلك وقال بلهفة : « وأين رأيت شبه ياقوتة ؟ »

قال : « رأيتها في هذه المدينة في قصر بابك نفسه · لا أظنكم تجهلون الفتاة التي قامت بنصرة بابك وقومت أخلاقه ودفعته من الرذيلة الى الفضيلة »

قال وردان : « أظنك تعني جلنار ؟ »

قال : « نعم اياها أعني · انها تشبه ياقوتة شبها عجيبا ، فكنت اذا رأيتها حسبت ياقوتة أمامي · وكانت تتردد على قصر بابك أو تخرج معه على فرسها سافرة ، فلم أشاهد في حياتي أجمل منظرا ولا أكثر هيبة وجلالا منها »

فأحس ضرغام باختلاج قلبه . ولولا الظلمة المخيمة لرأى حماد الدم يتصاعد الى وجنتيه . فأطرق لحظة راجع فيها ما يذكره عن ياقوتة وشبهها لجهان فقال في نفسه : « لعلها جهان » · والتفت الى حماد وقال : « ومن هي جلنار هذه ومن أين أتت ؟ »

قال : « هي من جملة نسائه . حملت اليه من بلد بعيد كما حمل عشرات من أمثالها ، لكنها كانت أكثرهن سلطانا عليه فكأنها سحرته · فبينما ترى رفيقاتها مختبئات في قصر النساء اذا رأين بابك سجدن له تراها راكبة فرسها الأدهم تجول في العسكر تأمر وتنهى وأمرها نافذ على الكبير والصغير »

فلما سمع ضرغام قوله : «فرسها الأدهم» انتفض كالعصفور بلله القطر

أو هي قشعريرة المفاجأة فهب ناهضا وقال : « فرسـها أدهم ؟ أين هي ؟ بربك أرنيها يا حماد . أنها جهان ولا شك » . فأخـذ حماد بتلهمه وقال : « ليتها كانت جهان يا صاحبي ، ولكنها أخرى اسمها جلنار »

قال : « قلبي يحدثني بأنها هي ، وما دامت تشبه ياقوتة ، فاني أعرف أن هذه شديدة الشبه بجهان . ثم انك ذكرت ان جوادها أدهم ، وانهـا حملت من بلد بعيد ، وهذه الأوصـاف كلها تنطبق عـلى جهان ، ولا عبرة بتغيير الاسم . فأنت تعرفني مثلا بضرغام وليس في سامرا أحـد يناديني بهذا الاسم ، فاسمي عندهم الصاحب . هـذه جهان لا شك . لقد ذهب اليأس من قلبي . فقل أين هي الآن ؟ »

قال : « أظنها في قصر النساء ، فانها تبيت هناك وتخرج عند الحاجة الى قصر بابك »

فتنهد ضرغام تنهد الفرج بعد الضيق ، وتحول يأسه الى أمل ، ونظر الى ثيابه المزقة وهو يهم بالخروج فاستوقفه حماد وقال : « اخلع ثيابك والبس ثياب الخرمية حتي لا ينكرك الناس ، وكذلك يفعل وردان ، وفي صـباح الغد نخرج معا الى قصر النساء »

فقطع ضرغام كلامه قائلا : « أأصبر الى الغد ؟.. كيف أصبر ؟. وهب اني صبرت فهل تصبر المدينة وقد أحدق بها المسـلمون من كل جانب ولا يلبثون أن يفتحوها . وهل يخفى ذلك عليك ؟ »

قال : « لا أستغرب ذلك لأني من جملة قواد بابك ، وقد ندبني الليـلة لحراسة هذا الباب لأن بعض الجواسيس أنبأه بعزمكم على الهجوم من هذه الناحية ، فأتيت في المساء وأقمت الـكمناء حتى رأيناكم قريبين ، فأمرتهم بالهجوم عليكم وكان ماكان ، فهيا بدل ثيابك ».ثم التفت الى وردان ليقول له أن يبدل ثيابه هو الآخر ، فوجـده مطرقا غارقا في تأملاته ، فقال له « ما بالك يا صاحبي ، أمصاب أنت بمثل مصابنا أيضا ؟ »

فتنهد وردان وقال : « نعم يا سيدي . وستعلم ذلك متى وصلنا الى قصر النساء وأنا أرى رأي ضرغام أن نسرع الآن بالخروج »

فأطاعهما ، وبعد أن ارتديا زي الخرميـة خرج بهما ، وأوصى رجاله أن يحرسوا الباب حتى يعود ، موهما اياهم أن الأسيرين عنده في جملة الأسرى الذين أخذوا تلك الليلة . وأطل حماد من السور فرأى البذ مضاءة وسـمع الضوضاء وسطها فصاح في رجاله فلم يجد منهم أحدا فنادى خادمه فأسرع اليه فقال : « أين الرجال ؟ »

قال : « ألم تسمع يا مولاي طبل الهجوم ؟. »

فقال : « كلا » . وكأنه شغل عنه بضرغام ووردان

فقال الغلام : « ضربت الطبول وصدر الأمر بأن يجتمع الرجال للدفاع

عن الباب الشرقى لأن المسلمين هجموا عليه بقيـــادة قائدهم الأكبر على ما يقال »

فقال : « الافشين نفسه ؟ » . قال : « لا أدرى »

فالتفت وردان وضرغام معا الى معسكر الافشين فرأيا النار المثلثة موقدة فتأكدا من الهجوم ، فقال ضرغام : « هلم بنا الى القصر »

□

ركب كل من حماد وضرغام ووردان جوادا من جياد الخرمية ، وأركضوها الى قصر النساء ، فلقوا أهل البلد في هرج وخوف وليس فيهم رجـــل لم يحمل سلاحه ليدافع عن نفسه ، وقد ظنوا حمادا ورفاقه من المغيرين ، ثم رأوا نفرا من المسلمين وسط المدينة ينهبون وأصبحوا كلما اقتربوا من الباب الشرقي رأوا المسلمين يتكاثرون فتحققوا أن البلد قد أخـذ ، فلم يبالوا . ولما وصلوا الى القصر رأوا جنود المســلمين يخرجون منــه حاملين الأمتعة والرياش ، ورأوا بعضهم يقود نساء فاختلج قلب ضرغام خوفا على جهان أن تكون في الأسرى ، فدخل القصر مع وردان ، فقال لهما حماد : « تمهلا حتى أعرف الخبر اليقين من مصدره » . قال ذلك واتجه الى غرفة بقرب البـاب رآها موصدة ، فقرعها فلم يسمع جوابا فكلم الذين في داخلها بلســـانهم ففتحت لهم امرأة كهلة أدخلتهم وأغلقت الباب خلفهم وهى ترتعد من الخوف، فقال لها حماد : « ما الذى جرى يا خالة ؟ »

قالت : « ألم تر ما جرى؟ . فتحوا المدينة ، وجاءوا الى هذا القصر فدخلوه ونهبوه وسبوا نساءه ولو لم أختبىء هنا ، أو لو كان لى بقية من جمال أو مال لأخذونى فاكتفوا بأخذ حليى وانصرفوا »

فلما سمع ضرغام قولها : « سبوا نساءه » . ارتعدت فرائصــه ولم يكن وردان أقل منه اضطرابا ولكنه كان أصبر منه على كتم شـــعوره ، وأدرك حماد لهفتهما فسأل القهرمانة : « أخذوا كل النساء » . قالت : « نعم »

قال : « وجلنار أيضا ؟ » . قالت : « لا .. جلنار لم يأخذوها »

قال : « أين هى ؟ » . فنظرت الى رفيقيه وترددت فى الجواب كأنها تكتم شيئا تخاف ظهوره ، فقال لها : « قولى ولا تخافى »

قالت : « ان مولاتنا جلنار ورفيقة لها رومية من نساء بابك خرجتا منذ بضعة أيام فى مهمة الى بابك »

فتصدى لها وردان مستفهما فقال : « وما اســم تلك الرومية يا خالة ؟ هل تعرفينها ؟ »

قالت : « كيف لا أعرفها وأنا قهرمانة هذا القصر أعرف تاريخ نســـائه

واحدة واحدة ؟ فجلنار مثلا لا يعرف أهل البذ عنها شيئا وأما أنا فاعرف أصلها وفصلها منذ حملت الينا من فرغانة واسمها يومئذ جهان بنت المرزبان، ثم تسمت بجلنار ، وأحبت هذه الرومية وصادقتها وتوافق ذوقاهما حتى ذهبتا في هذه المهمة معا »

فثبت لديهم ، ان جلنار هي جهان نفسها ، ولم يبق مكان للشك . أما وردان فلم يشف غليله فقال : « سألتك عن المرأة الرومية ما اسمها وهل كان لها اسم غيره ؟ »

قالت : « اسمها هيلانة ولم تغيره منذ سرقوها من زوجها البطريق في ارمينيا »

فاضطرب وردان وارتجف وصاح : « هيلانة ؟.. هي..هي..زوجتي ! »

وأدرك ضرغام ان وردان بطريق من بطارقة ارمينيا ، وأن بابك سلبه امرأته فالتفت ضرغام اليه لفتة تهنئة وعتاب وقال : « أتكون بطريقا وتحملني على ظنك خادما ؟ والله اني رأيت في برديك نفس الرجل الكبير منذ عرفتك »

فقال : « لجأت اليك ودخلت في خدمة المسلمين في انتظار هذه الساعة حتى أنتقم من ذلك الفاسق الظالم ، فأرجو أن يكون قد أخذ ونال جزاء فعلته »

فقال حماد : « ان لم يكن قد فر فانه مأسور لا محالة ، لأن المدينة سقطت وقضى الأمر » . ثم عاد حماد فقال للقهرمانة : « لم تخبرينا يا خالة عن الجهة التي سارت اليها جلنار وهيلانة »

قالت : « سارتا معا الى بلاد الروم يستنجدان أهلها على المسلمين. ارتأت جلنار هذا الرأي لنصرة بابك وصحبتها هيلانة لأنها من تلك البلاد وتعرف لسانهم »

قال حماد : « ومولانا بابك أين هو ؟ »

قالت : « ليس في البذ الآن ولا هو أسير »

قال : « فأين هو ؟. اخبرينا لا تخافي فان البذ دخل في حوزة المسلمين ، وهم أبقى لنا من سواهم . وأنا أعلم أنك أخبر الناس بما يعمله بابك »

قالت : « بقي بابك في المعركة يناضل ويدافع حتى تحقق سقوط المدينة فأتاني واصطحب من شاء من نسائه مع أحمال من الطعام والشراب ، وأظنه غادر المدينة وأوغل في ارمينيا »

فنظر حماد الى ضرغام كأنه يسأله عما يفعلون فقال : « ننصرف » . ثم خرجوا يلتمسون مكانا يتشاورون فيه ، وقد لاح الصباح. فقادهم حماد الى مكان يعرفه وشاهدوا في طريقهم جند المسلمين ينهبون المدينة ويهدمون

بيوتها ويحرقون قصورها حتى لا يبقى فيها ملجأ لعدو أو صديق

ولما وصلوا الى المكان قال ضرغام : « ماذا يرى البطريق وردان فيما نحن فيه ؟ » لقد ذكرت القهرمانة ان جهان وهيلانة ذهبتا الى بلاد الروم · وهي بلاد واسعة ، فلو عرفنا البلد الذى تنزلانه لقصدنا اليه » · فضحك وردان لتسميته بالبطريق وقال : « لا حاجة بى الى هذا اللقب، يكفينى أنى صديق ضرغام · وأما جهان وهيلانة فأذن لى أن أضرب فى البلاد طولا وعرضا أبحث عنهما ولا أعود حتى أعرف مقرهما »

فقطع حماد كلامه وقال : « كلا ·· لا يذهب أحد فى هـذه المهمة سواى ، ان لضرغام يدا عندى، فقد أنقذ خطيبتى واحتفظ بها فى بيته مكرمة معززة، فاذا لم أجازه على عمله كنت لئيما · دعنى أذهب وحدى أبحث وأفتش ومتى وقفت على شىء بعثت اليكما »

فقال ضرغام : « ليس من العدل أن تكون عالما بمكان ياقوتة وهى فى لهفة للقياك وتذهب فى مهمة أخرى »

قال : « لا تجادلنى ، لست راجعا الى أهلى قبـــل أن آتيك بأهلك وأهل هذا الصديق الأرمنى · لقـد سررت بمعرفته سرورا كثيرا · وأما ياقوتة فتبقى عندك فى سامرا ، ويكفى أن تبشرها باللقاء القريب »

فقطع وردان كلامه وأخبره بما كان الخليفة قد أمر به ضرغاما من التزوج بها ، وبأن ضرغاما أوهم الخليفة بأنه تزوجهـــا · فصاح حمـاد وقد ثارت الاريحية فى رأسه قائلا : « وهل بعد هذا يستعظم أن أبحث عن عروسه ؟ »

فقال : « اذن أسير معك لأنى أعرف البـــلاد ولغتها وطرقها » · فقال : « لا حاجة بى الى أحد منكما ، أستودعكما الله من هذه الساعة » · قال ذلك وخرج

فلما خلا ضرغام الى وردان قال : « أحسبنى فى منام ياوردان ، ان الفرق بين اليوم والأمس كالفرق بين الرجاء واليأس ولكن ·· »

فقطع وردان كلامه وقال : « وأنا أحسبنى انتقلت من الجحيم الى النعيم · لانى كنت شديد الشغف بامرأتى ، وبلغ من قحة ذلك الوحش الكاسر أن طلب منى أن أطلقها ليتزوجها ، فلما أبيت بعث جندا حملها اليه بالقوة ! · قبحه الله من مجوسى فاسق · والله لو ظفرت به لأشربن دمه »

فقال ضرغام : « لعل الافشين ظفر به ونحن لا ندرى فهلم بنا الى المعسكر »

مصرع بابك

كان الافشين قد أحسن اعداد الهجوم حتى فتح البذ وقتل الخرمية على بكرة أبيهم وأخذ أولاد بابك وعياله ، الا جهان وهيلانة لأنهما كانتا غائبتين وبعد أن أحرق المدينة وتحقق فرار بابك عاد الى معسكره في « روذ الروذ » وقد ساءه أنه لم يظفر بجهان ولا علم مكانهـا ، فارتاب في أقوال سامان ، وخطر بباله أنه فر بها

وكان بين الأسرى كثيرون من العرب والفرس وأبناء الدهاقين ، فأمر بهم فجعلوا في حظيرة كبيرة وأمرهم أن يكتبوا الى أوليـائهم فكان كل من جاء وعرف امرأة أو صبيا أو جارية وأشهد شاهدين أخذه · فأخذ الناس منهم خلقا كثيرا

وكتب الافشين الى ملوك ارمينيـا وبطارقتهم بأن بابك هرب ، وأمرهم بحفظ نواحيهم ومراقبة طرقه ، وندم على تفريطه في ضرغام وهو يظنه قتل لأن بعض الفراغنة الذين كانوا معه أخبروه أنه أخذ أسيرا أو مات لأنهم رأوه محمولا بين حي وميت ولم يجدوه بين القتلى

وفي اليوم التالي عاد ضرغام مع وردان الى معسكر المسـلمين فرحب به الافشين وهنأه بالسلامة وأطرى ما سمعه عن بسالته ليلة الهجوم وبالغ في الاطراء حتى يبعد عنه مظنة السوء · واختصه بالشورى في الشؤون الهامة وأهمها يومئذ فرار بابك ، وأخبره بما فعله في سبيل القبض عليه

فقال ضرغام : « ان خادمي وردان أرمني الأصـل والوطن ، وهو يعرف هذه البلاد فاستخدمه لهذا الغرض · واذا شئت أتيتك به الساعة »

قال : « افعل » · فنـادى غلاما أمره أن يستقدم وردان ، وكان خارج الفسطاط ، فلما دخل حيىّ ووقف فقال له الافشين : «أتعرف طرق أرمينيا ومسالكها يا وردان ؟ »

قال : « نعم يا سيدي »

قال : « أين تظن الخرمي يختبىء والى من يلتجىء ؟ »

قال : « لا أظنه يلتجىء الى بلد لأن أهل ارمينيا يكرهونه ويريدون قتله، ولكنني أحسبه يختبىء في بعض الغابات أو الأودية وأشـهرها الوادي الأكبر المسمى الغيضة ، وهو كثير العشب والشجر بين أذربيجان وأرمينيا لا يمكن الخيل نزوله ، ولا يرى من يختفي فيه لكثرة شجره »

فاستفاد الافشين من هذه المعلومات ، وبعث جواسيسه للبحث في تلك الغيضة فعادوا اليه وأكدوا له اختباء بابك هناك ٠ وكان الافشين قد بعث الى المعتصم ليستكتبه كتاب أمان لبابك،فلما جاءكتاب الأمان دعا الأفشين بعض الذين أمنهم من أصحاب بابك وأعلمهم بذلك وأمرهم أن يسيروا اليه بالكتاب وفيهم ابنه ، فلم يجسر أحد منهم خوفا منــه ، فقال : « انه يفرح بهذا الأمان » ٠ فقالوا : « نحن أعـرف به منك » ٠ فقام رجـــلان فقالا : « اضمن لنا رزق عيالنا اذا هلكنا ونحن نذهب اليه » ٠ فضمن لهما ذلك ، فسارا بالكتاب حتى أتياه وأعلماه بما قدما فيه ، فقتل أحدهما وأمر الآخر أن يعود بالكتاب الى الافشين ٠ وكان ابنه قد كتب اليه معهما كتابا فقال لذلك الرجـل : « أبلغ ابن الفاعلة انه لو كان ابني للحق بي ، ولكنه ليس ابني ولأن تعيش يوما واحدا رئيسا خير من أن تعيش أربعين سنة عبدا ذليلا»٠ وقعد في موضعه٠فلم يزل في تلك الغيضة حتى فني زاده وخرج من بعض تلك الطرق ، ومعه بعض رجاله ، فلم يجد أحـــدا من الجند الذين أرسلهم الافشين لمحاصرته ، وظن بابك أن القوم يئسوا من القبض عليه فرحلوا ٠

فســار هو وعبد الله أخوه ، وأمه وامرأة أخــرى ، يريدون أرمينيا ، فرآهم بعض الحراس فأرسلوا الى الجند المكلف بتعقبه ٠ وكان أبو الساج هو المقدم عليهم ، فلحق بهم وقد نزلوا على ماء يتغذون ٠ فلما رأى بابك العســـاكر ركب هو ومن معه فنجا وأخذ أبو الساج أم بابك والمرأة الأخرى فأرسلهما الى الافشين ، وسار بابك في جبال أرمينيا مستخفيا ، وكان بطارقة أرمينيا يراقبون سبله فاحتال بعضهم حتى خدعه وأدخله حصــنه ، وأرســـل الى الأفشين يعلمه بذلك ، فبعث الافشين يعده ويمنيه وهو يأبى الاستسلام٠ ثم احتال صاحب الحصن عليــه حتى أخرجه بحجة الصـــيد وأنبأ الافشين بخروجه فتمكنوا من القبض عليه ومعه أخوه عبد الله وحملوهما الى الافشين

فلما قرب بابك من المعسكر صعد الأفشين وجلس ينظر اليــه ، وصف عسكره صفين ، وأمر بانزال بابك من فوق دابته فنزل ومشى بين الصفين فأدخله بيتا في برزند ، ووكل به من يحفظه وأنعم على الذين أسلموه وكتب الى المعتصم بذلك ٠ فأمره بالقدوم اليه به وبأخيه ، فانتقل بهما في جنده وحاشيته من برزند الى سامرا (سنة ٦٢٣ هـ) ٠ وكان المعتصم يوجه الى الافشين في كل يوم رسولا يحمل اليه خلعة وفرسا ، فلما صــار الافشين بقناطر حذيفة تلقاه هرون الواثق بن المعتصم ٠ وأنزل الافشين بابك عنده في قصره بالمطيرة فأتاه أحمد بن داؤد متنكرا ، فنظر الى بابك وكلمه ورجع الى المعتصم فوصفه له فأتاه المعتصم أيضا متنكرا فرآه ٠ فلما كان الغد قعد المعتصم واصطف الناس من باب العامة الى المطيرة ، فشهره المعتصم وأمر أن يركب على الفيل فركب عليه واستشرفه الناس الى باب العـامة ، فقال محمد بن عبد الملك الزيات :

قد خضب الفيل كعاداته يحمل شيطان خراسان
والفيل لا تخضب أعضاؤه الا لذى شأن من الشان

ثم أدخل بابك دار المعتصم فأمر باحضار سياف بابك فحضر ، فأمره المعتصم أن يقطع يديه ورجليه فقطعهما ، فسقط فأمره بذبحه ففعل. وشق بطنه وأنفذ رأسه الى خراسان ، وصلب بدنه بسامرا ، وأمر بحمل أخيه عبد الله الى اسحق بن ابراهيم ببغداد ، وأمره أن يفعل به ما فعل هو بأخيه بابك ففعل وضرب عنقه وصلبه فى الجانب الشرقى بين الجسرين . وكان ذلك آخر العهد بالخرمية

وكان ضرغام وورد ان في جملة الذين رجعوا مع حملة الافشين وشاهدا قتل بابك فاشتفيا بقتله ، وود ضرغام لو أنه قتله بيده فى المعركة . وحال وصولهم الى سامرا سار ضرغام الى منزله وقبل يد أمه وسلم على ياقوتة وبشرها بلقاء حماد ، فلم تعد تعرف كيف تشكره . ثم أخبر أمه بطرف من خبر جهان وبأنها ذهبت الى بلاد الروم وان حمادا أبى الا أن يبحث عنها بنفسه . قال ذلك وياقوتة حاضرة ونظر اليها وابتسم وقال : « أظن هذا الخبر يسوؤك . ولكنه أبى الا الذهاب »

فتوردت وجنتاها خجلا وأطرقت وقالت : «مهما نفعل فاننا لا نفى ببعض فضلك ، فقد أنقذتنى من القتل والعار وكفلتنى »

فقطع كلامها قائلا : « لم أقم الا ببعض ما وجب طبقا لاشارة أمير المؤمنين فنحن عبيده وعلينا طاعته »

ورأى ضرغام فى وجه ياقوتة تغيرا وفى عينيها ارتباكا كأنها تهم بشىء يمنعها الحياء من ذكره فسألها عما بها فقالت : « أذكرنى تفانيك فى نصرة أمير المؤمنين شيئا لحظته خلال اقامتى ببيت الحارث السمرقندى ، وأخشى منه على حياة أمير المؤمنين . فقد فهمت أن هناك قوما يتآمرون على حياته »

فلم يشأ ضرغام أن يعير الأمر اهتماما فقال : « اننا لا نحفل بما يكيده بعض الخونة لأمير المؤمنين فمعظم ما يأتمرون به لا يترك أثرا ، وسببه على الغالب جهل بعض أهل الخليفة الأقربين فيزين لهم ذوو المطامع من الوزراء أو القواد أن يسعوا الى الخلافة ليستفيدوا هم من انتقالها من يد الى يد ، وهذا العباس ابن المأمون قد حسن له بعضهم أن يطالب بالخلافة لنفسه ولا ينالها الا اذا قتل المعتصم فهم يتآمرون ويتواطأون على قتله ولكنهم لا يفلحون ، وسيرد كيدهم الى نحورهم »

فلما سمعته أمه أشرق وجهها وابتسمت وقالت : « بورك فيك يا بنى هكذا الأمانة وهكذا الرجال »

ثم لبس سواده وذهب للسلام على المعتصم وعنده الافشين وغيره من كبار القواد ، فلما دخل عليه هش له وقال : « مرحبا بالصاحب البطل الهمام . بلغنا ما كان من بلائك في الأعداء وما أبديته من البســـالة والهمة بورك فيك . ألا تزال ترى لقب الصاحب كثيرا عليك ؟ » . وأشار اليه بالجلوس قريبا منه

فأطرق خجلا وقال : « ان العبد لا يستأهل أجرا اذا قام بخدمة مولاه ، ويكفيه رضاه عنه »

فالتفت الخليفة الى الافشين فقال هــذا : « يندر يا أمير المؤمنين أن نرى مثل الصاحب في الشجاعة وصدق الخدمة » . وأخذ يطرى أعماله يريد أن يمحو ما يخشى أن يكون قد خامره من اساءة الظن به . وعاد الخليفة نفسه الى الثناء عليه ، وأمر له بالهدايا والخلع . ولما انفض المجلس عاد ضرغام الى منزله وعادت اليه هواجسه في شأن جهان . ولبث في انتظار ما يأتيه من حماد ، فكان يقضي أكثر أيامه مع وردان يتحادثان فيما عسى أن يكون من أمر جهان وهيلانة

وشاع في هذه السنة في سامرا أن (تيوفيل) ملك الروم خرج الى بلاد الاسلام ، وسمع بذلك ضرغام ، فأرسل الى صديقه وردان فجاء ، فأخذا في تقليب الرأي فيما هو حادث وما قد يحدث ، فقال له وردان : « انى أرى فتح البذ سبب خروج الروم لقتال المسلمين ، فقد أنبأني بعضهم ان بابك لما ضيق عليه الافشين وأشرف على الهــلاك كتب الى ملك الروم بأن جنود المسلمين مشغولون به ، فالفرصة سانحة أمامه لاكتساح مملكة الاسلام . وربما كان لجهان يد في هذا التوجيه »

قال : « تحدثني نفسي انها مع هيلانة هناك »

قال : « لو كانتا هناك لجاءنا الخبر من حماد فانه يبحث عنهما حيث يكون ملك الروم . ولابد من الصبر »

قضى ضرغام في ذلك أياما على مثـــل الجمر حتى جاءه وردان ذات يوم مهرولا ، وأومأ اليه أن يتبعه فتبعه حتى انفردا في بعض جوانب الحديقة ، ثم دفع اليه اسطوانة ملفوفة بمنديل من الحرير فحل المنديل وفتح الاسطوانة فرأى فيها كتابا من الكاغد قرأ في صدره اسم حماد فخفق قلبه ، وأخـــذ يتلوه وهذا نصه :

« من حماد في عمورية الى الصاحب ضرغام في سامرا

« لقد طال سكوتي عليك وأظنك مللت الانتظار ولكني مكره على هذا فاني قضيت أشهرا أبحث على غير هدى الى أن بلغني أن تيوفيل ملك الروم قادم على (زبطرا) فهممت بأن ألقاه هناك لعلي أجد ضالتنا ، فما كدت أبلغ البلد حتى علمت أن الروم اكتسحوه وخربوه وسبوا النســـاء والأطفال . ثم

أعاروا على (ملطية) وغيرها من حصون المسلمين وسبوا المسلمات ومثلوا بمن أخذوا من المسلمين فسملوا أعينهم وقطعوا أنوفهم وآذانهم ، وقد شاهدت بعض أولئك المجدوعين ورأيت الناس قد خرجوا من بلادهم في الشام والجزيرة فرارا من وجه الروم الا من لم يكن له سلاح أو دابة . فلما رأيت ذلك عدلت عن الذهاب الى (زبطرا) وتذكرت أن (ناطس) بطريق عمورية كان قد زار البذ في عهد بابك وعرف جهان ، ولعلها ذهبت اليه . وقد صدق حدسي لأني علمت عندما دخلت عمورية أن جهان وهيلانة جاءتا رأسا من البذ للسعي في حمل البطريق ناطس على أن يتوسط لدى ملك الروم في نجدة بابك ، فأنزلهما ناطس في قصره ووعدهما خيرا ، ثم جاء الخبر بسقوط البذ وقتل بابك ، فلم يبق لهما مأرب في أرمينيا كلها فبقيتا في عمورية . وقد حرص عليهما هذا البطريق حرصا شديدا ولاسيما جهان ، وضيق عليهما فلا يسمح لهما بالخروج . ولعل جهان رضيت بالأسر عن طيب خاطر اذ يئست من لقائك . وقد حاولت الاتصال بها لأطلعها على حالك وأبشرها بقرب لقائك فلم يتيسر لى ، لأن القوم هنا شديدو الحذر من المسلمين ، واذا أساءوا الظن بأحد منهم قتلوه ومثلوا به كما فعلوا بأهل (زبطرة) . فجهان وهيلانة مسجونتان الآن في قصر (ناطس) بطريق عمورية ، وسأبذل جهدى في ابلاغ خبرك اليهما وان كنت لا أتوقع نجاحا عاجلا

« وقد علمت أن الروم ينوون اكتساح مملكة الاسلام ، فالذى أراه أن يسبقهم المسلمون ويكتسحوا بلادهم ، وهذه عمورية التى تعد أمنع حصونهم لا أراها تمتنع على المسلمين لعلمي بمواضع الضعف في أسوارها ، ولا أخالك بعد كتابى هذا الا محرضا صاحبك على فتحها ، فاذا فعلت فاجعل رايتك قطعتين مستطيلتين حتى أعرفها اذا نزل معسكركم أمام عمورية وأعرف مكانك والسلام »

وما فرغ ضرغام من قراءة الكتاب حتى تصبب العرق من جبينه وهاجت أشجانه وثارت عواطفه ، ودفع الكتاب الى وردان فقرأه وقال : « أرى أن قد تحتم المبادرة الى العمل ، ولابد من ذهابى الى عمورية »

قال : « لا فائدة من ذهابك فان المرأتين في اسار أضيق مما قرأته في هذا الكتاب ، وقد أراد صديقنا حماد تخفيف الخبر . ألم تقرأ قوله : (ان ناطس حرص عليهما حرصا شديدا ولاسيما جهان) . انه يعني أن هذا البطريق أحب جهان فاستبقاها لنفسه ، فلا تجدى الحيلة في انقاذها منه ولابد من القوة . وقد أشار حماد الى ذلك تلميحا في أواخر كتابه »

فقال وردان : « اذا كان لابد من الحرب فلا يثيرها سواك بما لك من المنزلة عند الخليفة » . فنهض ضرغام لساعته تاركا وردان في مكانه ومضى الى داره

فلبس سواده والقلنسوة وخرج يقصد دار الخليفة فاستأذن فقال له الحاجب: « ان أمير المؤمنين في خلوة مع القاضي احمد » . فقال : « استأذن لي أيضا »

فلما أذن له دخل وسلم ، فرأى القاضي احمد جالسا بجانب سرير المعتصم والاهتمام باد في وجهيهما . فلما دخـــل ضرغام رحب به الخليفة قائلا : « جاءنا الصاحب في ابان الحاجة اليه فقد كنت عازما على دعوتك » . وأشار اليه بالجلوس

فجلس وقال « ان نفسي حدثتني بأن هناك ما يدعو الى مجيئي ، لأني لا أفتأ أفكر في مولاي ، أشاركه آماله فتتلاقى خواطرنا »

فقال القاضي : « بلغني رضاء أمير المؤمنين بما أبديته من البسالة في فتح البذ ، وقد سرني صدق توسمي فيك فأصبحت ذا منزلة لدى مولانا يعول على رأيك وسيفك »

فأطرق ضرغام تأدبا ولم يجب . فأتم الخليفة الحديث قائلا : « جاءنا البريد من بلاد الروم بأن تيوفيل اللعين نزل (زبطرا) و (ملطية) وأســـاء الى أهلهما وارتكب فيهما كل قبيح مما لم يألف المسلمون مثله » . فقال ضرغام: « هل يطلب أمير المؤمنين رأيي ؟ » . قال : « نعم » .

قال : « لا رأي لي غير السيف كما عودهم الرشيد من قبل . فاحمل عليهم ودوخهم واكتسح بلادهم . ان الاسلام لا يصبر على ما فعله تيوفيل من سمل العيون وجدع الأنوف وسبي النساء . جرد يا أمير المؤمنين جندك فيعودون من ظفر الى ظفر آخر وأنا عبدك أول المتطوعين في هذه الحرب . واذا صبر أمير المؤمنين على سمل عيون المسلمين فلا أخاله يصبر على سبي المسلمات! » . وكان ضرغام يتكلم وعيناه تقدحان شررا وشفتاه ترتجفان وأحس أنه بالغ في الجرأة بين يدي الخليفة ، ولكنه لم ينتبه الا بعد أن فرغ من كلامه . ورفع بصره الى المعتصم فرآه وقد تغير وأبرقت عيناه وخالطهما احمرار من الغضب . واضطرب في مجلسه وثبت بصره في ضرغام وهو يتكلم فهاجت حماســـته وأصبح كالأسد في بطشه وسلطانه . فخاف ضرغام أن يكون قد أغضب المعتصم بجرأته ، فأراد أن يستأنف الكلام للاعتذار فقطع القاضي احمد كلامه قائلا : « لقد نبهت حمية أمير المؤمنين الى مصلحة المســـلمين وما هو بغافل عنها ، وانه ليسره أن يرى ذلك في رجاله وأبطاله »

فقال المعتصم : « ان الصاحب تكلم بلساني وعبر عن جناني . وسآمر الافشين والقواد الآخرين بالتأهب للحرب بعد أن أستخير الله فيها . انها جهاد في سبيل الاسلام » . ثم قال : « موعدنا غدا ان شاء الله » . فانصرف القاضي وضرغام

مشى ضرغام الى منزله وقد هاجت عواطفه ، وكان وردان في انتظـــاره فقص عليه ما جرى فسره الأمر ولكنه خاف أن تأول تلك الاســـتخارة الى

العدول عن القتال . وفي الصباح التالي جاء غلام الخليفة مبكرا في طلب الصاحب . فمضى حتى دخل على الخليفة فرآه في بهو خاص لا يجلس فيه الناس وهو متوب النوم وقد التف بمطرف . وآنس في وجهه انقباضا . فأوجس خيفة ولكن المعتصم أمره بالجلوس فجلس فقال له الخليفة : «أتدرى لماذا دعوتك وأدخلتك على وأنا في هذه الحال ؟ » . قال : « كلا يا مولاى »

قال : «نهضت من فراشي منذ هنيهة بعد أن استيقظت منزعجا مضطربا» .
قال : « خيرا ان شاء الله »

قال « صليت العشاء أمس وتوسلت الى الله أن يلهمني ما فيه خير المسلمين من أمر الروم . ثم نمت فرأيت في رؤياى ما أطار صوابي وأذهب رشدى »

فظل ضرغام مصغيا يتطاول بعنقه ، فمسح المعتصم لحيته وشاربيه وأصلح عمامته الصغيرة على رأسه وقال : « قلت أني رأيت ، والحقيقة انى لم أر شيئا ولكني سمعت صوتا اخترق أعماق قلبي . سمعت امرأة هاشمية أسيرة في بلاد الروم تصيح : (وامعتصماه) . فأجبتها : (لبيك) واستيقظت وقد علمت أن الله يأمرني بالجهاد وأن أكون على رأس المجاهدين فخذ أهبتك للسفر وسآمر قوادى يتأهبوا . هل أثق بجندى ؟ »

فتذكر ضرغام ما كان يبديه من الارتياب في اخلاص الافشين فقال : « لا سبيل الى تحقق ذلك ، وقد علم أمير المؤمنين انهم انما يحاربون في سبيل حطام الدنيا . وقد فتحوا البذ وقضوا على الخرمية وسيفعلون ذلك بالروم »

فقال المعتصم : « يخيل الى أنهم لولا ذهابك لم يفتحوه الا بعد أعوام » .

فخجل من الاطراء وقال : « اذا كان لأمير المؤمنين ثقة بعبده فليجعلني في هذه الحملة ولا يخشى غدرا باذن الله »

قال : « وما رأيك في البلد الذى نقصده من بلاد الروم »

قال : « ان الصوت الذى سمعته يا أمير المؤمنين خرج من عمورية وهى من أكبر مدائن الروم وعين النصرانية وفي فتحها نفع للمسلمين »

قال : « أحسنت » . وتحفز للنهوض فخرج ضرغام مسرعا الى وردان يبشره وأخذ في الاستعداد

فتح عمورية

أعد المعتصم جنده للقتال ، وجلس في دار العامة ، وأحضر قاضي بغداد ومعه ٣٢٨ رجلا من أهل العدالة فأشهدهم على ما وقفه من الضياع ، جاعلا ثلثه لله ، وثلثه لولده ، وثلثه لمواليه • ثم تجهز الى عمورية بالسلاح والعدد والآلات وحياض الماء والروايا وغير ذلك ، وجرد جيشا عظيما بلغ تسعمائة ألف مقاتل ، عليه من القواد الافشين واشناس وغيرهما • وخرج المعتصم نفسه على دابته وخلفه حقيبة فيها زاد تشبها بالمجاهدين في صدر الاسلام

وفرق جنوده في جهات مختلفة من بلاد الروم حتى التقوا قرب أنقره وعزموا على المسير الى عمورية • فأمر المعتصم بتعبئة الجند فجعله ثلاثة معسكرات أحدهما في الميسرة وعليه اشناس التركي ، والثاني في الوسط وفيه المعتصم نفسه ، والآخر في الميمنة وقائده الافشين • وجعل بين كل معسكر ومعسكر فرسخين • وأمر بأن يكون كل معسكر ميمنة وميسرة ، وبأن يحرقوا ما يصادفهم من القرى ويخربوها ويأخذوا من فيها ، ثم ترجع كل طائفة الى موضعها فيما بين أنقرة وعمورية وبينهما سبع مراحل • ففعلوا ذلك حتى وافوا عمورية وكان أول من أتاها اشناس ثم المعتصم ثم الافشين • فداروا حولها وقسمها المعتصم بين القواد وجعل لكل واحد منهم أبراجا منها على قدر أصحابه

وكان ضرغام في معسكر المعتصم ، والمعتصم يقربه ويكرمه ، وكان في حاشيته أيضا الحارث السمرقندي وقد أخذ الحسد منه مأخذا عظيما لما شاهده من منزلة ضرغام عند الخليفة ، وضرغام لا يكترث وانما همه أن يوفق الى انقاذ جهان ، وكذلك كان وردان يتوق الى لقاء هيلانة

وحينما حطا رحالهما هناك صعدا الى رابية أطلا منها على عمورية فرأياها مدينة كثيرة الأبنية واسعة الأرجاء حولها سور عال عليه الأبراج الضخمة وله الأبواب المتينة ، ورأيا بين الأبنية قصرا تخفق عليه الرايات ، فعلم ضرغام انه قصر البطريق وأن جهان فيه، فتنهد ونظر الى وردان فرآه مطرقا فسأله : « أليس هذا قصر البطريق ؟ » • قال : « بلى ، هذا هو بعينه »

قال : « اذا صح قول حماد فان جهان وهيلانة محبوستان فيه ، وأرى المدينة حصينة • ولكنها لا تمتنع علينا باذن الله • هل أعددت الراية المزدوجة التي أوصانا حماد بها ؟ »

قال : « نعم أعددتها ولكن كيف السبيل الى نشرها ونحن فى معسكر المعتصم تحت رايته »

قال : ؟ ننشرها فى مكان منعزل عسى حماد أن يكون فى انتظار رؤيتها كما ذكر فى كتابه »

قال : « غدا أقف بها على هذه الرابية نحو ساعة لنرى ما يكون » · وعاد الى المعسكر

وفى اليوم التالى عقد المعتصم مجلسا حضره القواد ورجال خاصته وفيهم الصاحب والحارث السمرقندى ، وأخذوا فى وضع خطة القتال · ولما أذن المؤذن لصلاة الظهر تفرقوا ودخل الخليفة فسطاطه وأشار الى الصاحب أن يأتيه صباح الغد ، فرجع الى فسطاطه فرأى وردان فى انتظاره وقد أخذ الغضب منه مأخذا عظيما فسأله عن الراية فقال : « وضعتها على الرابية »

فقال : « كيف تركتها ومالى أراك متجهما ؟ »

قال : « تركتها لأمر أهم منها » · قال : « وما ذلك ؟ »

قال : « رأيت سامان اللعين فى معسكرالافشين مقربا منه ملحوظ المنزلة فلم أستطع الصبر على رؤيته وحدثتنى نفسى أن أبطش به »

قال : « لا تفعل اننا فى موقف يقتضينا جمع الكلمة · فاذا رفعت يدك على سامان أغضبت الافشين فتوقظ الفتنــة فى الجيش ، فاترك سامان الى وقت آخر · وامض الى الرابية وراقب الأسوار وامكث هناك ليلا »

فمضى وردان لشأنه ، وما خلا ضرغام الى نفسه حتى أخذ يفكر فى حاله متنقلا بخياله من جهان الى أمه الى حماد الى الافشين حتى أخذه النعاس فنام واستيقظ على صوت وردان يناديه ، ففتح عينيه فاذا هو فى المســاء وقد أظلمت الدنيا فظن أن وردان جاء يبشره بلقاء حماد فقال : « هل أتى حماد ؟ »

قال : « كلا »

قال : « وكيف عدت وتركت الراية ؟ »

قال : « تركتها لأمر لم أستطع كتمانه الى الغد ، ولابد من أن تعلمه قبل أن تذهب فى الصباح الى المعتصم »

قال : « وما هو قله بكلمتين والا فدعنى أرافقك الى الرابية آســاهرك وتقصه على هناك »

قال : « ليس حديثى طويلا لكنك اذا صحبتنى الى الرابية كان هــذا أجدى »

فنهض ضرغام ولبس ثيابا لا تميزه عن سواه من الجند وخرج مع وردان، وكانت الرابية واقعة بين معسكر المعتصم وبين معسكر اشناس،فمرا بكثير من الفساطيط بين مضىء ومظلم ، فقال ضرغام : « أراك تســير بى فى غير الطريق المستقيم »

فقال : « أريد أن أريك شيئا طريفا • هل تعرف هـــذا الفســطاط الى يسارنا ؟ »

قال : « أعرفه ، هو فسطاط العباس بن المأمون • مالنا وله ؟ »

قال : « اكتشفت سرا لو عرفه المعتصم لقلب المعسكر رأسا على عقب! ».

قال : « ما هو ؟ »

قال : « لما عدت من عندك هذا النهار ، مررت من هنـــا فرأيت الحارث السمرقندى خارجا من هذا الفسطاط وقد خف العبـاس لوداعه وبالغ فى اكـرامه ، فقلت فى نفسى : (لأمر ما هـــذا الاكرام ؟) • وأنا أعلم أن السمرقندى ناقم على المعتصم لأخذه ياقوتة منه ، ولما رآه من تقديمه اياك • ولا يخفى عليك ما فى نفس العباس بن المأمون على المعتصم لأنه أخذ الخلافة منه ، وكان بعض القواد يريدونها له ، ولكنه جبن عن طلبة البيعة فنالها المعتصم • وقد سمعت وأنا فى سامرا ان الحارث السمرقندى كان من الساعين فى خلع المعتصم ومبايعة العباس، لكنهم تهيبوا الاقدام على هذا الأمر خوفا من الجند ، فلما رأيت الحارث خارجا من فسطاط العباس اليـــوم حدثتنى نفسى بأمر ذى بال بينهما »

وكان وردان يقص حديثه همسا حتى وصلا الى الخيمة المنصوبة على الرابية والليل مظلم ، فرأى ضرغام رجلا نائما عنـــد باب الخيمة وله شخير كخوار الثور وشم رائحة الخمر فقال : « من هذا ؟ • كأنى أشم رائحة الخمر ! »

قال : « هذا ناقل السر الى ، وهو من عبيـــد الحارث عرفته فى ســـامرا فاحتلت فى دعوته الى وسقيته خمرا حتى سكر وقص على الحـديث الغريب الذى سأقصه عليك ، فهل تدخل الخيمة أم أتم الحديث خارجها • انى والحق يقال لا أرى لحراسة الراية فى هـــذه الظلمة فائدة لأن الظلام يحول دون رؤيتها على عشر أذرع فكيف من عمورية ؟ »

قال : « صدقت ليس القصد أن يراها حماد من هنـــاك ليلا ، ولكنه قد يراها ساعة الغروب ويحتال فى الخروج بعد قليـــل فلا يراها أو ربما وقع بصره عليها فى صـــباح الغد فيأتى وأنت لا تزال عندها • اقصص علينا ما سمعته من العبد »

فمشى وردان الى صخرة على بضع أذرع من الرابية وضرغام يتبعه، فجلسا وأخذ يقص عليه فقال : « أخبرنى العبد أن سيده الحارث اتفق مع العباس على أن يكون رسوله الى القواد فى هـــذا المعسكر ، وبعضهم تحت قيـــادة الافشين وبعضهم من رجال اشناس وآخرون من جند المعتصم • ليأخذ البيعة له منهم فأخذ يدور بالمعســـكرات الثلاثة حتى بايعه نفر من القواد وفيهم جماعة من خاصة المعتصم ، وقال لكل من بايعه : (اذا أظهرنا أمرنا فليثب كل منكم على الأمير الذى هو معه ويقتله • فوكل من بايعه من خاصة المعتصم أن يثبوا فى الأجل المضروب على المعتصم ويقتلوه ، ومن بايعوه من خاصة

الأفشين أن يثبوا على الافشين ويقتلوه ، ومن بايعوه من خاصة أشناس أن يقتلوه • وهكذا »
وكان ضرغام يسمع كلام وردان مطرقا يهز رأســه استغرابا ويقول : « قبحهم الله من خونة مارقين »
فقال وردان : « اني أرى العباس أعقلهم جميعا فقد فهمت من محدثي أنه لم يوافقهم على تعفيذ المكيدة الآن خوفا من تضييع الفتح ، فأحببت أن أطلعك على ما سمعته وأنت ذاهب غدا الى الخليفة فتنقله اليه اذا شئت »
قال : « كلا يا وردان • لا ينبغي أن يعلم الخليفة ذلك والا فاننا نجر على المسلمين ما نتحاشــاه من الفتنة ، ولــكننا نكتمه الى حينه ، ولاسيما أنهم أجلوا تنفيذه • ويكفي أن نسهر على حياة أمير المؤمنين »
فأعجب وردان بأريحية ضرغام وقال : « بورك فيك يا بطل • هــذا هو الرأي الصواب »
قال ضرغام : « ولكنك أخطأت اذ أبقيت العبد هنا فاذا صحا عرف المكان وربما وشى بك ، والأحسن ألا يعرفه فانقله الآن وهو بين السـكر والنوم وأنا أمكث هنا حتى تعود »
قال : « أصبت » • ونهض وأخذ في ايقاظ العبـد وهو لا يصحو فجعل يوقفه أو يقوده أو يجره حتى بعد به عن فســطاطه واقترب مـن فسطاط العباس فألقاه هناك ورجع ، وكان الليل قد انتصف ونام من في المعسكر
فلما عاد الى ضرغام قال له هذا : « أنا ذاهب الى خيمتي فامكث هنا حتى الصباح » • قال : « سمعا وطاعة »
اتجه ضرغام نحو فسطاطه وهو غارق في تفكيره ، وقبل أن يصل اليـه سمع لغطا بينه وبين السور،فالتفت فرأى جماعة من حراس المعسكر يقودون رجلا أمسكوا بخناقه وهو يقول : « خذوني الى الصاحب »
فلما سمع صوته أجفل لأنه صــوت حماد فأسرع الى فسطاطه ولبث في انتظار وصولهم وبعد قليل دخل أحدهم وقال : « أخذنا جاسوسا دخـــل المعسكر من جهة المدينة وزعم أنه قادم اليك » • قال : « ادخلوه »
فدخل فتبينه فاذا هو حماد بعينه فقال : « دعوه » • فتركوه ورجعوا • فلما خلا اليه حيــاه ورحب به وأجلســه بجانبه وسأله عن جهان فقال : « لا تزال عند البطريق »
قال : « ألم تنقل خبرنا اليها ؟ »
قال : « كلا • لم أستطع الظهور قط ، ولما رأيت جندكم بالأمس تطلعت الى الأعلام فلم أر الراية المزدوجة الا هذا المساء ، ولم أســتطع الخروج الا الآن بحيلة شيطانية فتهت عنهــا ، ولما أخـــذني الحراس طلبت اليهم أن يحملوني اليك كما ترى »

قال « أهلا وسهلا فجهان لا تزال في قصر ناطس ؟ »

قال . « نعم وهيلانة معها ، والرجل شـــديد الحرص عليهما ولا تغضب فانك ظافر بما تريد عن قريب »

قال : « وكيف ذلك ؟ اني أرى الأسوار منيعة وهيطول الحصــار على ما آرى »

قال : « سأجعله قصيرا باذن الله »

قال . « هل تعرف مدخلا سهلا ؟ »

فضحك وقال · « نعم أعرف مدخلا يسهل الفتح ، هل أدلك عليه الآن ؟ »

قال : « اني مبكر غدا الى الخليفة ، وسأطلعه على ما عندك من أخبار العدو ونجعل ذلك ذريعة لرضائه عنك فيغفر لك ما مضى » · قال : « حسنا »

فقال ضرغام : « أظنك في حاجة الى الراحة · هذا فراش نم عليه وأنا أنام هنا ونذهب في الصباح معا »

وأصبحا في الغد وقصدا الى فسطاط المعتصم فاستأذن ضرغام عليـــه فدخل واستبقى حمادا خارجا ، فرحب به الخليفة وقربه ولحظ ضرغام في وجه المعتصم تجهما ، فتهيب وسكت فقال المعتصم : « أتدرى لمـاذا دعوتك يا صاحب ؟ »

قال : « ليس لي علم الغيب يا مولاى »

فتنهد المعتصم وقال : « كنت وأنا في ســــامرا أستأنس بالقاضي أحمد وأطلعه على سرى ، أما الآن فأراني في حاجة الى مشـاورتك بعد أن خبرت صدق نيتك »

قال : « اني عبد مخلص لمولاى »

قال : « أتذكر أني شكوت اليك ارتيابي في الافشين ؟ » · قال : « نعم يا مولاى »

قال : « كنت أستعظم ما رأيته من جشعه ، ولكنني أصبحت الآن لا أعد طمعه شيئا مذكورا بجانب ما أراه في هذا المعسكر من الدسائس هل عرفت شيئا من ذلك ؟ »

قال : « لم أفهم مراد مولاى » · وقد فهمه لكنه تغابى

قال : « بلغني أن قوما أجمعوا أمرهم على نقل البيعة الى العباس ابن أخى ويريدون قتلى » · قال ذلك وعيناه تقدحان شررا من الغيظ

فرأى ضرغام من الحكمة أن يخفف عنه فقال : « لا أعـرف شيئا من ذلك وان كنت لا أستبعده لأن الخلافة ما برحت من عهد الراشدين مطمح أنظار الطامعين ، وهب أن بعضهم تحدثه نفسه بذلك ، فانه صائر الى الفشـــل

المحقق . وانما نحن الآن أحوج الى جمع كلمتنا لنتمكن من أعدائنا المحدقين بنا . فهل أدل مولاى على ما يذهب عنه الغضب »

فانبسطت أسرة المعتصم وقال : « ما وراءك ؟ »

قال : « أتيت أمير المؤمنين برجل خرج الينا في مساء الأمس من عمورية، وهو يعرف مداخلها ومخارجها . هل أدخله على مولاى » . قال . « يدخل » .

فنهض ضرغام ونادى حمادا فدخل ووقف وألقى التحية . فلما رآه الخليفة عرفه ، فعبس ولكنه أشار اليــه بالجلوس ، فجلس جاثيا فنظر المعتصم الى ضرغام وقال : « كأنى أرى حمادا العربى بين يدى ؟ »

قال : « نعم هو عبد أمير المؤمنين ، وقد يكون سبق منه ذنب فعفو مولانا أوسع »

قال : « ما الذى جاءنا به ؟ »

فقال حماد : « قضى على أن أدخل هذه المدينة منذ بضعة أسابيــع فعرفت حصونها ومعاقلها ، ولما رأيت جنــد أمير المؤمنين بالأمس بذلت جهـــدى ففررت وأتيت »

قال : « وماذا تستطيعه في خدمتنا ؟ »

قال : « أدل أمير المؤمنين على عورات البلد فيسهل عليه فتحها . ان لهذه المدينة ســـورا منيعا ، وحــدث أن سيلا جرف جزءا منه ، فكتب الملك الى عامله ليعيد بناءه فتوانى فلما خرج الملك من القسطنطينية خاف العامل أن يأتى عمورية ويرى السور خرابا فبنى وجهه حجرا وعمل الشرف على جسر من خشب واذا شاء مولاى دللته عليه من هنا »

فنهض الخليفة وقال : « أرنيه »

فدله على مكانه من بعيد ، فلما رآه أثنى عليه وقال : « اذا صدقت فيما تقول فلك الجزاء الحسن »

فقال ضرغام : « أنا أضمن صــــدقه يا مولاى ، فهــل يأمر أمير المؤمنين بتعجيل الجزاء »

قال : « نعجله اكراما لك ، وما جزاؤه ؟ »

قال : « انه لا يطلب مالا وانما تأذن له بجاريتك ياقوتة فيتزوجها »

فقال : « ياقوتة زوجتك ؟ »

فوجم ضرغام ثم قال : « نعم ياقوتة التى أمر أمير المؤمنين أن تكون زوجة لى فجرؤت على حلم مولاى ولم أتزوجها لعلمي انها مخطوبة لصديقى هــذا ، فحفظتها عندى أمانة له ، فاذا شــاء أمير المؤمنين أن يغمرنا بنعمه عفا عنا وأذن أن تكون ياقوتة زوجة لحماد بعد رجوعنا من القتال ظافرين باذن الله »

فأعجب الخليفة بأريحية ضرغام وكرم أخلاقه وابتســم له وقال : « قد

عفونا عنكما . وأحب أن يكون حماد من خاصتي وسأغدق عليه النعم »

فشكر كلاهما فضله عليهما فقال : « هلم بنا الى العمل » . وأمر أن ينقل فسطاطه أمام السور المتخرب ونصب المجانيق عليه فتخرب فجعل الروم بدلها أعوادا كل عود بجانب الآخر وكان المنجنيق يكسر الخشب فجعلوا عليه البرازخ . فلما ألحت المجانيق على ذلك الموضع تصدع السور وألح المعتصم بالحصار وكان حول السور خندق عميق لا يمكن تجاوزه ولولاه لأخذت المدينة . فأشار ضرغام على الخليفة أن يطمه بجلود الغنم المملوءة ترابا ففعل . وعمل دبابات كبيرة تسع الواحدة عشرة رجال ليدحرجوها على الجلود الى السور فدحرجوا واحدة منها فلما صارت في نصف الخندق تعلقت بتلك الجلود فما تخلص من فيها الا بعد جهد . وعمل سلالم ومنجنيقات

وكان ضرغام يلح على الخليفة أن يأذن للجند بالهجوم يريد سرعة الوصول الى جهان والخليفة ضنين به . فلم يأذن له ولكنه أمر بالحرب فكان أول من هجم أشناس بأصحابه . وكان المحل ضيقا فلم يمكنهم من الحرب فيه . فأمدهم المعتصم بالمنجنيقات التي حول السور فجمع بعضها الى بعض فوق الثلمة . وفي اليوم الثاني أمر المعتصم أن يهجم الافشين وأصحابه وأجادوا الحرب . وفي اليوم الثالث هجم هو ورجاله وفيهم المغاربة والاتراك وهجم ضرغام وعمل أعمالا تعجز عنها الابطال ووردان الى جانبه وكان قد علم بأمر حماد . وجعل ضرغام وجهته قصر البطريق

وظلت الوقعة الى الليل واحتدم سعيرها . وكان البطارقة قد اقتسموا أبراج السور فاختصموا وجاء بعضهم في الصباح وألقوا سلاحهم نكاية في الآخرين وساروا أمامهم الى المدينة . ففشل الروم ودخلها المسلمون دخول الفاتحين وامعنوا فيها نهبا وقتلا وسلبا

قصد ضرغام الى قصر البطريق يطلب حبيبته ومعه وردان وحماد ، ولم يصل الى القصر الا بعد التعب المضني لشدة ازدحام الأسواق بمن دخلها من المسلمين للنهب والسلب والسبي ، ولما دخلوا القصر وجدوا أبوابه مفتحة ولم يبق فيه شيء من المال أو النساء فطافوا غرفه يبحثون فيها فلم يقفوا لجهان ولا هيلانة على أثر ، فارتاب ضرغام في قول حماد وأدرك هذا ارتيابه فأقسم له على صدق قوله وقال : « يلوح لى أن بعض الجند دخلوا القصر ونهبوه وأخذوا أهله »

فوقف ضرغام ووردان وقد سقط في أيديهما فقال وردان : « نبحث عنهما بين السبايا بعد انتهاء المعركة »

أمر الخليفة بعد أن تم النصر للمسلمين بوقف القتال وجمع الغنائم في

ساحه المدينه لتباع ، فأخذ الناس يتزايدون فلا ينادى على السبي الواحد أكثر من ثلاثة أصوات التماسا للسرعة فكانوا يبيعون الرقيق خمسة خمسة وعشرة عشرة لكثرته ، والمعتصم يستعجلهم ، وأمر بهدم المدينة فهدموها وأحرقوها

أما وردان فانه طاف بين السبايا أثناء البيع فلم يقف لامرأته ولا لجهان على خبر ، فانقبضت نفسه وعزم على الرجوع الى ضرغام لينظرا فى الأمر . فمر فى طريقه على معسكر الافشين فرأى فرس جهان الأدهم فى جملة الغنائم وتحقق ذلك لما رأى سامان واقفا الى جانبه فتميز غيظا لكرهه سامان وأمسك عن الفتك به اكراما لضرغام لعلمه أنه لا يريد ذلك . ثم أسرع الى ضرغام وأخبره بما رأى فجاء ضرغام فرأى أدهم جهان وكان سامان قد ذهب . وما كاد ضرغام ينظر الى وجه الأدهم ويرى صورة الأسد في جبهته حتى ثبت لديه أنه جواد جهان وغلب على اعتقاده أن جهان وهيلانة فى جملة السبى الذى أخذه الافشين ، وهم بأن يدخل عليه لساعته ليطلب منه جهان وهيلانة ثم تراجع خوفا من افساد نظام الجند وهو حريص على جمع كلمته ، واعتزم أن يوسط الخليفة لانقاذ جهان وهيلانة من يد الافشين

وسأل عن الخليفة فعلم أنه في دار العامة وقد تقاطر القواد والخاصة لتهنئته بالنصر ، فمكث حتى خلا المجلس من الناس ومضى معظم النهار فاستأذن فأذن له،فرحب به الخليفة وأدناه منه وهش له متلطفا ، فدعا ضرغام له وهنأه . ولحظ الخليفة انقباضا فى وجهه فقال : « كأنى أرى الصاحب مغضبا ؟ »

قال « لا يغضب العبد بين يدى مولاه ولكننى قلق »

قال : « وما الذى أقلقك يا صاحبى ؟ » . قال : « أقلقنى أن الافشين تعدى على »

قال : « بماذا ؟ وعهدى بك حكيم لا تدع مجالا لاختلاف »

قال : « لبس الخلاف على منصب أو مغنم ولكن ساقت الأقدار فتاة خطبتها الى عمورية ، فوقعت سبية فى يد الافشين وهو يعلم أمرها فأخذها لنفسه »

فاستغرب المعتصم كيف يكون له خطيبة في عمورية فقال : « زدنى ايضاحا »

قال : «يذكر مولاى زاده الله نصرا أنه أكرمنى فى سامرا بياقوتة وأمرنى أن أتزوجها فخالفت أمره ولم أفعل ، كما ذكرت له بالأمس ، ولم يسألنى أمير المؤمنين ساعتئذ عن السبب ، وهو انى كنت علقت بفتاة أخرى من فرغانة خطبتها وتعاهدنا على الزواج يوم ندبنى للذهاب الى فرغانة لجلب الجوارى . وتوفى أبوها أثناء ذلك وأتانى أمر الخليفة أن أرجع فرجعت الى

سامرا وأجلت الزواج . وحدثت بعد ذلك أحداث يطول شرحها آلت الى خطف هذه الفتاة حتى وصلت الى عمورية ، وكانت سجينة في قصر ناطس بطريقها

فلما فتحنا المدينة طلبتها في القصر فلم أجدها ، وبعد البحث علمت انها عند الافشين ، وحدثتني نفسي أن أدخل عليه وأطالبه بها فخفت أن نختصم وتتفرق كلمة الجند ونحن أحوج الى الاتحاد . فرجعت الى مولاى أعرض عليه أمري ليرى رأيه »

فأطرق المعتصم لحظة ثم قال : « هذا أمر يسير ، فلا أظن الافشين يمسك عليك خطيبتك ، والسبايا كثيرات وقد بيعت الواحدة بدراهم معدودة » . وصفق فجاء أحد الغلمان فأمره أن يستقدم الافشين

وبعد قليل جاء الافشين فدخل وسلم فلما رأى ضرغاما هناك أدرك سبب الدعوة ولكنه تجاهل وسكت ، فقال له الخليفة : « دعوتك لأمر يهم الصاحب وأنت تعلم منزلته عندي »

فابتسم الافشين وقال : « ان الصاحب عزيز علي وهو لا يجهل ذلك »

قال المعتصم : « ان بين السبايا اللائي وقعن في حوزتك فتاة يريدها منك »

قال : « السبايا كثيرات وقد ابتعن بأثمان بخسة ، وعندي منهن عشرات فاذا طلب خمسا أعطيته عشرا »

فأدرك ضرغام تمويهه فقال : « أعني سبية معينة أنت تعرفها »

قال : « أيهن ؟ » . قال « أعني جهان بنت المرزبان »

فأظهر دهشته وقال : « وهل هي بين السبايا ؟ »

قال : « أظنها بينهن ومعها امرأة رومية اسمها هيلانة »

فالتفت الى الخليفة وقال : « اذا كانت جهان بين السبايا فاني أسأل أمير المؤمنين أن يعفيني من اعطائها »

فقال المعتصم : « الصاحب يقول انها خطيبته وهو صادق »

قال : « نعم ولكن هذه الفتاة بمنزلة ابنتي وقد أقامني أبوها وصيا عليها ولا أظن الصاحب ينكر ذلك »

فنظر المعتصم الى ضرغام فرآه قد امتقع لونه وبان الغضب في وجهه، ولما شعر ضرغام بأن الخليفة ينظر اليه أمسك نفسه عن الغضب وقال : « سمعت بالوصية ولكن خطبتنا حدثت قبل كتابتها »

قال الافشين : « لو صح ذلك لذكرها صاحب الوصية في وصيته وهو لم يفعل فأنا أعد الفتاة غير مخطوبة ولا يجوز أن تخطبها الا بأمري تنفيذا لوصية أبيها » . قال ذلك والتفت الى المعتصم كأنه يستشيره فاحتار الخليفة لأنه يحب أن ينال ضرغام طلبه ولا يحب أن يرى شقاقا في جيشه

فقال : « هب أن أبا الفتاة لم يعلم بالخطبة أو لم يعترف بهـا وأنت ولى أمر الفتاة الآن فنحن نخطبها منك »

فأبحم الافشين ووقع في مأزق بين أن يغضب الخليفة وبين ذهاب جهان من يده ، فأطرق لحظة ثم قال : « ان أمر مولاى نافذ لا مرد له ، وليكن بعد رجوعنا الى سامرا ان شاء الله »

فالتفت المعتصم الى ضرغام ولسان حاله يقول : «هذا هو الرأى الصواب»

فعلم ضرغام ان الافشين يماطل ، وانه ينوى ما يقول فقال محتدا : « اذا كان الافشين قبل طلب أمير المؤمنين فليعقد الخطبة هنا »

فابتسم الافشين وأذعن وقال : « اذا أمر أمير المؤمنين فلا اعتراض ، ولكنى لا أدرى أين السبايا الآن وأظنهن حملن الى سامرا » . ففرح ضرغام لاعتقاده بأن جهان فى المعسكر بعد أن رأى جوادها فيه . فقال : « اذا لم تكن الفتاة هنا أجلنا الخطبة الى يوم عقدها فى سامرا ، فليأمر أمير المؤمنين بأن يأتوا بها اليه »

ـ فنادى الغلام وأمره أن يذهب الى معسكر الافشين ويأتى بالفتاة السبية جهان . فاستمهله ضرغام وقال : « ان اسمها جلنار فهى معروفة بذلك فى هذه الديار »

خرج الغلام ومكث ضرغام كأنه على نار وقد هاجت شجونه وخفق قلبه تطلعا لرؤية حبيبته بعد الفراق الطويل ، وتخيل كم تكون دهشتها لما يقع نظرها عليه بغتة وهى تحسبه فى عالم الأموات . وقضى فى ذلك دقائق حسبها ساعات حتى عاد الرسول وقال : « ان السبايا أرسلن الى سـامرا هذا الصباح »

فوقع الخبر وقوع الصاعقة على رأس ضرغام ، فسكت وقد عزم فى سره أن يكلف وردان بتدقيق البحث عن جهان فاذا كانت لا تزال فى المعسكر أخذها عنوة

فلما أذن المعتصم لهما بالانصراف ، ذهب توا الى فسطاطه ليرى وردان فلم يجده فسأل العبيد عنه فقالوا انهم لم يروه منـذ الصباح ولا يعرفون مكانه . فخرج للبحث عنه فى فسطاطه فلم يجده ولم يجد حمادا ، وكان يتوقع أن يراهما معا ، فقلق وهو فى أشد الحاجة الى وردان . فخرج بنفسه لتفقد جواد جهان حيثما كان فى الصباح فلم يجده فأيقن أن الافشين صدق وأنه لا يجرؤ على الكذب على الخليفة ، فرجع الى فسطاطه وكظم ما فى نفسه

محاكمة الافشين

كان الافشين قد أمر باخراج السبايا من المعسكر في صباح ذلك اليوم، وقد حسن له ذلك سامان ، وهو الذى دله على مقر جهان في قصر البطريق وأشار عليه بسبيها ، وكان يتتبع خطاها منذ كان في البذ فعرف بخروجها الى بلاد الروم ونزولها عمورية وكان يفعل ذلك طمعا بما وعده به الافشين من أمر الوصية • فلما فتحت عمورية ذهب الى أختـــه وأظهر لها أنه جاء لنجدتها وان الافشين جرد هذه الحملة لانقاذها وأخذ يحسن لها الرضاء به وهي لا تجيبه فحملها رجال الافشين الى معسكره على فرسها قبل وصــول ضرغام الى القصرومعها هيلانة ، وكانت تعزيةكبيرة لها وقد تحابتا وتآلفتا وكل منهما تحسب نفسها شريدة لا نصير لها • فلما صارتا في معســـكر الافشـــين شق على جهان أسرها وحدثتها نفسها أن تطلب مقابلة المعتصم وتستجير به من الافشين ، فأتاها أخوها وحبب اليها السكوت ، وذكر لها أنه سيأخذها الى سامرا فتكون هناك كما تشاء • فلما ذكر سامرا تذكرت ضرغاما وفي نفسها بقية أمل بوجوده أو معرفة حقيقة حاله من أمه اذاكانت لا تزال على قيد الحياة فوافقته واشترطت أن تكون هيلانة معها فقبل•وكان غرض سامان أن يفر بجهان قبل أن يعلم بها ضرغام ، فلما رأى وردان في الصباح يبحث عنها أسرع الى الافشين وأشار عليــه بأن يسرع بارسالهما رأسا الى أشروسنة للاحتفاظ بهما هناك ففعل ، ثم أسرع ســـامان وأعد الأحمال وحامية تحرسهم في الطريق ورحل خلسة • ولما جاء رسول الخليفة يطلب جهان كان قد مضى على خروجهم بضع ساعات وهم على ظهور الخيل

أما ضرغام فأصبح لا يدرى ما يفعل وقد أدهشه غيــاب وردان وحماد ، وخاف أن يكونا قد أصيبا بسوء وظن أن الافشين أوقعهما في تهلكة

وبقي الجند في عمورية عدة أيام قضوا بعضها في بيع الغنائم والأسرى وكانت كثيرة ربح تجار اليهود منها ربحا جزيلا • وقضوا أياما بعد ذلك في هدم المدينة واحراقها وقتلوا من أهلها جمعا كبيرا وسلم ناطس نفسه

فلما فرغوا من ذلك أمر المعتصم بالرجوع الى سامرا ، وضرغام في قلق لا مزيد عليه ، ورجع مع الراجعين وهو يرجو أن يرى طلبته في ســـامرا • واتفق له أثناء الرجوع أنه رأى في عرض الأفق فرسانا لم يقع نظره عــلى

خيولهم حتى اختلج قلبه لأنه رأى بينها جوادا عرف انه جواد وردان فهمز جواده لملاقاة الركب ولما اقترب منهم عرف اثنين هما وردان وحماد فصاح : « وردان ؟ »

قال : « لبيك يا مولاى » ۰ وفي صوته رنة السرور والظفر

فقال : « أين كنتما فقد قلقت عليكما ؟ »

قال وردان : « كنا في سامرا » ۰ قال : « ولماذا ؟ »

قال وهو يضحك : « أوصلنا العروسين اليها ورجعنا » ۰ قال ضرغام : « أي عروسين ؟ »

قال : « جهان وهيلانة ! »

قال : « كيف ذلك قل ؟ ۰ قل حالا »

قال : « رأيتك تصانع الافشين ولا تخاطبه الا على يد الخليفة ، ورأيته يخادعك ويبغي الفرار بهما الى حيث لا نعلم، والعمر لا يتسع للتفتيش عليهما مرة ثانية ۰ فخطر لى أن أعمد الى القوة على غير علمك لئلا تشير على بأن أتجنب أسباب الشقاق ۰ وكنت قد علمت ان الافشين يحاول الفرار بهما وقد أمر سامان بذلك، فاتفقت مع حماد على أن نأخذهما بالقوة ونأخذه معهما، وقد فعلنا وأوصلنا العروسين الى بيت الصاحب فى سامرا وزججنا سامان فى السجن حتى نعود »

ففرح ضرغام فى قلبه ولكنه قال : « ألم يكن الأولى أن نبقى على عهد الافشين ، فقد وعدنى بين يدى الخليفة أن يعقد لى على جهان حالما نرجع الى سامرا »

قال : « وهل صدقت أنه كان ينوى ارسالها الى سامرا ؟ »

فالتفت الى حماد وقال : « وأنت أيها الصديق أرجو أن تكون قد سعدت برؤية ياقوتة ، ولكن لماذا رجعت ؟ »

قال : « رجعت لأكون فى معيتك وأتم خدمتى لك »

وكانت الحملة سائرة فرقا وضرغام فى فرقة المعتصم ليكون قريبا منه ۰ ولما أمسى المساء حطت الأحمال ونزل الناس للراحة والرقاد ۰ وقص وردان على ضرغام حديث مكايد جديدة يكيدها القوم للمعتصم من قبيل ما كان قد أطلعه عليه وان حياة الخليفة فى خطر ولابد من ابلاغ الخليفة الأمر

فقال حماد : « أنا أنقل الخبر الى الخليفة وانما أطلب من ضرغام أن يدخلنى عليه فى خلوة »

قال : « قم بنا الآن » ۰ وكان الوقت عشاء فلما وصلا الى فسطاط الخليفة استأذن ضرغام فى خلوة فأذن له ، فدخل ومعه حماد فقال الخليفة : « ما وراءك يا صاحب ؟ »

قال . « عند صـــديقي حماد عبد أمير المؤمنين مخبآت مهمة . اذا أذن له كشفها »

قال : « قل واحذر الانحراف عن الصواب »

فقص عليه تواطؤ القواد على قتله ومبايعة العبـــاس وسمى المتآمرين وفيهم الشاه ابن اسماعيل الخراســاني ، والحارث السمرقندي ، وعجيف ابن عنبسة ، وغيرهم ، فاهتم المعتصم بالأمر واستقدم المتهمين واستجوبهم فاعترفوا فقتلهم على أساليب مختلفة لا محل لذكرها • واحتفظ بالعباس حتى وصلوا الى سامرا فسماه اللعين وأخـذ أولاد المأمون فحبسهم في داره حتى ماتوا ، وعد المعتصم هذه الخدمة جميلا لضرغام وحماد معا وأنعم عليهما

أما الافشين فبلغه من بعض رجاله ما صنعه وردان وحمـاد ، فصبر حتى يصل الى سامرا فيشكوهما ويشكو ضرغاما الى الخليفة

ولما دنت الحملة من سامرا أخذ قلب ضرغام في الخفقان لعلمه أنه سيلقى جهان بعد طول الفراق

▭

كانت جهان بعد أن خطفها وردان وحماد قد عادت اليها آمالها • وكانت لما رأتهما هاجمين بمن معهما من الرجال لاختطافها قد استعاذت بالله من توالي الاحن عليها وأرادت الدفاع ، ثم سمعت صوت وردان وسمعته أيضا هيلانة زوجته فانحازتا اليه ، ولا تسل عن حال هيلانة لما سمعت صـــوت زوجها وهي تحسبه بين الأموات فترامت عليه وتبادلا آيات الشوق والحب • فأمر الذين معه بالقبض على سامان قبل أن يفر فقبضوا عليه وشـــدوا وثاقه ، وتقدم وردان الى جهان فلما رأته قالت : « وردان؟ » • قال : « نعم يا سيدتي أبشري بالسلامة واللقاء »

فصاحت : « اللقاء •• ضرغام •• ضرغام •• أين هو ؟ »

قال : « في سلامة وخير ، وسيأتي بعـد أيام قليلة . وأنا ذاهب بك الى منزله في سامرا تمكثين مع أمه حتى يصل »

فظنت نفسها في حلم وتفرست ثانيـــة في وردان وقالت : « وردان • أضرغام حي ؟ » • وتذكرت أن سامان أول من أنبأها بموته فالتفتت اليـه وقد شد وثاقه الى ظهر الفرس فرأته ينظر اليها بذلة واستعطاف اذ ســمع ما دار بينها وبين وردان ، فحولت وجهها عنه ورأت صديقتها هيلانة ملتصقة بوردان يكادان أن يطيرا فرحا فقالت لها : « هل تعرفين وردان قبل الآن؟ »

فقالت هيلانة : « هذا زوجي يا مولاتي ! »

قالت : « زوجك البطريق الذي قصصت على خبره ؟ »

قالت : « نعم هو هو ٠٠ الحمد لله على لقائه ، ولك الهنـاء ببلوغك مقر خطيبتك » ٠

وسألت جهان : « أين ضرغام ؟ » ٠ فقال وردان : «أنه في عمورية وأنهم سينتظرونه في سامرا » ٠ ومشوا نحو سامرا وكل فرح بما لديه٠وقضوا مسافة الطريق يتحدثون بما مر بهم من الغرائب ٠ وقص وردان على جهان ما حظى به ضرغام عند المعتصم وكيف سماه الصاحب وأسـباب ذلك ، وأخبرها خبر حماد وخطيبته ياقوتة وما بينهما من الشبه العجيب

ولما وصلوا الى سامرا بعث وردان بساماں الى صاحب السجن وقال له : « ان الصاحب يأمر بسجن هذا الجاسوس » ٠ وبعث كذلك الى آفتاب ينبئها بقدوم جهان فكان لالتقائهما دهشة يندر مثالها ، وآفتاب لا تمل لمس جهان وضمها وتقبيلها٠أما ياقوتة فكان فرحها بحماد عظيما ، وكانت عالمة ببقائه حيا ولكنها دهشت لما رأت جهـان فظنت أنها ترى نفسها بمرآة لشـدة المشابهة بينهما ولم تكن جهان أقل اندهاشا منها ٠ فلما أتم وردان مهمته عزم على الرجوع الى عمورية فرجع حماد معه

ومكث أهل الجوسق على مثل الجمر في انتظار ضرغام

وبعد بضعة عشر يوما جاءت البشائر برجوع المعتصم وجنـده ظافرا ، فزينت سامرا واصطفت المواكب والجنود ورفعت الاعـلام وضربت الطبول وضجت المدينة فرحا ، وخرج النساء والرجال للفرجة واشتغل الناس بهذا الاحتفال عن كل شيء

أما جهان فانها لم تكن تسـمع صوتا ولا ترى شبحا وانما كانت عيناها شائعتين نحو باب الجوسق لعلها تشـاهد ضرغاما داخلا في موكب الخليفة فلما دخل الخليفة لم تر أحدا

وفيما هي في لهفتها سـمعت سعالا في الدار فارتعدت فرائصها لانه سعال ضرغام فأرادت أن تجرى للقائه فلم تسعفها قدماها واحمر وجهها ثم علاه الاصفرار ولكنها تجلدت وتمالكت واستعادت رباطة جأشها ومشت ٠ وكان ضرغام قد دخل الغرفة فرأى جهان تمشى مشية الجلال والوقار وعيناها تتكلمان كأنهما خطيب على منبر يدعو النـاس الى التعبد أو الى التفانى فى الحب ٠ فانحنى مسلما وبوده أن يكون سلامه معانقة لولا العادة التي تحول دونه ٠ ثم وقف ومد يده اليها فمدت يدها وابتسما ابتسـامة أغنت عن حديث طويل ثم قال : « مرحبا بعروس فرغانة ٠ لقد أطلت علينا الغيـاب وطال بنا الطريق ، مع أن طريق المحبين قصير على ما يقولون ! »

فضحكت وقالت : « طال الطريق لوعورته وكثرة عقبـاته ٠ ولكن ماء السكر كلما زدته غليانا زادك حلاوة »

قال : « لكنى خشيت أن يجف ماؤه فيحترق »

قالت . « أوشك أن يحترق لو لم أرطبه بدموعي ! » . قالت ذلك وآبرقت عيناها وتلألأت فيهما دمعتان ونظرت اليــه نظرة وقعت كالسهم في قلبه فقال لها وقد أخذ الهيام منه مأخذا عظيما : « أبمثل هذه الدموع كنت تتقين الاحتراق ؟ »

قالت : « نعم ولكن شتان بين دموع الحزن ودموع الفرح ، وأشكر الله على كل حال »

وكانت يدها لا تزال في يده ، فضغط عليها وقادها الى مقعد هناك وهو يحدق في عينيها ويقول : « أراك تشكرين الله وعهدى بك تشكرين أورمزد فمتي حدث هذا التغيير ؟ »

فقالت وهي تمشى معه حتى جلســا متحاذيين وقد نسيا الوجــود : « حدث يوم تبدلت حالي وشغل فؤادي فأصبحت لا أملك شعوري ولا أرى هذا الوجود الا كما يشاء ضرغام . ولا آسف الا على زمن غلب فيــه اليأس على قلبي . يوم بعثت أخي سامان وغيــره للبحث عن ضرغام في ســامرا فعادوا وقالوا : (غير موجود) . وزاد بعضهم انه ليس على الأرض . تبا لتلك الســاعة كم أحدثت وكم غيرت . ولــكني نسيت كل ذلك الآن ، ولا أعلم الا أني أسعد خلق الله بل أراني أســعد اليوم مما كنت بقربك في فرغانة . كنت يومئذ سعيدة عن جهل لأني لم أجرب الشقاء ، وكنت أتلذذ بقربك مندفعة بتيار الحب وأنا لا أعرف اللقاء ، وأما اليــوم فقد عرفت أن السعادة يزيد مقدارها كلما زاد الشقاء في سبيل الحصول عليها . لو عرفت ذلك يوم اجتماعنا في فرغانة لفضلت أن أجاهد في ســبيل حبك قبــل الوصول الى قربك » . قالت ذلك وقد غلب عليها الهيام ونسيت رباطة جأشها وكبر نفسها وهو ينظر اليها وقد شغل بمعاني وجهها وســحر عينيها عن تفهم كلامها ، ففرغت من حديثها وهو لا يزال يرنو اليها كأنها لا تزال تخاطبه

ثم انتبه لنفسه وخجل من سهوه ونسى ما كانا فيه فقال : « كم أحب أن أسمع ما قاسيته أثناء هذه الغيبة وقد سمعت بعضه ولكني ألتذ أن أسمعه من فيك . ولا ريب عندي انك تحبين الاطلاع على خبري والحــديثان طويلان سنتبادلهما في فرصة أخرى . ولو بقيت بجانبك الدهر كله لا أرتوى من النظر اليك يا جنتي وحياتي ، وصدقت ان الحب تزداد لذته كلما زاد التعب في سبيله ولم أكن أحسب حبنا يقبل الزيادة وحاشا أن يقبلها ولكنه يزداد بالتعب حلاوة وصفاء »

فوقفت وهي تقول : « صــدقت ان تلذذنا باللقاء لا نهاية له فينبغي أن ننظر الى الآخرين . هل رأيت أمك ؟ » . قال : « لم أرها بعد »

قالت : « هنيئا لك هــذه الأم الحنون ، وكم هي في شــوق الى لمسك وشمك »

وخرجت معه الى الدار وفيها أمه فشعرت بهما فقبل ضرغام يدها وهمت هي به ضما وتقبيلا · وكانت ياقوتة واقفة هنــاك فقالت جهان لضرغام : « ألم تكن تستأنس برؤية ياقوتة أثناء غيابي ؟ »

قال : « ربما استأنست حينا وغصصت بريقي أحيانا ، وان هذا الشبه بينكما دلني عليك وسأقص عليك خبره »

قضوا في أمثال هذه الأحاديث ساعات ، وأعد الطعام فجلسوا اليــــه فقالت آفتاب لابنها « قد آن يا ضرغام أن تعقد قرانك »

فقال : « صدقت يا أماه ، غدا ان شاء الله »

وفيما هم في ذلك جاء أحد غلمان القصر يدعو ضرغاما الى مقابلة الخليفة ، فلبس قلنسوته وسواده وخرج ، فلما دنا من دار العامة رأى بالباب جماعة من الغلمان الأشروسنية فعلم أن الافشين هنـــاك ، ثم دخل فرأى الخليفة جالسا على سريره في صـــدر الايوان والافشين على كرسي بين يديه ، ورأى وردان وحمادا واقفين بجانب القاعة · فسلم فأشـار اليه المعتصم أن يجلس فتباطأ وقال : « يأذن لي أمير المؤمنين بكلمة قبل أن أجلس » · قال : « قل »

قال وهو يشير الى وردان : « أقدم لأمير المؤمنين البطريق وردان أحــد كبار بطارقة أرمينيا ، وقد أبلى في جيشنا بلاء حسنا في البذ وعمورية »

فاستغرب المعتصم والافشين كلامه وقال الخليفة : « أليس هذا خادمك وردان ؟ »

قال : « كنت أظنه خادما وأنا لا أعرف أصله ، فلما بلوته عرفت فيـــه الرجل الكريم ، وقد كانت له عندي أياد بيضـــاء عادت بالنفع على جنــــد المسلمين ، فاذا أمر أمير المؤمنين بجلوسه فعل وهو صاحب الأمر »

فقال : « ولكنه في مجلس القضاء وقد دعوتك لتؤدي الشهادة »

قال : « أفعل ذلك طوعا لأمير المؤمنين » · وجلس وأصغى

فقال المعتصم : « يقول قائد جندنا الافشين ان وردان وحمادا تعديا على رجاله واختطفا منهم امرأتين من سبيه بعد أن كنا قد أرجأنا النظر في ذلك حتى رجوعنا الى سامرا »

قال ضرغام : « نعم فعلا ذلك يا أمير المؤمنين ، واذا رأى مولاي في هذا ذنبا فأنا صاحبه لأنهما فعلاه لأجلي وعلي تبعته ومهما يكن من أمر فان حمادا هذا (وأشار اليه) قد شمله عفو أمير المؤمنين وقد جاء سامرا لينال ما وعده به مولانا فلا يؤخذ بجريرة سواه »

فحك المعتصم جبينه كأنه يسترجع الى ذهنه شيئا نسيه وقال : « صدقت ان حمادا ذو فضل وسابقة وسنوليه ما هو أهل له فيخرج الآن اذا شاء »

فسلم حماد وخرج ، وبقي وردان وضرغام والافشين ، فقال الخليفة : « انك قلت عن وردان ما هو أهله ، ولكنه خالف أمرا أصدرناه بشأن السبيتين ،

فقد قلنا ونحن في عمورية أن يترك أمرهما حتى رجوعنا الى سامرا ، فكان ينبغي أن يراعي هذا الأمر . فليؤتى بالسبيتين الآن الى هنا »

فقال ضرغام : « ان السبيتين هما خطيبتي وزوجته (وأشار الى وردان). أما خطيبتي فقد سبق أمر الخليفة أن تكون زوجتي وهي في منزلي ، وأما امرأة البطريق فهي عندي أيضا ولا أظن الافشين يهمه أمرها »

فقال الافشين وقد بدا الغضب في عينيه : « يهمني أولا أن يراعى أمر أمير المؤمنين في الاثنتين . وأما جهان التي تقول انها خطيبتك فلها شأن خاص لأني ولي أمرها بوصية أبيها »

فعند ذلك تقدم وردان واستأذن في الكلام ، ووجه خطابه الى الخليفة وقال : « هل ثبت لأمير المؤمنين انه وصي ؟ »

فانتبه المعتصم لهذا الاعتراض والتفت الى الافشين وقال : « أين كتاب الوصية ؟ »

فقال الافشين : « هو عندي . وهل أنا كاذب ؟ »

فقال المعتصم : « الشرع يقضي بالاطلاع عليه قبل اصدار الحكم ، وهل يهمك كتمانه ؟ »

فظهرت الحيرة في وجه الافشين فعمد الى المغالطة ، وتغاضب وقال : « اذا كان الافشين الملك والقائد يكذب في مثل هذا ويصدق العلج فعلى الدنيا السلام ! »

فقال وردان : « اني لا أنكر وصايته ولكنني أرى أن يطلع عليها أمير المؤمنين على نصها ليعرف من هو صاحب اشروسنة »

فاستشاط الافشين غضبا وكأنه نسي موقفه فقال : « ان الافشين قائد جند المسلمين لا يخاطب بمثل هذا الكلام في حضرة أمير المؤمنين ، وهب أن الوصية ضاعت أو سرقت أو احترقت فهل يؤخذ ضياعها حجة على فأعد كاذبا . والرجل يقول انه لا ينكر الوصاية فما الفائدة من نصها ؟ »

فقال وردان : « لا تغضب أيها القائد اننا في موقف القضاء بحضرة أمير المؤمنين والقضاء يطلب اليك أن تتلو نص الوصية »

فازداد الافشين غيظا وقال : « قد ضاعت الوصية ولا أذكر نصها »

قال وردان : « أنا أذكره ، هل أتلو بعضها على مسامع أمير المؤمنين »

قال المعتصم : « اتل ما شئت »

فقال : « يكفي أمير المؤمنين أن الوصية مصدرة باسم أورمزد معبود المجوس من دون الله تعالى ، وقد شهد فيها الموبذ كاهن المجوس بدل القاضي الشرعي ، أليس كذلك يا قائد جند المسلمين ؟ »

فهاج غضب الافشين وأدرك أن الرجل ينوى اذلاله وفضح أمره ، ولم

على ما فرط من تعنته ولكنه تجلد وقال : « وأين هو وجه الطعن فيها ؟ ان الموحى مجوسى فكتبها على ما يقتضيه دينه وعادات بلاده · كأنك تريد بذلك اتهامي بالمجوسية · انها لوقاحة كبرى ! »

فوجه وردان كلامه الى المعتصم وقال : « هل يأذن أمير المؤمنين أن أقول ما أعرفه »

قال : « انك في موقف الدفاع عن نفسك . قل ما بدا لك »

فقال للافشين : « لا أتهمك بالمجوسية اتهاما . ولكنني أقول انك مجوسى تسجد لأورمزد حتى الآن · وأقول فوق ذلك أنك تتظـــاهر بالدفاع عن الاسلام وأنت انما تفعل ذلك طمعا في المال · ولو استطعت سحق دولة المسلمين لسحقتها وهذا بيت النار في فرعانة شاهد على ذلك »

فلما قال وردان ذلك رأى الخليفة التهمة أوسع من أن يقضى فيها في تلك الجلسة فأحب ارجاء نظرها فقال : «ان هذه التهمة خارجة عن موضوع هذا المجلس فانما نبحث الآن في اختطاف السبيتين »

فقـــال ضرغام : « قلت لأمير المؤمنين ان الذنب في ذلك ذنبيأنا . لأن احداهما خطيبتي وهي في منزلي الآن »

فقطع الخليفة كلامه وقال : « نحن لا نعترض علىزواجك بها وانما نؤاخذ وردان على اختطافها »

فقال وردان : « انما اختطفتها لعلمي ان مولانا الافشين أمر بارسالها الى بلده أشروسنة لتضاف الى خزائن الأموال التي يرسلها الى هناك كل سنة من أموال المسلمين ليستعين بها على اسقاط دولتهم عند الحاجة ! »

فنظر المعتصم الى الافشين فرأى لحيته ترقص في صدره ، ولو جس يده لرآها باردة كالثلج ترتعش فقـــال له : « ان هـــذه التهم كبيرة ، وأراك لا تدفعها »

فقال الافشين : « كلها مفتريات كاذبة . وموعـــدنا غدا فيظهر الحق من الباطل »

فقال وردان : « لا بأس من التأجيل الى الغد أو بعده ، ولكن من يضمن لمجلس القضاء ان المتهم يبقى في سامرا الى الغد »

فقال المعتصم : « يبقى هنا في الجوسق » · وأشار الى صاحب حرسه أن يأخذ سلاح الافشين وسواده ، ويتولى حراسته·فنهض الافشين وقد سقط في يده ولكنه ما زال يكابر ويغالط ويمشي مرحا وهو يتوعد ويتهدد

وبعد خروج الافشين أشـــار المعتصم فخرج وردان واستبقى الصاحب ، فلما خلا اليه . تنهد وقال : « تبا لهؤلاء المجوس انهم يشـــاركونا في ملكنا ويخدعوننا في أمرنا · ولكن الله أعاننا على الانتفاع بسيوفهم ورد كيدهم في نحورهم · ماذا رأيت يا صاحب ؟ »

قال : « ان أمير المؤمنين يعرف ما انطوى عليه هؤلاء القوم ، وكم شكا منهم ومن مكرهم السيء »

قال : « ان ما أشار اليه صاحبك وردان لم يخف علينا فان كتب عاملنا في خراسان كانت تأتينا وفيها الشكوى من كثرة الأموال التي يرسلها الافشين الى بلده ونحن صابرون . وقد رفعت الينا الكتب من كثيرين يتهمونه بالمجوسية وعبادة الأصنام وبالتواطؤ مع المازيار صاحب طبرستان وبابك على حربنا . وقد علم بذلك القاضي احمد ووزيرنا محمد بن عبد الملك الزيات وغيرهما . وقد بعثنا نستقدم المازيار صاحب طبرستان الذي تواطأ معه على الغدر بنا . والمرزبان أحد ملوك السغد . وموبذا مجوسيا.واثنين من المسلمين كان الأفشين قد عذبهما لأنهما بنيا مسجدا في أشروسنة . وسأعقد مجلسا يحضره هؤلاء نفضح به ما استتر ونجزى كل فاعل بما فعل. أما أنت فلك عروسك تهنأ بها ، ولا بأس على وردان فهو حر وسنجعله من خاصتنا . وعلى الباغي تدور الدوائر » . فدعا له وخرج

عقد المعتصم في اليوم التالي مجلسا حضره كل من : القاضي احمد بن داؤد، والوزير محمد بن عبد الملك الزيات ، وغيرهما من الأعيان . ودعا الصاحب ووردان فحضرا ، ثم أمر بالأفشين فأخرج من محبسه وجيء به الى المجلس ، وتولى ابن الزيات اتهامه بعد أن أحضر الشهود المشار اليهم . فجيء أولا بالرجلين المضروبين وكشف عن ظهريهما وهما عاريان من اللحم وقال للأفشين : « أتعرف هذين ؟ »

قال : « نعم هذا مؤذن وهذا امام بنيا مسجدا بأشروسنة فضربت كل واحد منهما ألف سوط لأن بيني وبين ملك السغد عهدا بأن أترك كل قوم على دينهم . فوثب هذان على بيت نار في أشروسنة كان فيه أصنام فأخرجاها وجعلا مكانها مسجدا فضربتهما على هذا »

قال ابن الزيات : « ما كتاب عندك حليته بالذهب والجوهر وفيه الكفر ؟»

قال : « هو كتاب ورثته عن أبي فيه من آداب العجم وكفرهم فكنت آخذ الأدب وأترك الكفر.ووجدته محلى فأبقيته ، وما أظن هذا يخرج من الاسلام»

ثم تقدم الموبذ وقال وهو يشير الى الافشين : « ان هذا يأكل لحم المخنوقة ويحملني على أكلها ويزعم أنها أرطب من المذبوحة.وقال لي يوما - (قد دخلت لهؤلاء القوم — المسلمين — في كل شيء أكرهه حتى أكلت الزيت وركبت الجمل ولبست النعل غير اني الى هذه الغاية لم أختتن) ». فاعترض الافشين على كلام الموبذ بأنه غير ثقة . فرد ابن الزيات عليه . ثم تقدم ابن الزيات وقال مخاطبا الافشين : « كيف يكتب أهل بلدك اليه؟ » . قال : « لا أقول »

قال : « ألا يكتبون اليك بلغتهم ما معناه انك اله الآلهة ؟ ».قال : «بلى»

فقال ابن الزيات : « ان المسلمين لا يطيقون هذا فما أبقيت لفرعون ؟ ».

قال : « هذه كانت عادتهم لأبي وجدي ولي أيضا قبل أن أدخل في الاسلام فكرهت أن أضع نفسي دونهم فتفسد طاعتهم »

ثم تقدم المازيار ، فقال ابن الزيات للافشين : « هل كاتبت هذا ؟ » .
قال : « لا »

قال المازيار : « كتب أخوه لأخي باسمه انه لم ينصر هذا الدين غير بابك ، ولكن بابك قتل نفسه ، وجهدت أن أصرف عنه الموت فأبى الا أن أوقعه ، فان خالفت لم يكن للقوم من يرمونك به غيري ومعي الفرسان وأهل النجدة فان وجهت اليك لم يبق أحد يحاربنا الا ثلاثة : العرب والمغاربة والأتراك . والعربي بمنزلة الكلب اطرح له كسرة واضرب رأسه، والمغاربة أكلة رأس ، والأتراك ما هي الا ساعة حتى تنفذ سهامهم ثم تجول الخيول عليهم فتأتي على آخرهم ويعود الدين الى ما لم يزل عليه أيام العجم) . »

فقال الافشين : « انه يدعي ان أخي كتب الى أخيه . فما ذنبي أنا ؟ »

فتقدم وردان عند ذلك وقال : « تزعم أن أخاك كتب ولا تبعة عليك ، فما قولك فيمن رآك رأى العين في بيت النار بفرغانة ومعك المازيار هذا ونائب عن بابك ، وقد تواطأتم على محق دولة المسلمين وتعهدت أن تجمع المال الكافي لذلك العمل »

فأعرض الافشين بوجهه عنه وقال : « هذا خصم يكذب تأييدا لخصومته»
قال : « وان آتيتك بالموبذ نفسه الذي شهد على كتاب الوصية وسمعته يقول مثل قولي ؟ » . فقال المعتصم : « سنرسل في طلبه »

فقال وردان : « واذا بعث أمير المؤمنين الآن من يدخل بيت الافشين في سامرا وجد أحد التماثيل المجوسية »

فقال ابن الزيات : « قد أتينا بها بالأمس » . وأمر غلاما أحضرها واذا هي تمثال من خشب عليه حلية كثيرة الجوهر وفي أذنه حجران مشتبكان عليهما ذهب وأصنام أخرى وكتاب من كتب المجوس وغيره . فارتج على الأفشين وسكت ، فأمر المعتصم بارجاعه الى الحبس وأن يقطع عنه الطعام والشراب فقطعوهما حتى مات سنة ٢٢٦ هـ

وخلا ضرغام بالمعتصم بعد أيام وقص عليه حقيقة وصاية الافشين على جهان فأمر بالغائها ورد المال الى صاحبته . وبعث الى فرغانة فأمر بهدم بيت النار كارشان شاه ، وأمر أن يكون حماد ووردان من خاصته وأن يقيما في قصرين داخل الجوسق مثل ضرغام ، وأمر بعقد كتاب ضرغام على جهان ، وأعطاهم عطاءات شتى

نسب ضرغام

بقي سامان في السجن لا يكترث له أحد الا وردان فقد كان يتردد عل من حين الى آخر ويسأله عن حاله تهكما وتشفيا . وكان ضرغام في شا عنه حتى اذا فرغوا من أمر الأفشين احب ان يطلق سراح سامان كر ا وفضلا فقال وردان : « اذا اطلقته فكأنك سجنتني مكانه ، ويهمني أن أسأله عن أشياء واسمع جوابه عنها لأني رايت منه امورا لا تصدر عن البشر »

فقال : « نسأل جهان عن رأيها في ذلك » . قال : « افعل »

فذهب الى جهان وسألها فقالت : « لا ادري ، وليتك لم تسألني عنه لأني احب ان انساه »

قال : « هو في السجن الآن فما الذي تريدين أن نفعل به ؟ »

فأطرقت حينا ثم قالت : « أحب أن تطلق سراحه ، ولكنني في شوق الى سر لا يزال مكتوما عني . أريد ان اعرف سبب غضب ابي عليه »

فتذكر سرا آخر قد طال اشتياقه الى معرفته وهو حقيقة نسبه فعزم أن يسأل أمه عنه بعد الفراغ من سر سامان

وامر باستقدام سامان من السجن الى منزله في جلسة كان فيها هو وامه وجهان وياقوتة وحماد ووردان وهيلانة

ودخل سامان دخول غريب تنبحه الكلاب ، ووقف وقوف مجرم يخاف العقاب ، وقد شوهت خلقته كأنما طبعت على صحيفتها نقائصه . وكان رث السربال زاده الهزال ذلا ، حتى اذا توسط الدار وقف محني العنق يجول ببصره في الجالسين فلما رأى ياقوتة دهش واخذته البغتة ، فالتفت الى جهان واجهش فسبقته الى البكاء وقد عز عليها أن تراه واقفا هذا الموقف رغم ما ارتكبه معها من السيئات . ولم يبق احد من الحاضرين الا رق له ، الا وردان فانه لم تأخذه به شفقة وكان هو اول المتكلمين فقال : « لا تخف يا سامان لم ندعك لنحاكمك على جريمة من جرائمك فانها لا تفتقر الى محاكمة ولا نعرف عقابا يفي بها ، ولكنني رأيت في سيرتك ما ادهشني من تقلبك في الايذاء فبينما انت ناقم على الأفشين لأنه حرمك من الميراث اذا بك تستعين عليه بالصاحب ثم تستعين على هذا بذاك ثم بذاك على هذا ، واغرب شيء انك غدرت بأختك هذه وهي كالملائكة خلقا وخلقا واغريت بها

افسق أهل الارض وهي مخطوبة وقد وثقت بك واتكلت عليك في الفرار الى خطيبها . فرضيت ان تؤخذ غدرا وتحمل قسرا الى ذاك اللعين زعيم اهل الفحشاء . ولم تكن لتنال على عملك جزاء افضل مما قد تناله لو جئت بها الى سامرا . ومع ذلك لم تنل من بابك غير الخزى ، وبعد أن كنت نصيره خنته وبحت بأسرار حصونه الى عدوه ، وواطأت الأفشين على أختك وعلى خطيبها . اني عرفت في الناس اشرارا كثيرين يرتكبون أفظع مما ارتكبته في سبيل غرض يعرفونه ويعرفه الناس فما عرفنا لك غرضا »

وكان سامان يسمع قول وردان وهو يصطنع الاطراق وعيناه لا تتحولان عن ياقوتة وان كان ذلك لم يظهر عليه لحوله . فلما أتم وردان كلامه أجابه سامان قائلا : « تسألني عن أسباب لست أعلم بها منك . ارتكبت فظائع لم يعرف الناس عنها الا طرفا منها ، ولو سئلت عن اسبابها ، أو عن سبب أحدها ، لم استطع جوابا ، وانما اعرف أني كنت ارتكب الخطأ ثم أبادر الى اصلاحه بخطأ أفظع منه ، فكانت أعمالي سلسلة هفوات والعبرة بالهفوة الاولى » . قال ذلك وتغير وجهه وغص بريقه وتململ فابتدره وردان قائلا : « ما هي تلك الهفوة ؟ »

فحول بصره الى ياقوتة وأطال النظر اليها وعيناه ترتعشان ، ثم انتقلت الرعشة الى أطرافه حتى اصطكت ركبتاه وكاد يسقط فلحظ ضرغام ذلك فقال له : « اجلس يا سامان وتكلم » . وقد استغربوا تغيره وتحديقه في ياقوتة حتى تولاها الخجل وحولت بصرها عنه . فجلس سامان جاثيا وجعل راسه بين كفيه واخذ في البكاء بصوت عال يتخلله شهيق كثير حتى كاد يختنق ، فأنكر القوم بكاءه لأول وهلة وظنوه يحتال ، فصبروا عليه حتى فرغ من بكائه وهم ينظرون بعضهم الى بعض . واذا به نهض بغتة وترامى عند قدمي ياقوتة وأجهش في البكاء فدهش القوم ولا سيما حماد ووثب اليه ليرجعه عن امراته فلم يطعه فقال له : « ماذا اعتراك يا سامان ، يسألونك عن جريمتك الاولى فلماذا لا تجيب ؟ »

فصرخ قائلا وهو يشير الى ياقوتة : « هنا غلطتي الاولى . هذه هي ! » . وعاد الى البكاء ، فازداد الحاضرون دهشة وظنوه جن ، ولا سيما جهان فقالت : « قل يا سامان فقد حيرتنا . ما خطبك ؟ وما لك وياقوتة ؟ » بك ؟ »

قال : « هذه هي غلطتي نفسها . وما هي ياقوتة وانما هي شهر زاد »

فلما قال ذلك صاحت آفتاب ام ضرغام : « شهر زاد ؟ نعم هي شهر زاد ! » . وكانت جالسة بالقرب منها فضمتها الى صدرها وقالت : « قد تنسمت ريحك منذ لمستك للمرة الأولى » . ثم صاحت : « جهان حبيبتي الا تعرفين شهر زاد ؟ »

فبغتت جهان وأعملت فكرتها وقالت : « لا أعرف فتاة بهذا الاسم الا أختا لى ماتت طفلة قبل أن أولد »

فقالت آفتاب : « هذه هي أختك لم تمت بل كانت قد فقدت . وانما قالوا ذلك تلطفا وتسترا ولم يكن يعرف هذا السر الا انا وأبوك وسامان هذا ، وكان ضياعها على يده فانه كان قد خرج بشهر زاد الى البساتين وهى طفلة لا تكاد تستطيع المشى . فلما عاد سأله أبوك عنها فبكا وزعم أن فرسا من أفراس النخاسين اختطفها منه — لأن فى تركستان جماعة يربون الخيل على النخاسة ويعودونها خطف الاطفال بأسنانها فيلتقط الفرس الطفل بأسنانه ويطير به الى منزل صاحبه — ولم يصدق والدك ما قاله سامان وغضب عليه من ذلك الحين وأشاعوا أنها ماتت ! »

وكانت آفتاب تتكلم والجميع سكوت كأن على رؤوسهم الطير . فلما فرغت أكبت جهان على ياقوتة وضمتها وطفقت تقبلها وياقوتة أشد فرحا من الجميع ، لأنها كانت تحسب نفسها جارية فاذا هى بنت المرزبان . فقبلت اختها والدهشة لا تزال سائدة والكل يقولون : « لم تكن هذه المشابهة بين الاختين عن عبث » . وأخذوا يتساءلون وهم يحسبون أنفسهم فى حلم فقالت جهان : « افصح يا سامان ، قل كيف أخذت شهر زاد منك ؟ »

فأجابها وهو يمسح دموعه : « انتبهت لوجودى وأنا فى نحو العاشرة من العمر ، واختك هذه فى نحو الرابعة ، ورأيت أبوينا يحبانها كثيرا ويدللانها ويهملاننى فدب الحسد فى قلبى فصرت اظهر الكره لأختى وهما يزيدانني حسدا بتمييزها عنى بالهدايا والنقود ، وكنت اذا طلبت نقودا من أبى لم يعطنى وأنا ارى النقود مع أختى أو حاضنتها ، وسمعت ذات يوم أناسا يطوفون البلاد يشترون الاطفال فغافلت الحاضنة واخذت شهر زاد الى البساتين فرايتهم مارين فبعتها لهم بدينارين وعدت وساروا هم فى طريقهم . ولما سئلت عنها قلت أنها خطفت منى فلم يصدق أبى . وعرف بعد ذلك أنى بعتها وبعث من يفتش ويبحث بلا فائدة . فكرهنى من ذلك الحين وهددنى بالحرمان من ماله فصرت ارى كل الناس أعدائى ، وتوهمت أن كل حركة يأتونها انما يريدون بها نكايتى او أذيتى ، فأصبحت ولا هم لى الا كسب المال لأستعين به عليهم . وأول سعى بذلته فى هذا السبيل انى حاولت منع أبى من كتابة الوصية ففشلت ، فأردت اصلاح هذا الفشل فوقعت فى فشل آخر . وهكذا كما تعلمون . ولم أدرك هذه الحقيقة الا وانا فى السجن منذ يومين » . قال ذلك وتنفس الصعداء ، ثم عاد الى اتمام الحديث وقد زاد وجهه امتقاعا وبدت الرعدة فى أطرافه والاضطراب فى عينيه وقال : « وقد تأخذكم الشفقة علي بعد ما بسطته لكم فاعلموا أنى لا التمس عفوكم لأن من كانت حياته سلسلة فظائع لا يجوز أن تنتهى بغير القتل » . قال

ذلك واستل من جيبه خنجرا طعن به صدره فسقط يتخبط بدمه !

فضج الحضور وابتعد النساء عن هذا المنظر . وقد اسفوا على موت سامان بعد ان ايقنوا انه تاب . فترحموا عليه وامروا بدفنه وكانت جهان اكثرهم حزنا عليه

اصبحت روابط القرابة والنسب الجديدة بين جهان وياقوتة حديث الناس ، واقتسما ميراث ابيهما ، واصبح حماد وضرغام نسيبين وقد نالا حظوة في عيني المعتصم وتم لهما ما يريدان : على ان ضرغاما بقي في خاطره شيء يحب الاطلاع عليه فخلا الى امه يوما وقال لها : « الم يئن الوقت لكشف حقيقة نسبي ؟ ما الذي تنتظرينه بعد الذي رايته من نعم المولى علي ؟ »

قالت : « لا انتظر شيئا ولكنك مع ذلك لم تنل ما أنت أهل له »

فقال : « تعنين أن أبي كان أعز جانبا وارفع مقاما مني ؟ » . قالت «نعم»

قال : « فهو اذن من كبار القواد أو الوزراء ، واذا صح ذلك فلا يعقل أن يكون خبره مكتوما عن الناس »

قالت : « انه فوق ما ذكرت »

فبهت ثم قال : « لم يبق الا أن يكون من اشراف قريش أو بني هاشم او بني ابي طالب »

قالت : « انه أخص من ذلك كثيرا »

فاطرق وفكر فيما تعنيه امه فلم يبق الا ان يكون ابوه الخليفة وهم بأن يسألها عن ذلك فخجل وامسك وظل ساكتا وهي تنتظر سؤاله فلما استبطأته قالت : « لماذا لا تتمم اسئلتك يا ضرغام ؟ »

قال : « يخجلني ان أقول ما في خاطري »

قالت : « لا تخجل أن تسأل اذا كان أبوك خليفة فانه كذلك ! »

فأجفل وقال : « أبي خليفة ؟ كيف يمكن ذلك . ان المعتصم يضارعني سنا فلا يمكن أن يكون هو المراد ، وكذلك المأمون والأمين »

قالت : « ان هؤلاء اخوتك »

فقال وقد اخذته الدهشة : « فأنا اذن ابن الرشيد ؟ ! »

قالت : « نعم يا بني وهذه اول مرة نطقت بهذه الحقيقة بعد مرور الأعوام الطويلة »

قال : « اليس في الدنيا احد سواك يعرفها ؟ » . قالت : « كلا »

قال :« وما معنى كتمانها كل هذا الزمن والناس يفاخرون بالانتماء الى اتباع الخلفاء فكيف بالخلفاء انفسهم ؟ »

قالت : « لذلك سبب معقول وهو أنيّ كنت من جوارى الرشيد فى قصره ببغداد وكان يحبنى حتى كانت الليلة التى فتك فيها بأخته العباسة وبجعفر البرمكى وابنيهما الحسن والحسين . وقد بالغ فى التكتم حتى قتل كل من استخدمه لذاك الغرض فلم يكن احد من اهل القصر يجسر على الخروج من حجرته مع انهم مطلعون على كل شىء من بعيد ، الا انا فقد حدثتنى نفسى لصغر سنى يومئذ أن اخرج لأرى واسمع ، فوقفت موقفا ظننت نفسى مختبئة فيه لا يرانى أحد ، فسمعت حديث الرشيد رحمه الله مع زوجته زبيدة بشأن أخته واشياء اخرى . وفيما أنا فى ذلك رايت زبيدة نفسها مقبلة نحوى وهى تقول : (يا هرون ان جواريك يسمعن حديثنا !) . فوقع الرعب فى قلبى وايقنت انى مقتولة لا محالة فلم تعد ركبتاى تحملاننى من الرعشة ثم سمعت الرشيد يرعد بصوته من الغضب ويقول : (من هذا ؟) وأمر مسرورا فحملنى اليه فلما رآنى أظهر الأسف على لأن قتلى لا مناص منه . فلما راى دموعى رفق بى ولكنه كان شديدا فاطرق لحظة ثم قال : (يا حبيبة — وهذا كان اسمى عنده — قد سعيت الى حتفك بظلفك)

« فتراميت عند قدميه وبكيت وغسلت رجليه بدموعى ، وكنت يومئذ حاملا فقلت : (اشفق على صباى بل اشفق على هذا الجنين)

« فوجم وتراجع ثم قال : (اعفو عن حياتك ، ولكننى لا اقدر أن اراك ولا اسمع اسمك) . ونادى مسرورا فأتى فأمره ان يجهزنى بالمال ويدبر نقلى الى البلد الذى اختاره ، فاخترت فرغانة لأنى كنت اعرفها من قبل

« وصرفنى فخرجت مع مسرور فى الليل الدامس الى خارج بغداد وقد أعد لى الأحمال وأوصى المكارى بى ودفع الى مالا وجواهر تكفينى اعواما وودعنى . فقضيت فى الطريق مدة طويلة ولدتك فى اثنائها . واخيرا وصلت الى فرغانة وعرفت المرزبان وعائلته ، وطلبنى اناس للزواج فأبيت وانقطعت الى تربيتك وأنا كاتمة سرك ، وانت تطلب المجىء الى العراق ، وانا اخالفك . ولما مات الرشيد ، وماتت زبيدة هان على المجىء ورضيت بسفرك الى العراق »

فلما فرغت آفتاب من كلامها قال لها ضرغام : « فأنا اذن أخو المعتصم ؟ »

قالت : « نعم انك أخوه فاذا علم هو بذلك زادك تقريبا »

فهز رأسه هزة الإنكار وقال : « كلا ، ان هذا السر يجب أن يبقى مكتوما بيننا لئلا يطلع عليه المعتصم فتتحول محبته الى حذر وكيد . يكفينى انى عرفت حقيقة نسبى ، ولا ارى فائدة من كشفه لأن الناس لا يصدقوننا . ونحمد الله اننا نلنا من النعم والرتب فوق ما كنا نتمناه »

روايات تاريخ الإسلام

صدر منها :

- فتاة القيروان
- الأمين والمأمون
- غادة كربلاء
- المملوك الشارد
- عروس فرغانة
- عبد الرحمن الناصر
- عذراء قريش
- فتح الأندلس
- أرمانوسة المصرية
- جهاد المحبين
- صلاح الدين الأيوبي
- الانقلاب العثماني
- العباسة أخت الرشيد
- استبداد المماليك
- أبو مسلم الخرساني
- شجرة الدر
- شارل وعبد الرحمن
- أحمد بن طولون
- فتاة غسان
- أسير المتمهدي
- الحجاج بن يوسف
- ١٧ رمضان